علي شاكر

صدّام و أنا ... ومتلازمة ستوكهولم

دار الثقافة الجديدة

صدام، وأنا ...

ومتلازمة ستوكهولم

تأليف: **علي شاكر**

الطبعة الأولى ٢٠١٨

© حقوق النشر محفوظة لـ " دار الثقافة الجديدة "

الناشر

دار الثقافة الجديدة

" شركة ذات مسئولية محدودة "

٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس: ٢٣٩٢٢٨٨٠

e-mail: elguindimohamed93@gmail.com

http://www.facebook.com/Dar.Elthaqafa.Elgedeeda

الغلاف: **أحمد اللباد**

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٧٩٤٧

الترقيم الدولي (I.S.B.N): 978-977-221-234-7

علي شاكر

صدام، وأنا...
ومتلازمة ستوكهولم

دار الثقافة الجديدة

صدام حسين

مولود في عام ١٩٣٧ في قرية العوجة في ضواحي مدينة تكريت، رئيس جمهورية منذ عام ١٩٧٩ وحتى عام ٢٠٠٣ عندما اجتاحت قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية العراق وأطاحت بحكم حزب البعث العربي الاشتراكي فيه، ألقي القبض عليه بعد شهور وحوكم بتهمة الإبادة الجماعية... تم تنفيذ حكم الإعدام فيه بطريقة أثارت استياء الكثيرين في الأيام الأخيرة من عام ٢٠٠٦.

أنا

مهندس معماري، فنان تشكيلي، ولاحقا، كاتب باللغتين العربية والإنكليزية، مولود في بغداد في مطلع عام ١٩٦٩... لم يسبق لي لقاء صدام حسين رغم أن ظله قد خيّم، ولا يزال يُخيّم على مجريات حياتي حتى بعد مرور أكثر من عشر سنوات على وفاته وهجرتي من العراق.

متلازمة ستوكهولم

ظاهرة لا تزال تُحير علماء النفس حتى اليوم ولذلك فهي ليست مدرجة بعد في الموسوعات المرموقة رغم عدم إنكار أعراضها، سُميّت بهذا الاسم اثر حادثة احتجاز رهائن داخل بنك في العاصمة السويدية في سبعينيات القرن المنصرم، تم إطلاق سراح المُختطفين بعد أيام معدودة، لكن المحققين لاحظوا بوادر تعاطف غير مفهوم بين المُحتجَزين المُحرِّرين وخاطفيهم... يُعرّف قاموس كيمبردج متلازمة ستوكهولم بأنها "الموقف الذي يبدأ فيه الشخص الذي تعرض للاحتجاز بالإعجاب، أو وضع ثقته بمن قام بخطفه".

صدام، وأنا...
ومتلازمة ستوكهولم

عنوان مستفز، رخيص، غايته جذب القرّاء والترويج لكتاب ما كان أحد ليعيره اهتماما لولا وجود اسم صدام حسين على غلافه...

أعلم أن ذلك ما سيقوله الكثيرون، سيتهكّمون أيضا بأن المؤلف لم يلتق بالرئيس السابق وجها لوجه في حياته ومع ذلك زج باسمه كي يلفت الأنظار للحكايا التي يرويها عن أحداث جانبية وأناس عاديين... فعلا، أين ذكرياتي ومشاهداتي من إثارة وتشويق الكتب التي صدرت عن طبيب الرئيس، مترجمه الشخصي، شبيه ابنه الأكبر، ابنة طيّاره الخاص وصديقه، فتاة تدّعي بأنها كانت معشوقة عدي صدام حسين، الخ، الخ.

حرصت على قراءة كل ما توفر بين يدي من شهادات عن شخص الرئيس السابق، معظمها نُشر باللغة الإنكليزية، وباستثناءات قليلة ولسبب مجهول لم تتم ترجمتها إلى العربية... بعض الروايات بدت موضوعية في طرحها إلى حد معقول فيما انجر بعضها الآخر إلى محاولة تزييف الحقائق أو حتى اختلاقها لغايات في نفوس الرواة والناشرين، وهو، على أية حال، أمر شائع في العديد من كتب المذكرات والسير، العربية منها والعالمية.

قناعتي الشخصية أن سماع إفادات المُقرّبين من صُناع الحدث في أي عصر مهمة وأساسية، لكنها لا تكفي وحدها لرسم صورة شاملة عنه (العصر) فالمشهد لا يكتمل ما لم يتضمّن روايات المُستقبِلين للحدث أيضا وهو ما أغفلته معظم دور النشر العالمية في خضم تدافعها المحموم للحصول على قصص تحبس الأنفاس، تشبع بها نهم القارئ الغربي البسيط لوجبة دسمة مُتبّلة بفظائع الشرق وفضائحه... كان ذلك سبب إحجامي عن نشر شهادتي التي كتبت مسودتها مباشرة بعد غزو العراق واحتفظت بها لأكثر من عشرة أعوام في حقيبة صغيرة تضم وثائق شخصية قديمة لي ولأسرتي.

فما الذي جدّ في الأمر، ولماذا أعيد كتابتها الآن بعد كل تلك السنين؟

الإجابة على هذا السؤال المنطقي تقتضي مني ذكر حقيقة أني أدين بالكثير لعمّان، المدينة التي ورد ذكرها في كل ما نُشر لي تقريبا منذ أن قررت التفرغ للكتابة

قبل أكثر من ثمان سنوات فكتابي الأول باللغة الإنكليزية ضم روايات لأحداث كنت شاهدا عليها خلال إقامتي في العاصمة الأردنية بعد مغادرتي العراق ثم زياراتي المتكرّرة لها بعد أن استقر بي المقام في نيوزلندا، عمّان كانت حاضرة كذلك في كثير من مقالات الرأي التي كتبتها تباعا فيما كرّست روايتي "كافيه فيروز" علاقتي الفريدة بالمدينة وذكرياتي عنها وعن ساكنيها وأفواج المهاجرين واللاجئين إليها.

في عمّان أيضا، وتحديدا في سفرتي الأخيرة إليها استوقفتني ظاهرة تنامت بين صفوف الشباب من العراقيين المقيمين في الأردن وخارجه، ألا وهي صعود نجم الرئيس السابق وشعبيته كرمز وطني وأيقونة للمجد العراقي والعربي الضائع... لم أكن غريبا بالطبع عن مشاعر الود والإعجاب التي يحملها كثير من سكان عمان لصدام حسين، وهو أمر مفهوم عندما يُقرأ ضمن سياقه العاطفي في مدينة يشكل الفلسطينيون والأردنيون من أصول فلسطينية نسبة كبيرة من قاطنيها، فالرئيس العراقي السابق كان أول من أطلق الصواريخ على مدن إسرائيل خلال حرب الخليج الأولى كما شكلت فلسطين والقدس قاسما مشتركا بين مئات الخطب التي ألقاها خلال سنوات حكمه، بل أن هتافه بحياة فلسطين كان آخر ما تفوّه به قبل دقائق قليلة من إعدامه، ما أثار فضولي ودفعني للبحث في الأمر هو تزايد شعبية صدام حسين بين مواطنيه المبعثرين في المهاجر وتصدّر صوره شاشات الهواتف النقالة للعديد منهم وصفحاتهم على شبكات التواصل الاجتماعي.

غادرت عمّان وفي نيتي التفتيش عن مسودتي القديمة ونشرها، لكنني وبعد قراءة سطور قليلة فقط، أدركت بأن مهمتي لن تكون سهلة فالعواطف الجياشة التي غلّفت كلماتي قبل عقد من الزمن لم تعد مناسبة اليوم ولن تكون مجدية ما لم يتم تشذيبها والتعليق عليها والإضافة لها كي يصير الطرح موضوعيا رغم يقيني بأن عدم شخصنة موضوع ذي بعد عام وشخصي في نفس الوقت أمرٌ يقارب المستحيل، لكن ذلك ما سأسعى لتحقيقه... سأحاول، قد أصيب وقد أخطئ.

أخيرا، ينبغي التنويه عن هيكلية الكتاب الذي يقع في جزأين، يغلب طابع استرجاع الذكريات على أولهما بينما يميل الآخر إلى التحليل والتأمل مع تقاطعات بين المسارين هنا وهناك... الموضوع شائك ومعقد ومتعدّد الأبعاد، لذلك فأنا أدعو القارئ ألّا يصدر أحكامه وفق ما سيطلع عليه هنا فقط، بل عليه قراءة شهادات أخرى

ووجهات نظر مختلفة ومخالفة للحصول على تصوّر أوضح لعصرٍ مثير للجدل ترك أثره ظاهرا ليس فقط على مسار الأحداث السياسية وتطوراتها في العراق، لكن أيضا في العديد من البلدان العربية التي اجتاحتها عواصف التغيير وأعاصيره بعد سنوات قليلة من تدلّي جسد صدام حسين من حبل المشنقة ذات نهار شتوي بارد في بغداد.

تساؤلات، هلاوس...

عن قصاصة كتبت سطورها بخط مضطرب بعد مرور شهر على الإطاحة بحكم صدام حسين في ٢٠٠٣

هل جُننّا؟

أم أن العالم بأسره قد جُنّ؟

أكاد لا أصدّق ما أرى وأسمع

الصدمة تفوق قدرتي المنهكة على الاستيعاب...

أيسقط نظام صدام؟

أيموت كما نموت جميعا؟

كيف؟

الرجل أزليّ , أزليّة النوازع الكامنة في نفوس البشر...

سريعا، سيجد منفذا يعود منه أكثر شراسة

فعلها من قبل، أكثر من مرة

تلك سيّدة تقول: أشعر كأنّي خارجة من زلزال مدمّر, تفكيري مشتّت...

بالأمس، قابلت صديقا يعيش هاجس أن يطرق "القائد" بابه ذات ليلة كي يؤويه

ماذا عساه يفعل؟ هل يوافق، أم يرفض؟

كيف يقول المرء لا لصدام؟

صورٌ تستحضر صوراً...

المشهد الأول

محل بقالة صغير في الصويفية في عمان، مطلع عام ٢٠١٥

عندما دخلت لشراء بطاقة تعبئة رصيد لهاتفي النقال، وجدت صاحب المحل منهمكا في محادثة شاب مصري الجنسية أدركت لاحقا أنه يعمل حارسا لإحدى البنايات المجاورة، شاشة التلفزيون الصغيرة المثبتة على الحائط كانت تنقل تغطية قناة الجزيرة لسيطرة ما سُمي بـــ "داعش" على عدد متزايد من القرى والمدن في العراق بعد مقاومة هشة من قبل قوات الجيش النظامي التي لاذ معظمها بالفرار.

صاحب المحل الأردني: "رحمة الله على أبي عدي، كان رجلا لم ولن يتكرر، كم كان كريما إذ أمر بتزويد الأردن بالوقود المجاني في وقت كان العراقيون فيه يعانون شظف العيش تحت وطأة الحصار".

الحارس المصري: "عليه ألف رحمة ونور! عمل والدي في العراق في الثمانينات ولا يزال حتى اليوم يحكي عن صدام وشهامته مع المصريين، كان أبي يحصل على مرتب محترم بالدولار الأمريكي في آخر كل شهر من وزارة الثقافة والإعلام في أوج سنوات الحرب مع إيران، لم يكن تحويل الأموال في تلك الفترة مسموحا للعراقيين، كلما شاهد والدي صورة الشهيد، قال لنا: "لحم كتافكو من خير الراجل ده!"" .

أحس الرجلان بوجودي معهما فنظرا إلي وهما يتوقعان أن أشاركهما وصلة الترحّم، وددت فقط أن أذكّرهما بأن من يتحدثان عنه كانت وظيفته وصفته الرسمية رئيسا لجمهورية العراق، لم يكن رئيسا لمصر ولا ملكا للأردن... تذكرت حوارات سابقة لي مع الأشقاء حول نفس الموضوع وكيف كانت محاولاتي لتوضيح الحقائق تصطدم في كل مرة بجدار أصم، لا جدوى من الحديث، قفلت خارجا دون أن أبتاع شيئا

... من يدري؟ ربما لو كنت مكانهما لحملت للرجل ذات مشاعر المودة التي يكنانها له.

المشهد الثاني

فندق فاخر مطل على الدوار الخامس في عمّان، عام ٢٠١٤

حركة استثنائية دبّت في أروقة المبنى الذي اعتاد على استقبال زائري المدينة من الأغنياء، عربا وأجانب، الفرق هذه المرة أن النزلاء كانوا من فئة فاحشي الثراء، أحس العاملون بذلك عندما توافد المدعوون على الأجنحة المحجوزة لهم قبل يومين من الليلة الحدث، جاءوا مع حقائبهم الكثيرة من بغداد وأربيل ودبي وبيروت ولندن وتورونتو وسواها من مدن الاغتراب، الاستعدادات للحفل جرت على قدم وساق منذ الصباح الباكر، حالة استنفار وأجواء متوترة سادت المطبخ بينما تراكض منسقو الزهور بين الطاولات المكسوة بالبياض مع لمسات من اللون البنفسجي كما زي الوصيفات، فستان العروس صنعه لها مصمم لبناني عالمي الصيت وتكلّف مبلغا باهظا فقد كان مرصعا بالأحجار الكريمة.

تردد صدى تجارب الصوت في أرجاء القاعة الواسعة تمهيدا لوصلة المطرب الشهير المقل في إحياء الأعراس، وافق على الحضور لعلاقة صداقة وعمل جمعته بعائلتي العروسين، فقرته ستكون الأخيرة في منهاج الحفل كما طلب تسبقها وصلة الراقصة المصرية المثيرة ثم مطرب شاب اشتهر بمشاركته مؤخرا في برنامج لاكتشاف المواهب وإن لم يتسن له الفوز بالمرتبة الأولى فيه... أحد العاملين همس لزميله الذي ساعده في حمل الكراسي ورصّها حول الطاولات وفق التوجيهات الصارمة للفريق المُنظم للحفل أن تكلفته قد بلغت الملايين من الدولارات وأن أهل العروسين سيقومون بتوزيع مكافآت سخية على كل من شارك بالتحضير للمناسبة السعيدة.

كل شيء تم وفق الجدول المتفق عليه مسبقا حتى بدأت فقرة المطرب الشاب التي استقبلها الحضور بالتصفيق الحار والومضات المنبعثة من هواتف الفتيات اللاتي تجمعن حول المسرح لالتقاط الصور معه... قبل اعتلائه المنصة بلحظات، همس مدير أعمال المغني في أذنه بمعلومة أبلغه بها أحد الموسيقيين العراقيين في الفرقة مفادها أن والد العروس هو من رجال الأعمال الذين صنعوا ثرواتهم خلال عهد الرئيس العراقي الراحل، ابتسم الفتى الوسيم عندما أدرك غاية الرسالة التي تبلغها، انتهى من أداء

أغنيته الأولى وسط حماس لافت، حيّا العروسين بكلمات رقيقة ثم أشار إلى أعضاء فرقته بالتهيؤ لمواكبة غنائه.

"أحلى موال تحية لروح الشهيد صدام، بطل العراق والأمة العربية!" أعلن المطرب بفخر عن فقرته، لكن ما حدث بعد ذلك لم يكن متوقعا.

انشطرت جموع الراقصين المبتهجين في لحظات إلى نصفين، نصف هللّ وصفّق، بينما غادر النصف الآخر الحلبة بوجوه متجهمة ومستنكرة، أكمل الفتى الغناء رغم دهشته ففي المرابع الليلية التي قدّم فيها موّاله من قبل كانت أموال الساهرين تنهمر عليه بمجرد ذكر اسم الرئيس الراحل... ما لم يعلمه مدير أعمال الفنان الشاب أن والد العريس كان عضوا في واحد من الأحزاب السياسية التي ناصبت صدام ونظامه العداء طيلة عقود، ما كان الرجل الملتحي ليوافق على إتمام زواج نجله من الفتاة الحسناء لولا نفوذ وثروة والدها الذي وقّع معه مؤخرا عقد شراكة غير معلن للاستثمار في مشروع سياحي ضخم في أحد الدول العربية.

الموّال الصدمة أيقظ في نفوس الحاضرين لهيب كراهية أخمده مؤقتا تقاطع مصالحهم... نشوة نصف المدعوين، على أية حال، تكفّلت بألا يغادر المطرب العرس خالي الوفاض.

- *وفق رواية صديق مقيم في الأردن.*

المشهد الثالث

صالة مطار بغداد الدولي (صدام سابقا) في يوم عيد العشاق، عام ٢٠٠٦

مغادرتي العراق في ذلك التوقيت بالذات كانت واحدة من الأحداث المفصلية التي صنعها القدر وأسفرت عن تغيير مسار حياتي دون رغبة مني أو تخطيط مسبق... هدفي كان قضاء إجازة قصيرة التقط فيها أنفاسي ثم أعود إلى الجحيم الذي صاره بلدي بعد مرور ثلاث سنوات على الحرب الأخيرة، لم أكن أعلم أن تلك ستكون المرة الأخيرة التي تقع عيني فيها على المدينة التي أمضيت فيها جلّ عمري وحلمت لها ولي بمستقبل مشرق لم يأت.

كل شيء كان محفوفا بالمخاطر، الطريق إلى المطار، إجراءات التفتيش المعقدة ومتعددة المراحل، تواجدي في المبنى الذي لم يسلم من سقوط قذائف في

محيطه، كان واردا أن تتأجّل الرحلة أو يتم إلغاؤها في اللحظة الأخيرة... جلست على أحد المقاعد بانتظار الإعلان عن فتح بوابة المغادرة لركاب رحلة الخطوط الجوية العراقية المتجهة إلى الأردن عندما تعالت أصوات من خلفي، التفت فرأيت مجموعتين من المسافرين تتشاجران، تطور الصراخ سريعا إلى تشابك بالأيدي فيما بدأت النسوة والأطفال بالبكاء، تدخّل العاملون في الصالة لفك الاشتباك الجسدي، لكن السباب والتهديد استمرا ثم قام كل من الفريقين بالتقاط صور بهواتفهم المحمولة للطرف الآخر في إشارة إلى أن الموقف لم يحسم بعد وستكون له تبعات وخيمة، سبب المعركة كانت كلمة تفوّه بها أحدهم استفزت المشاعر المذهبية للآخر الذي انفجر غضبا.

ما حاجة الإرهابيين إلى قنابل يزرعونها في شوارعنا؟ نحن قنابل موقوتة سريعة الانفجار، شديدة الدمار... ترى، أي غد ينتظرنا؟

ما حدث أمام ناظري في صالة الترانزيت في مطار بغداد كان إرهاصة ونذيرا لما سيحدث لاحقا

لكنه لم يكن أول النُذُر...

الجزء الأول

صدام وأنا...

درب الآمال والآلام

يوما ما، سيكتشفون مسحوقا أو جهازا يستطيع مسح الأمكنة وتحديد تاريخ ونوع المشاعر التي ذرفها من مرّوا بها، عندما يحدث ذلك، سيُدهش العالم من كم الخوف والأمل الذي انسكب منا على امتداد شريان الإسفلت الذي ربط بغداد بعمان منذ مطلع التسعينيات... جنبات الطريق السريع الذي يخترق الصحراء ستضيء بألوان الوجع البشري وأحلامه فلم يكن بوسع المسافرين معرفة إن كان ما ينتظرهم في منتصف الرحلة هو السجن، الموت، أم الخلاص.

مروري الأول على الطريق كان بعد أقل من عام على انسحاب القوات العراقية من الكويت، أغمضت عيني في مقعدي في الحافلة التي أقلتني إلى عمان ورحت أُمنّي نفسي بشيء من الترويح، كنت بحاجة إلى الخروج ولو لبضعة أيام من أجواء ما بعد الحرب أو "أم المعارك" كما اختار "القائد" أن يسميها، رحلتي إلى الأردن كانت ستكون الأخيرة المتاحة لي فقد كنت على أبواب العام الدراسي النهائي في الجامعة ولم يكن السفر مسموحا للخريجين قبل أن ينهوا خدمة العلم الإلزامية التي لم يكن أحد يعلم كم ستطول وكيف ستنتهي... أمضيت ساعات الرحلة الطويلة واجما، ساهما، أسترجع أهوال الحرب الأخيرة ومعاناتي في سبيل الحصول على تصريح بالسفر ووقوفي بانتظاره لساعات طويلة أمام شباك صغير في مبنى كئيب متهالك، تذكرت اللحظة التي صرخ فيها أحدهم باسمي وسقوط الجواز الممهور بالختم كصيد ثمين بين يديّ بعد طيرانه فوق رؤوس باقي المتزاحمين على رخصة للهروب.

لكن، إلى أين الرحيل؟ تساءلت مع نفسي لحظتها وأنا أحكم قبضتي على الوثيقة الخضراء الداكنة التي يحتل غلافها الأمامي شعار نسر الجمهورية المذهب.

هل ثمّة خيار آخر غير عمّان؟ الأردن كان البلد الوحيد الذي استمر باستقبال العراقيين برّا بعد حظر الطيران المدني من والى العراق وامتناع معظم دول الغرب (والعرب أيضا) عن منحنا تأشيرات الدخول إلى أراضيها.

لا بأس... فلتكن عمان وجهتي إذًا!

قلة حماستي كان سببها ذكريات زيارتي الأولى للمدينة قبل أكثر من ثلاثة عشر عام مع أسرتي عندما كنا في طريقنا إلى أوروبا، انطباعي الأول كطفل لم يكن

ايجابيا فقد لف الظلام أرجاء عمان بسبب انقطاع التيار الكهربائي عنها عند وصولنا ليلا إلى مطار الملكة علياء، بدت العاصمة صغيرة ومقفرة خلال تجوالنا في أحيائها صباح اليوم التالي... سقف توقعاتي كان أوطأ بكثير هذه المرة فلم أعد طفلا ولم أكن أبحث عن تشويق أو إثارة، كنت فقط بحاجة إلى استنشاق هواء أقل تلوثا من هواء بغداد الذي أفسده دخان الصواريخ والجثث المتفحمة وشعارات نصر موهوم كان في حقيقته هزيمة مشينة ومُروّعة.

بعد طول عناء وانتظار واستجواب وتفتيش دقيق في مركز طريبيل الحدودي، صدرت الأوامر لسائق حافلتنا بالتحرك نحو الحدود الأردنية، لاحظت كما لاحظ من معي أن ثمة مسافة تفصل بين خط الحدود ومركز الرويشد الذي كان علينا إكمال إجراءات الدخول فيه، همس جاري في أذني ان تلك الأرض كانت جزءا من العراق لكن "السيد الرئيس" تنازل عنها للأردن تثمينا منه لموقف الملك حسين الداعم له خلال الأزمة الأخيرة... لم تفاجئني المعلومة فبعد حرب ضروس استمرت لثمان سنوات مع إيران عاد صدام فتنازل عن الأراضي التي غنمها على طول جبهات القتال بين الجارين اللدودين لضمان حياد ملالي طهران خلال مواجهته "العدوان الثلاثيني" كما أسمته أجهزة إعلامنا كناية عن ثلاثين دولة أجنبية وعربية شاركت في الحرب ضد العراق لإخراج قواته من الكويت.

مشاهدتي صور الملك حسين وشقيقه وولي عهده (حينها) الأمير حسن معلقة على جدران المركز الحدودي الأردني كانت صدمة بصرية لإنسان اعتادت عيناه على رؤية وجه شخص بعينه في كل مكان تواجد فيه منذ أن كان تلميذا في المدرسة الابتدائية، الرجلان بديا ودودين وأكثر هدوءا وأقل صرامة من رئيسنا، لم أجرؤ على البوح بانطباعي لأحد من المسافرين معي، بقيت ساكتا حتى انطلقت حافلتنا نحو وجهتها النهائية التي بلغناها بعد ساعات عدة... أدهشني التغيير الذي طرأ على عمان، صارت مدينة حديثة، نظيفة الطرقات، عامرة البنيان، عزا الركاب الآخرون ازدهار الأردن خلال السنوات الأخيرة لدوره كحليف استراتيجي لنا في حربنا مع إيران وتحول ميناء العقبة فيه إلى منفذ العراق التجاري والعسكري الوحيد إلى العالم.

اغتسلت من وعثاء السفر الذي أستغرق قرابة يومين ثم استلقيت على السرير ورحت أتصفّح بعض المطبوعات السياحية الموضوعة على طاولة غرفتي الفندقية.

استوقفتني صورة لمجمع بنك الإسكان الذي كان حديث العديد من العراقيين العائدين من زيارة عمّان، ملأني الفضول لاختبار عمارة المبنى الكبير واستكشاف أروقته فقمت باستئجار تاكسي حملني إليه رغم التعب والإعياء... أصبت بخيبة أمل عند دخولي إلى البهو الذي بدا مظلما رتيبا على عكس واجهة المبنى الأكثر حيوية، لكن تلك لم تكن خيبة الأمل الوحيدة التي خبرتها في تلك الأمسية.

طالعني وجه شاحب لشخص مسن طويل القامة يتجول مع سيدة وبضعة مرافقين بين المحلات، ملامح الرجل بدت مألوفة لي، كان الرئيس الجزائري السابق بن بيلا، تعرفت عليه سريعا فصوره كانت تملأ الجرائد وشاشات التلفزة خلال زياراته لبغداد لمقابلة صدام حسين في الفترة التي سبقت بدء العمليات العسكرية، في كل مرة كان أحمد بن بيلا يدلي بتصريحات رنّانة لوسائل الإعلام يؤكد فيها عزمه على مواصلة النضال في الدفاع عن العراق ضد التحالف الغاشم الذي يتربّص به ويشدّد على استعداده للتضحية بروحه في سبيل بوابة المشرق العربي وسلامة أهلها، لم يكن بن بيلا الشخصية السياسية الوحيدة التي أعلنت تضامنها الكامل مع الرئيس العراقي بعد غزوه الكويت، كان فردا ضمن مجموعة من العروبيين الذين راهنوا على أن صدام حسين إن لم ينجح في الاحتفاظ بالإمارة الثرية والاستحواذ على مواردها الضخمة، فهو حتما سيجد مخرجا آمنا لأزمته مع الغرب ولن ينسى حينها من وقفوا معه خلال وقت الشدة.

ما حدث بعد ذلك لم يكن في الحسبان، في أسابيع معدودة فقط انهارت قدرات العراق العسكرية تحت وطأة قصف غير مسبوق الكثافة من قبل قوات التحالف أسفر عن انسحاب غير مشروط من الكويت وانهيار شبه تام للبنى التحتية في طول البلاد وعرضها، رغم خطاباته التي زعم فيها النصر على المعتدين، أمسى صدام حسين بعد الحرب فقيرا محاصرا ومنبوذا من العالم أجمع، كثر توقعوا أن بقاءه على رأس السلطة لن يطول كثيرا فانفضّت جوقات المؤيدين السابقين سريعا ولم نعد نرى لهم أثرا... تذكرت ذلك عندما مرّ الرئيس الجزائري السابق بجواري بكامل أناقته، لفتني أنه كان مطأطأ الرأس.

واجهات المحال في المجمع التجاري الضخم كانت تعرض العديد من سلع الرفاهية التي لم تستوقفني كثيرا فأسواق بغداد كانت هي أيضا مكتظة في تلك الفترة

بالبضائع الفاخرة المسروقة من الكويت... وفرة المواد المنهوبة وجودتها أثارتا دهشة الكثير من العراقيين وأنا من ضمنهم، فالكويت التي تعادل في مساحتها ضاحية من ضواحي عاصمتنا كانت تحوي من السيارات والملابس والمواد الغذائية والكهربائية ما غمر متاجرنا بالسلع حتى بعد مرور عام على الغزو الذي رافقه سطو شامل للممتلكات لم يستثن خزائن البيوت ولا متعلقات الأفراد الشخصية.

مضيت في تجوالي قبل أن ألحظ صورة معلقة لصدام حسين على جدار بارز... تسمّرت قدماي وفغرت فاي، تردّد في أذني صوت ضحكة الرئيس، كدت أسمعه يقول لي:

أيها المارق الأحمق، هل ظننت أن ثمّة فكاك من سطوتي؟

إلى جوار صورة صدام كانت هناك صورة للعاهل الأردني مع زوجته الحسناء الملكة نور، بدت الصورتان مختلفتين تماما عن بعضهما البعض إلى درجة التضاد، تماما كما شخصيتي الرجلين الظاهرين فيهما... العلاقة الوطيدة التي جمعت بين العاهل الأردني والرئيس خلال عقد الثمانينات الذي شهد زيارات متكررة للملك حسين إلى العراق ودعمه المطلق له في حربه مع إيران كانت محل دهشة وتساؤل الكثير من المراقبين لأسباب كثيرة لعل أبرزها أن صدام كان يمثل الأيديولوجية التي أطاح معتنقيها بالهاشميين من على عرش العراق في عام ١٩٥٨ وتسبّبت بقتل معظم أفراد العائلة المالكة آنذاك والتمثيل بجثثهم وسحلها في شوارع بغداد.

لطالما سمعت والديّ ومعارفهما وهم يتحدثون بحنين عن عهد الملكية الذي اعتبره بعض المؤرخين المعاصرين فترة ذهبية شهدت بلاد الرافدين خلالها ممارسة معقولة للديمقراطية ومبدأ المعارضة السياسية وحرية الصحافة وسواها من القيم التي لم يألفها أبناء جيلي بل لم نكن نجرؤ على الحديث عنها ولو همسا... صورة العاهل الأردني أعادت إلى ذهني ما كنت قد قرأته ذات مرة في كتاب عن سيرة "جيرترود بل" بأن الملك عبد الله الأول (جد الملك حسين) شعر بمرارة عظيمة عندما عهد الإنكليز إليه بعرش إمارة شرق نهر الأردن فيما وقع الاختيار على أخيه فيصل كي يكون ملكا لسوريا ثم العراق، زعمت الآنسة بل التي أطلق عامة العراقيين عليها لقب "الخاتون" أن الساسة في بلدها كانوا عاقدي العزم في بادئ الأمر على تنصيب عبد الله

على عرش العراق، لكنهم عدلوا عن قرارهم بعد أن وجدوا أن شقيقه الأصغر فيصل بشخصيته التي تميل إلى المهادنة أنسب منه لحكم بلاد الرافدين.

ماذا لو مضت بريطانيا في قرارها بتولية عبد الله الأول على العراق، وعهدت لفيصل أو حتى شقيقه الأكبر علي بعرش الأردن؟ ما تراه كان سيكون مصيرنا؟ ماذا لو لم تقم الثورة على الملكية، أو تم إحباطها؟ تساءلت مع نفسي خلال وقوفي القصير أمام الصورتين وقرّرت بعدها العودة إلى الفندق كي أنال قسطا من الراحة ثم أستعد لوجبة العشاء التي نوّه منهاج السفرة بأنها ستكون في مطعم مميز ذي إطلالة ساحرة.

في الموعد المحدد، مضت بنا الحافلة صعودا إلى مبنى حجري يشرف على تلال المدينة ووديانها، الهواء في الخارج كان نقيا منعشا ما جعلني أشعر باسترخاء لذيذ كنت بأمس الحاجة إليه، جلست على حجر متأملا مشهد الأضواء المتلألئة عن بعد قبل أن يدعوني المرشد السياحي إلى صالة المطعم فالعرض الغنائي يوشك على البدء.

عرض؟ أي عرض؟ لم أكن مستعدا ولا راغبا بحضور عروض فنية، ظننت أن الدعوة ستقتصر على تناولنا العشاء.

تعالى ضجيج منفر عن آلات فرقة مكونة من عدد من العازفين ومغني عراقي شاب كان من أوائل المهاجرين سعيا وراء لقمة العيش في مرابع عمان الليلية عندما لم يعد العمل في ملاهي بغداد يطعم خبزا بفعل التدهور السريع لقيمة الدينار... حاولت أن أشغل نفسي عن الضوضاء بتذوق أصناف السلطات الشامية التي امتلأت بها مائدتنا، لكنني وضعت شوكتي جانبا عندما سمعت لحنا مألوفا كان كفيلا بسد شهيتي عن الطعام تماما، شعرت بذراع إخطبوط عملاق تلتف حول رقبتي وتعصرها حتى لم أعد أستطيع التنفس.

الله يخلّي الريّس... الله يطوّل عمره!

في العراق، كما في العديد من الدول العربية، من المألوف (بل تكاد تكون قاعدة) أن العاملين في مجال الخدمات السياحية من رجال ونساء يرتبطون بشكل أو آخر بالأجهزة الأمنية أو المخابراتية، كانت من ضمن فوجنا وجوها مريبة أدرك معظمنا منذ البداية أنها عيون وآذان مهمتها التلصّص علينا ونقل تحركاتنا وما يصدر عنا من تعليقات إلى دوائر بغداد المتربصة أبدا... شرع كل من معي من رجال ونساء، بل وحتى الأطفال بالتصفيق على الإيقاع الفج فعدم التفاعل مع مديح القائد كان

بحد ذاته تهمة، أمسكت بالشوكة والسكين وتظاهرت بتقطيع الطعام كي لا يرصد أحد يديّ وهما مُتلبّستين بجرم عدم التصفيق.

أليست مفارقة أن يقوم المطرب النازح عن بلده بتمجيد الرجل الذي تسبب بهجرته؟

الفقرة التالية من البرنامج أجابت عن تساؤلاتي فقد اعتلت خشبة المسرح الصغير فتاة شقراء منحوتة القوام من لبنان وبدأت تردد أغنية رائجة للمطرب العراقي الصاعد (في ذلك الوقت) كاظم الساهر هي "عبرت الشط" التي تضمنت مقطع "وخليتك على راسي".

... صدام على راسي

... صاروخ الحسين على راسي

... صاروخ العباس على راسي

... القدس على راسي

مثير للحزن كان منظر الغانية وهي محاطة بمجموعة من السكارى منتفخي الأوداج، محمري العيون، تقذف أياديهم أوراق المال في الهواء لتعود فتسقط على شعرها وتحت أقدامها، بل أن أحدهم قام بدس المال بين ثدييها البضّين أمام أنظار الجميع مقابل أن تعيد له المقطع الذي يذكر الصواريخ التي أطلقها العراق على إسرائيل مرة تلو المرة تلو المرة... المرشد المرافق أوضح لنا بأن الرجال المخمورين على المسرح هم من العاملين السابقين في الكويت وتم ترحيلهم منها بعد انسحاب القوات العراقية.

التكرار المستفز للكلمات المتنافرة أصابني بالغثيان، تركت مقعدي وخرجت لاستنشاق الهواء الطلق وتطهير بصري وسمعي من التلوث الذي أصابهما، بقيت في الخارج وحيدا حتى نهاية السهرة التي أبت أن تقتصر على المهزلة في المطعم فقد شرع أحد المسافرين معنا بالصراخ، ملوحا بقنينة شراب فارغة بدا أنه قد أتى على كل ما فيها.

"أنا من تكريت، بلدة السيد الرئيس القائد المنصور حفظه الله ورعاه، أخوتي يحملون أوسمة القادسية وأنواط الشجاعة، نحن من عشيرة الرئيس، زعيم العراق والأردن والكويت والأمة العربية!"

ساد صمت مطبق... أيقنت بأن أملي في الاستجمام في عمّان كان محض وهم كبير، ندمت على المال الذي أنفقته على الرحلة والجهد الذي بذلته للحصول على رخصة السفر وتحمّلي عناء الطريق الطويل كي أجد نفسي في آخر الأمر في علبة ليل عفنة تصدح فيها ذات الأناشيد التي جئت فارّا منها، خطر لي ليلتها أن أقطع رحلتي وأعود إلى بغداد، إلى الكابوس الذي رمت التحرّر من وطأته ولو قليلا.

صورتي الجديدة، اسمي الجديد

قرار الرحيل لم يكن سهلا، لكنه بدا الحل الأمثل بعد تخرجي من الجامعة وإكمالي خدمة العلم، شعرت كما شعر الآلاف من العراقيين أن لا فرصة لنا في العيش الكريم في بلدنا فساحات بغداد وشوارعها شهدت ممارسة خريجي الجامعات الجدد والمخضرمين لمهن بعيدة كل البعد عن تخصصاتهم الأكاديمية هربا من شبح البطالة والفقر... مهندسون احترفوا قيادة سيارات الأجرة وأدباء افترشوا الأرصفة لبيع بضاعتهم من السجائر الرخيصة ولعب الأطفال والشرائط والأقراص الموسيقية والسينمائية الرديئة، تفشت الرشاوى في شتى القطاعات الإدارية والأمنية والخدمية وشاعت الجرائم التي كان من بين مرتكبيها رجال الشرطة أنفسهم حتى أن سكان العاصمة امتنعوا عن الإبلاغ عن تعرضهم للسرقة ولجأوا عوضا عن ذلك إلى تحصين منازلهم بالأسوار المنيعة والأسلاك الشائكة.

سور منزلنا الواطئ الذي كان يسمح للمارة بمشاهدة زهور الحديقة وأشجارها الوارفة الظلال وبابنا المشرعة للضيوف والزوار حل محلهما جدار صلد جاوز ارتفاعه ثلاثة أمتار وامتد على طوله كسر زجاج مدبب الأطراف، ابتعنا أيضا جهاز مخاطبة عن بعد للتأكد من هوية القادمين قبل السماح لهم بالدخول، لكن ذلك كله لم يحل دون سرقة إطارات سياراتنا أكثر من مرة، سرق اللصوص أيضا قناني الغاز خارج المطبخ فقمنا بربطها بمواسير المياه بالسلاسل والأقفال قبل أن نضطر إلى رصّها في غرفة داخل المنزل رغم خطورة الأمر... عيادة والدي تعرضت هي الأخرى للسرقة ما اضطره إلى أن يحمل معه إلى البيت في نهاية كل يوم عمل حقيبة الكشف الطبي وجهاز تخطيط القلب الجديدين اللذين ابتاعهما من متجر التجهيزات الطبية بعد أن أتى "الحرامية" على كل محتويات عيادته.

أحكمت وضع القفل الحديدي المانع للسرقة على مقود القيادة وأدرت جهاز الإنذار في سيارتي الفولكس فاغن الباسات التي اصطلح معظم الناس على تسميتها ب "البرازيلي" نسبة إلى بلد التصنيع لا التصميم... كان الناس يتداولون بحذر شائعات مفادها أن زوجة رئيسنا تمتلك نسبة في أسهم المصنع المرخّص من قبل الشركة الألمانية والذي كان يورّد قسما كبيرا من إنتاجه من السيارات إلى العراق حيث يـ

توزيعها على ضباط الجيش والشعراء والصحفيين والفنانين الذين كانوا بدورهم يقومون ببيعها إلى عامة الشعب من أمثالي، ذلك كان السبيل الوحيد للحصول على سيارة جديدة خلال سنوات الحرب مع إيران فقد حصرت الدولة استيراد الماكينات والسلع المعمرة الأخرى بيدها.

مضيت بخطوات مترددّة نحو مبنى السفارة القديم في حي الوزيرية، تركيا وماليزيا واليمن وليبيا كانت قد بدأت مؤخرا بإعطاء تأشيرات دخول للعراقيين وفق معايير خاصة تباينت من بلد لآخر ومن حالة لأخرى... عقدت العزم على التوجه إلى الأردن كمحطة أولى في رحلتي ومنه إلى أوروبا، لكن الحصول على تأشيرة من عمان لأي من دول القارة العجوز كان أمرا شبه مستحيل لمن هم في عمري من الذكور، نصحني صديق لي مقيم في اسطنبول بالمحاولة من هناك فالزخم أقل وفرص القبول ربما تكون أكبر، أكد عليّ صديقي أيضا ألّا آتي على سيرة الهجرة من قريب أو بعيد عند طلب الفيزا التركية من بغداد وأن أدّعي بأن الغرض الوحيد من سفري هو زيارة المعالم التاريخية العثمانية التي تعرفت عليها خلال دراستي العمارة في الجامعة.

بعد مقابلة قصيرة مع أحد موظفي السفارة، نودي على اسمي من الشباك المطل على الشارع كي استلم جوازي الذي حمل تأشيرة دخولي إلى الأراضي التركية، شعوري كان مزيجا من الفرح والأسى، فرحت بالتقدم خطوة نحو تحقيق هدفي المنشود وشعرت بالأسى والاضطراب لأني أوشك على الانتقال إلى عالم جديد عليّ وحياة غريبة عني... الأيام التي تلت كانت سلسلة من اللهاث المستمر لانجاز مهام قبل الرحيل، تعمّدت خلالها تجنّب الاختلاء بنفسي لوقت طويل ومراجعة تبعات قراري المصيري خشية لحظة ضعف عاطفي تدفعني نحو التراجع عنه.

تذكرت ذلك وأنا أنظر من نافذة الطائرة التي أقلّتني إلى اسطنبول بعد ليلة مريرة قضيتها في صالة مطار الملكة علياء في عمان وأنا أرقب المغادرين الآخرين الذين أحاط بهم المحبون والأصحاب بينما جلست وحيدا إلا من حقيبة سفر وذكريات ودموع مترقرقة ترفض أن تنسكب... عندما أطفأت أضواء ربط الأحزمة، توجهت إلى الحمام لغسل وجهي بالماء البارد علّ ذلك يجدد نشاطي بعض الشيء، لكنني فزعت للمشهد المنعكس على المرآة أمامي، كان صدغيّ قد اشتعلا بشعيرات بيض.

هل تسلل البياض إلى شعري في ليلة واحدة أم كنت غافلا عن زحفه، ملهيّا بأحداث عالمي المجنون؟ أيمكن أن يشيب الفتى وهو لما يزل في مطلع العشرينات من عمره؟

اتخذت مكاني ضمن صف الواصلين إلى مطار أتاتورك، بمجرد أن وقعت عينا الضابط المسئول على جواز سفري، أومأ لي بالتنحي جانبا ريثما ينتهي من إجراءات استقبال باقي المصطفين... مر وقت طويل قبل أن يستدعيني إليه من جديد، راقبت تعابير وجهه المتجهم وهو يقلّب الصفحات بين يديه ويطيل النظر إلى التأشيرة الممهورة من قبل سفارة بلاده، سألني بعض الأسئلة ثم طلب مني أن أريه ما معي من مال، أخرجت محفظتي من جيبي بعد تردد وناولتها له، مضى يعد الأوراق النقدية فيها حتى تأكد من حملي المبلغ المحدد ثم هوى بختمه على إحدى الصفحات دون أن يأبه بالنظر في وجهي أو الترحيب بي كما فعل مع الآخرين.

لم أكن معتادا- بعد- على الذل في المطارات الأجنبية والمعابر، كانت تجربة مؤلمة بلا شك، خصوصا وأني كنت مستوفيا لكافة الشروط فوثائقي كانت كلها نافذة التاريخ والمفعول... انتظرت وصول حقيبتي وأنا أحاول إقناع نفسي بأن فظاظة الضابط لم تكن موجهة ضدي بشكل شخصي قدر ما هي انعكاس لموقف بلاده المناوئ لسياسة صدام حسين، لمحت وجه صديقي أحمد مبتسما ومُلوّحا لي من وراء الزجاج، تبادلنا التحايا عند خروجي وشيئا من الدعابة فقد كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها حليق الشارب.

حب الفنون كان واحدا من الأمور التي جمعت بيننا ونمّت صداقتنا على مدار سنوات الدراسة التي حضرنا خلالها مع مجموعة من رفاقنا في القسم عددا من عروض الأفلام والحفلات الموسيقية وافتتاحات المعارض التشكيلية، كذلك شكّلت وفاة زميل لنا اثر حادث سير مُروّع في سنتنا الدراسية الأولى صدمة ومحنة تشاركنا وجعها فجعلتنا أخوة أكثر منا زملاء دراسة رغم اختلاف خلفياتنا العرقية وحتى الدينية.

أحمد على سبيل المثال كان تركماني الأصل، نزحت عائلته من مدينة كركوك واستقرت في العاصمة قبل سنوات من ولادته، أبوه كان مهندسا معماريا هو الآخر، قام بتصميم عددا من المباني العامة في بغداد وشغل منصبا وظيفيا مهما في وز

الثقافة والإعلام قبل أن يترك العراق... عندما كنا نزورهم في البيت، كنا نسمع والدي أحمد وأخوته يتحدثون التركية القديمة ونضحك كثيرا ونحن نحاول عبثا نطق مفرداتهم الصعبة ومخارج الألفاظ لديهم.

استقبلني والدا أحمد بالأحضان في شقتهم الاسطنبولية، جلسنا نتحدث عن بغداد وسرعان ما ترقرقت الدموع في الأحداق، استوقفتني نظرة شاردة على وجه والد صديقي رغم ابتسامة باهتة جاهد كي يحافظ عليها مجاملة لي، لمحت في لغة جسده انكسارا لم آلفه فيه من قبل... شعرت بأن الرجل الجالس مستكينا أمامي بعد أن أفنى سنوات عمره في العمل الدءوب كان مثل شجرة معمرة تم اقتلاعها من تربتها وغرسها في أرض جديدة، بقيت مورقة لكنها لم تعد تثمر كما في السابق، صارت محض كائن حي يتنفس ويحزن.

اجتاحني حنين جارف لبغداد وكل ما فيها ومن فيها بعد ساعات قليلة من وصولي لاسطنبول، بدأت فكرة مجنونة بالتبلور في رأسي، لكنني أجّلت البت فيها ريثما تتضح معالم الصورة أمامي... كان علي بذل محاولة أخيرة.

غادرت الفندق قبل بزوغ الفجر متّجها إلى مبنى القنصلية لحجز مكان متقدّم في الصف الطويل الممتد أمامه فالراغبون بالحصول على تأشيرة دخول إلى بريطانيا من مختلف الجنسيات كثر وساعات دوام الموظفين معدودة، كانت الأبواب تغلق بوجوه المصطفين بعد استقبال عدد محدد منهم في كل يوم... انتظرت طويلا حتى سُمِح لي بالدخول، لوح سميك من الزجاج كان يفصل بيني وبين الموظف الذي خلا وجهه من أي تعبير كلاعبي البوكر، دسست طلبي مع جواز السفر وتعهدا كانت قد بعثته بالفاكس صديقة لوالدتي تقيم في بريطانيا أكّدت فيه استعدادها لاستقبالي خلال فترة زيارتي إلى لندن، أوعز لي عبر مكبر الصوت الجانبي بتقديم ما يثبت ملكيتي لعقار أو رصيد في بلدي، أخرجت من حقيبتي ترجمة لشهادات أسهم باسمي في بعض الشركات العراقية.

"كم تبلغ قيمة هذه الأسهم في الوقت الراهن بالجنيه الإسترليني؟"

"لا أعتقد بأن المبلغ كبير بسبب تراجع قيمة الدينار العراقي خلال السنوات الماضية،" أجبت مرتبكا.

" حسنا، تستطيع مراجعتنا بعد شهرين من تاريخ اليوم كي تعرف ردنا على طلبك"

"هل تسمح لي بسؤال؟" لم يجبني فاعتبرت صمته رخصة كي أمضي قدما... *فليذهب هو وتحفظه الإنكليزي إلى الجحيم!*

"هل فرصتي كبيرة في الحصول على التأشيرة؟".

"أخشى أني لست مخولا للإجابة على استفسارك، كل ما أستطيع قوله أننا نشهد رفض عدد لا بأس به من طلبات الشباب من العراقيين لدخول المملكة المتحدة".

"فالبقاء هنا لانتظار النتيجة مضيعة للوقت والمال معا، أليس كذلك؟" قلت كأني أحدث نفسي، لم يكترث بالإجابة أو التعليق.

خرجت من مبنى القنصلية البريطانية وتوجّهت إلى أقرب مكتب طيران لحجز مقعد على أول طائرة مغادرة إلى الأردن، جفل أحمد عندما أبلغته بقراري، غضب مني وتشاجرنا، لكنني كنت عاقد العزم على العودة... مشينا صامتين لفترة ثم جلسنا في أحد المقاهي المطلة على مضيق البسفور، قررنا أن نمضي ما تبقى من النهار في التجوال في أسواق المدينة القديمة بحثا عن تذكارات بسيطة أحملها معي إلى الأصحاب في بغداد، دخلنا أحد المحال الصغيرة ورحنا نستعرض موجوداته معا.

"من أيّ بلد أنتما؟". سألتنا البائعة الشابة بإنكليزية ركيكة.

"نحن من العراق". أجابها صديقي بالتركية.

"آه... صدام!". قالت وهي تبتسم ساخرة.

"لو كنا ممن يحبونه، ما انتهى الحال بنا غرباء هنا،" أدهشني جواب أحمد، أيقنت بأنه كان يعاني من الغربة رغم إجادته اللغة واعتياده على الثقافة السائدة.

تعليق الفتاة التركية المستفز استحضر في ذهني ذكرى زيارة صيفية قديمة لي مع أسرتي إلى أوروبا... كنت طفلا حينها، وقفت مبهورا أمام لوحة معروضة على جدار أحد المتاحف عندما سألني رجل مسن من الزائرين:

"من أي بلد أنت أيها الفتى الصغير؟".

"أنا من العراق،" أجبته فخورا بإنكليزية سليمة كما علّمونا في مدرستي الابتدائية.

"آه... شهرزاد!".

كم من مياه جرت تحت الجسر بين زمني السؤالين!

في نهاري الأخير في اسطنبول، أدركت بأن هويتي كعراقي صار لها مرادف جديد، لم أعد ذلك القادم من أرض السحر والأساطير والليالي العربية، من الآن فصاعدا صورة الرئيس هي أول ما سيتبادر إلى الأذهان بمجرد أن أفصح عن جنسيتي... تعلمت أيضا درسا قاسيا مفاده أن الاغتراب هزيمة وانكسار، تركت تركيا وأنا مقتنع بأني قادر على الفعل الايجابي حتى وإن استحال عليّ التعبير عن رأيي في العلن أو إحداث تغيير ملموس على الأرض، بوسعي أن أرسم وأروّج بالمساحات والخطوط والألوان لقيم الجمال والخير والمحبة.

صدام حسين لن يبقى على رأس السلطة في بلدي إلى الأبد، سيرحل يوما ما، عندها، سينجلي وجه العراق البهي وسيرى العالم كم نحن جديرون بحضارتنا العظيمة.

ذلك ما وطّنت نفسي عليه عندما اقتربت السيارة التي حملتني عائدا من مشارف بغداد، مدينتي الحبيبة.

الغارة الجوية الأولى

لا أزال أذكر جيدا الصوت المزمجر وقفزي من الفراش فزعا بسببه، كاد الصفير أن يصمّ أذنيّ، غطيتهما بكفّي عندما لم تعودا تحتملان المزيد، ألواح زجاج النوافذ راحت تصطك بإطاراتها الحديدية محدثة جلبة مخيفة.

... ما هذا؟ هل حان يوم القيامة؟

كنت سأظن الهدير رعدا لولا ضوء الشمس المشرقة الذي تسلل من بين الستائر المسدلة، تعالى بعدها صوت غريب موحش في دوائر متصاعدة، كأنه عويل ذئب هائل الحجم في ليلة مقمرة، صفارة الإنذار... لم يسبق لي أن شعرت بمثل ذاك الاضطراب والهلع من قبل، كنت في الحادية عشرة من عمري في ذلك الصباح الخريفي من عام ١٩٨٠ عندما اندلعت حربنا مع إيران.

"عد إلى نومك، هذه غارة تجريبية!" قالت والدتي التي وقفت عند الباب مضطربة الأنفاس هي الأخرى... كذبت عليّ كي تخفف من جزعي، علمت ذلك لاحقا.

المرة الأولى التي سمعت فيها اسم إيران كانت في منتصف السبعينات عندما زارها والدي ضمن وفد وزارة الصحة العراقية لحضور مؤتمر طبي هناك، كان الشاه لا يزال في سدة الحكم في بلد يرفل بالثراء الذي تجلّت مظاهره في بنيان عاصمته الشبيهة بحواضر الغرب المتقدّم... عاد والدي من سفرته مبهورا بتطوّر طهران ومحمّلا بالهدايا والألعاب وآخر إصدارات الغناء الأمريكي الذي لم نكن نمل من سماعه أنا وأخوتي.

السنوات التي تلت شهدت ذكر إيران في العديد من نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزيونية، مرة عند توقيع محمد رضا بهلوي اتفاقية الجزائر مع نائب الرئيس حينذاك صدام حسين والتي نصت على ترسيم الحدود بين البلدين بما يضمن اقتسامهما مياه شط العرب المُتنازع عليه لعقود، وأخرى عندما تناقلت وسائل الإعلام صور المظاهرات الشعبية وهي تجتاح شوارع طهران كالطوفان، الغضب أسفر عن انهيار الحكم الإمبراطوري ووصول رجل ملتح صارم الملامح، يلف رأسه بعمامة سوداء

ويرتدي زي رجال الدين إلى إيران زعيما جديدا لها... تلك كانت المرة الأولى التي سمعت فيها اسم الخميني مسبوقا بلقب بدا غريبا عليّ هو "آية الله".

كانت ١٩٧٩ سنة فريدة على أكثر من صعيد، شهدت بدايتها ما عُرف بالثورة الإسلامية في إيران كما اجتاحت قوات الاتحاد السوفييتي أفغانستان قبل نهايتها بقليل، فيما شكّل منتصفها مفصلا مهما في تاريخ العراق الحديث لا تزال تبعاته مستمرة حتى اليوم... كنت مع أسرتي، نتمتع بإجازة الصيف في ربوع مدينة توركو الفنلندية عندما سمعت حوارا دار بين والديّ وسيدة عراقية كانت ضمن فوجنا السياحي في المصعد الذي حملنا إلى المطعم حيث كنا سنتناول وجبة الفطور.

"هل سمعتما الأخبار على البي بي سي؟".

"كلا، ماذا حدث؟" تساءل والدي بنبرة صوته الهادئة.

"لقد صار صدام رئيسا للجمهورية،" أجابت السيدة هامسة.

الصوت الخفيض والصمت الذي تلاه أثارا فضولي، جلت بنظري على وجوه الكبار المحيطين بي في المصعد علّني أقرأ في تعابيرها ما يفك ما بدا لي طلسما... صور "السيد النائب" كانت تحتل الجدران في مدرستي جنبا إلى جنب مع صور الرئيس أحمد حسن البكر، قلما خلت شاشة التلفزيون في بيتنا من مشاهد منقولة له وهو يمثّل العراق في المحافل السياسية أو يستقبل وفود الزائرين أو يتفقّد أحوال المواطنين، كل شيء كان يمهّد لتولي نائب الرئيس مقاليد السلطة، خصوصا وأن البكر كان قد بلغ من الكبر عتيا ولم يكن في الأصل ذي شعبية كبيرة بين الناس أو حضور ملموس على العكس من نائبه وابن قريته الشاب المهتم دائما بأناقته والقادر على محاورة وسائل الإعلام بلباقة وذكاء ملفتين، *فلم الدهشة إذاً؟*

تذكّرت أمرا كان قد حدث قبل سنوات قليلة وأثار في نفسي حيرة وتساؤلات عديدة... كان والداي قد عادا للتو من زيارة أصدقاء لهم واستدعياني إلى غرفتهما، ظننتهما سيحادثانني عن دروسي أو أدائي في الامتحانات، لكن حرصهما على غلق الباب وصوت والدتي الهامس بديا مريبين.

"أنت تحب ماما وبابا، أليس كذلك؟" أومأت برأسي إيجابا رغم علمي بأن ذلك السؤال عادة ما يتبعه طلب بتقديم تنازلات مؤلمة.

"ما سأقوله يجب أن يبقى سرا بيننا، لم تعد طفلا صغيرا، صرت رجلا وأنا متأكدة بأني أستطيع أن أعتمد عليك في حفظ السر،" لمعت عيناي للدعوة المفاجئة لولوج عالم الكبار، أومأت برأسي بحماس أكبر هذه المرة.

"في بيت أصدقائنا سمعنا عن قيام "السيد النائب" بزيارة بعض المدارس على نحو مفاجئ، سمعنا كذلك أنه كثيرا ما يستدعي إليه الشطّار من التلاميذ مثلك كي يسألهم عن أهلهم، ما أريده منك هو أن تستقبل "السيد نائب الرئيس" بالتصفيق الحار بمجرد أن تراه، وأن تقول له: ماما وبابا يحبانك كثيرا".

ما الداعي لقولي لرجل غريب أن والديّ مغرمان به؟ هل هذا هو السر؟ لا بد أن معالم الخيبة قد بدت على ملامحي، لكن والدتي تجاهلتها ومضت قائلة:

"اسمعني جيدا! لا أريدك أن تكثر من الحديث مع "السيد النائب" فقط ابتسم له وأجب على أسئلته بنعم أو لا، ولا تنس أن تصفّق عاليا فقد سمعت أن بعض التلاميذ لم يقوموا باستقباله على نحو جيد خلال زيارته لمدرستهم ولما دعاهم إليه قالوا له بأن أهلهم لا يحبونه فزعل منهم "عمو صدام" وقام بحبس أهلهم، هل تفهم ما أقوله لك؟"

انقبض صدري لمجرد تخيّل احتمالية تسببي بسجن والديّ اثر كلمة أقولها عفويا لعمو صدام سريع الزعل والغضب هذا... عزمت على الالتزام بتعليمات والدتي دون أن أدرك بأني قد تلقيت منها للتو درسي الأول في النفاق، ذلك الدرس العجيب الذي علمت فيما بعد أن كل فرد من أبناء جيلي تقريبا قد تلقاه من والديه في بداية التحاقه بالمدرسة فاستدراج الأطفال الصغار للبوح بما يدور بين أهليهم من أحاديث كان منهجا شائعا بين كوادر حزب البعث العربي الاشتراكي بشكل عام، وأولئك العاملين منهم في قطاع التعليم بشكل خاص.

أيكون ذلك سبب وجوم والديّ لسماع خبر وصول "عمو صدام" لرئاسة الجمهورية؟ هل لا يزالان خائفين من زعله؟

آويت ليلتها إلى الفراش تعبا، ما أن أغمضت عينيّ حتى رحت في نوم عميق رأيت خلاله جموعا هائلة من البشر تتدافع نحو رجل يعتلي تلة بعيدة، كان الناس مضطربين متصارخين وطالبين الغوث، لكن الرجل لم يبد مباليا بهم، فجأة قامت الأيدي المتدافعة بحملي وقذفي باتجاهه رغم ممانعتي، شعرت بالرعب وأنا اقترب منه، حاولت الصراخ، لكن صوتي خذلني، عندما صرت على مبعدة خطوات منه نظر إلي

شزرا، شهقت من وقع المفاجأة... الرجل المخيف على التلة لم يكن سوى "عمو صدام!"

عدنا إلى بغداد بعد أقل من أسبوع لنجد الجميع في حالة حذر وترقّب، استقبلنا الأقارب في المطار هامسين أن الوحدة المرتقبة بين العراق وسوريا والتي هللت لها وسائل الإعلام في البلدين طيلة شهور قد ألغيت اثر اكتشاف مؤامرة حاكها حافظ الأسد والجناح السوري لحزب البعث العربي الاشتراكي للاستيلاء على مقاليد السلطة في بلاد الرافدين، تم تنفيذ حملة اعتقالات وإعدامات واسعة شملت عددا من الرؤوس الكبيرة في الدولة، تابعنا شريطا مصوّرا يظهر اجتماعا لقيادات الحزب في قاعة الخلد اعتلى صدام فيه المنصة ليعلن عن إجهاض المحاولة الدنيئة وسط تصفيق وهتاف الرفاق الناجين من العقاب.

أجزاء بعينها من ذلك الشريط التصقت بذاكرتي الغضّة كان من أبرزها مشهد الرجل الذي كشف عن تفاصيل المخطط والمتآمرين بصوت مرتجف، كذلك وقوف أصحاب الأسماء التي ورد ذكرها وامتقاع وجوههم وهم يُقتادون خارج القاعة إلى لقاء مصير محتوم، محاولة بعضهم تبرئة نفسه بالتذلل المخجل للرئيس الجديد وجرأة نادرة أبدتها قلة قليلة بالهتاف ضده رغم إدراكها العواقب الوخيمة لفعلة مثل تلك، لا أنسى أيضا تعابير التشفّي التي علت وجوه من أُنيط بهم إلقاء القبض على الرفاق والشبق الذي نطقت به نظراتهم فيما راح صدام يرقب فصول العرض المريع وهو ينفث دخان سيجاره الكوبي الفاخر، سمعت فيما بعد بأن الرجل الواشي الواقف على المنصة كان قد هُدّد باغتصاب نساء عائلته ما لم يقم بالدور المنوط به، لكن امتثاله للأوامر لم يحل دون تنفيذ حكم الإعدام به هو الآخر... المؤامرة المزعومة كانت مجرد تمثيلية تم الإعداد لها بعناية للتخلص من مراكز النفوذ في الحزب، بات ذلك واضحا للجميع بعد شهور قليلة من انقلاب صدام على البكر واستلامه مقاليد السلطة في العراق.

اجتاحت بغداد بعد المجزرة سلسلة من التفجيرات أدت لسقوط عدد من القتلى والجرحى من المدنيين قيل بأن حزب الدعوة المعارض لحكم حزب البعث والموالي لنظام الملالي في إيران كان يقف وراءها... تم إلقاء القبض على المدبّرين سريعا وتناقلت وكالات الأنباء صور أوكارهم المليئة بالأسلحة والمتفجرات التي كانوا

سيستخدمونها في تنفيذ المزيد من عملياتهم التخريبية بهدف إثارة الفوضى والبلبلة بين صفوف المواطنين.

تصدّر قسم الرئيس بالثأر من المجرمين ووعده بألّا تذهب دماء الضحايا الأبرياء هدرا عناوين الصحف المحلية بالخط العريض في الصباح التالي، أخبرني صديق لي بأن والده كان يحتفظ بنسخة من ذلك العدد فقد دلّه حدسه بأن الأيام القادمة ستشهد تصعيدا للمواجهة، وهو ما حدث بالفعل... اندلعت اشتباكات عسكرية متفرقة أعقبها إعلان العراق عن تحرير عدد من القرى الحدودية من قبضة الجيش الإيراني ثم قيامه بضربة جوية موسعة تلتها غارات جوية مضادة شنتها إيران على بغداد.

استعرت نيران حرب شاملة على امتداد مئات من الكيلومترات بين البلدين المسلمين الجارين اصطلحت وسائل إعلامنا على تسميتها بـــ "قادسية صدام" تذكيرا بالمعركة التي قادها الصحابي سعد بن أبي وقاص في القرن السابع الميلادي وأسفرت عن فتح المسلمين بلاد فارس، معارك القادسية الأولى كانت عنيفة طاحنة بمعايير عصرها، لكنها كانت واضحة ومحددة الأهداف، استغرقت أياما معدودة فقط تحقق النصر على أثرها لجيوش المسلمين... الحال كان مختلفا تماما في معارك "القادسية" الثانية التي استمرت سنوات ثمان خرج منها المتحاربون خائري القوى، مستنزفي الموارد والقدرات، لا منتصر بينهم ولا فاتح.

النضوج على وقع الحرب

الذود عن البوابة الشرقية للأمة العربية، حرب الانفتاح والاعتدال والتحضّر ضد التعصّب والانغلاق والرجعية، إيقاف المد الطائفي وإجهاض سعي الملالي لتصدير ثورتهم "الإسلامية" إلى العالم العربي، مواجهة أحقاد مجوسية دفينة تعود جذورها إلى قرون مضت... كثيرة هي الشعارات التي رُفِعت خلال حربنا مع إيران ، كما قيل الكثير عن أهدافها وأسباب نشوبها، لست بصدد تحليل الحدث سياسيا أو تحميل مسئوليته لأحد فلست مؤهلا لذلك أولا ولا أمتلك من المعطيات والمعلومات إلا النزر اليسير ثانيا، ما أعرفه جيدا أن المعارك الضارية على الحدود بين البلدين شكّلت خلفية ولوجي مرحلة المراهقة وخروجي منها.

طلبت مني المضيفة أن أغلق النافذة خلال إقلاع طائرة الخطوط الجوية العراقية المتجهة بنا من بغداد إلى لندن في صيف عام ١٩٨١، شعرت بخيبة أمل كبيرة فقد كنت حريصا على الظفر بالمقعد المجاور للنافذة لمراقبة مشهدي الإقلاع والهبوط من خلالها... عام قد مرّ على اندلاع الحرب، انقطعنا عن الدوام في الأيام الأولى ثم عدنا إلى مقاعد الدراسة عندما تأكّد عدم وجود سقف زمني للمعارك ولا مؤشر على قرب انتهائها، كنا نهرع إلى الطابق الأرضي لمدرستنا الابتدائية حالما تعلن صفارة الإنذار عن شن غارة معادية، لكن الأمر تغير بعد مرور شهور صارت خلالها أصوات الصفارات وزمجرة الطائرات أمورا مألوفة لنا كنا بالكاد نعيرها اهتماما يُذكر.

كذلك الأمر في بيتنا، كنا نسارع في البدء إلى إغلاق الستائر بمجرد بدء القصف كي لا يتسرب منها بصيص ضوء دال ثم نندسّ مرتجفين تحت جناحي والدينا طلبا للأمان والحماية... كثيرا ما خطر لي أن قائد الطائرة المعادية عندما يرى اتساع حديقة منزلنا من فوق سيظن بأن دارنا مبنى عام فيقوم بتوجيه أحد صواريخه إليه، لطالما رأيت في أحلامي رأس الصاروخ المدبب وهو يتجه نحوي، كنت أستيقظ من النوم فزعا مرتعبا ومتهدج الأنفاس، عندما كبرت، صرت أضحك من سذاجة مخاوفي الطفولية تلك، لكن الكابوس بقي يراودني حتى زمن قريب.

بالغت وسائل الإعلام (كما هي عادتها) في تقدير انجازات جيشنا وخسائر العدو من جنود وطائرات ودبابات ومدرعات وسواها من ماكينات وآليات الحرب، الأمر الذي كان يثير حماستنا ويدغدغ مخيلتنا المتأثرة بأفلام الحركة فنفترش الأرض فوق خارطة كبيرة للشرق الأوسط ونقوم بتلوين الأراضي التي غنمتها قواتنا، آملين باستيلاء العراق قريبا على كل إيران ، تماما كما اعتدنا أن نفعل ونحن نتنافس بضراوة على احتلال العالم على رقعة لعبتنا المفضلة حينها "المخاطرة"... الحرب بدت لنا لعبة مثيرة كنا مستمتعين بمراقبتها عن بعد.

مظاهر الحياة في بغداد عادت إلى وتيرتها السابقة أو كادت بعد أن خفت وتيرة الغارات الجوية على العاصمة واقتصرت المواجهات على جبهات القتال التي كانت تشهد احتدامات في مناطق بعينها ثم تعود إلى هدوئها النسبي ريثما تندلع معارك أخرى في أماكن جديدة، وهكذا دواليك... لم يعد الناس يلزمون منازلهم في المساء كما كانوا يفعلون في البداية واستؤنفت النشاطات الاجتماعية والزيارات بين الأصدقاء بل وعاد الكثيرون إلى ارتياد النوادي والمسارح وصالات السينما كأن شيئا لم يكن، حتى التلفزيون عاد بقنواته إلى بث برامجه المعتادة من مسلسلات ومواد منوعة وإن جدت عليها قراءة بيانات المعارك وأناشيد القتال وتغطية لجوانب من المواجهات أو ما عُرفت ب "صور من المعركة،" والتي كانت تتسع مساحتها أو تصغر حسب ضراوة المعارك على الجبهة، صار معتادا أيضا أن نرى جثث القتلى من الجنود الإيرانيين وقد تفحمّت أو انتفخت بينما تدلّت من أعناقها مفاتيح معدنية كان الخميني يعد مقاتليه بأنها مفاتيح الجنة التي سيردونها في حال موتهم في سوح المواجهة مع العراقيين.

لا أزال أتذكّر خروجنا الإجباري من المدرسة برفقة معلمينا لمشاهدة قافلة من العربات العسكرية المحمّلة بالجنود الأسرى، أتذكر تعابير الانكسار والخوف البادية على الوجوه المغبرّة لأولئك الغرباء وتصفيق الناس وهتافهم بحياة القائد أمامهم بل وقيام البعض بالبصق عليهم... كنت كمن يتفرج على عرض لكائنات فضائية فحتى ذلك الوقت كانت الحرب بالنسبة لي حدثا تابعته على الشاشات وعبر أثير الإذاعات، أو عن طريق مراقبة الطائرات المغيرة وسماع أزيزها في أكثر حالاته تماسا مع واقعي، كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها الرجل الذي كان ربما سيحاول قتلي لو كنت كبيرا بما فيه الكفاية كي أقف في مواجهته، كانت المرة الأولى التي شاهدت فيها جنديا عدوا من لحم ودم، لا من بلاستك ملوّن كالجنود في لعبتي المفضلة.

ترى، كم شخص قتل قبل أن يسقط في الأسر؟ هل هو متزوج؟ هل لديه أطفال يبكون فقده؟ أي أحلام للمستقبل كانت تراوده قبل أن يتطوّع للقتال؟ هل ذهب برجليه إلى المعركة أم تم اقتياده إليها قسرا؟ لماذا يقتل الإنسانُ إنسانا آخر من الأصل؟

كنا في مأمن أنا وأخي من أن يتم استدعاءنا للقتال بسبب حداثة سننا، لكننا بدأنا نسمع عن وصول جثث لأبناء معارف أهلنا وأنباء عن أسر البعض الآخر أو انقطاع أخبارهم كلية وعدّهم ضمن قوائم المفقودين، بدأنا نشاهد في الشوارع جرحى الحرب ومعاقيها ممن فقدوا السمع أو البصر أو بترت أطرافهم وامتلأت ميادينا وأسوار البيوت بقطع القماش السوداء التي تعلن عن سقوط الشهيد الفلاني في المعركة الفلانية بعد أن صدرت توجيهات صارمة بمنع الجرائد عن نشر النعايا كي لا تؤثّر كثرتها على معنويات الشعب وتثبط همة الجنود على الجبهة... عندما أفكّر في ذلك الآن أستغرب كيف أن مجريات الحياة كانت تسير بشكل أقرب ما يكون إلى الطبيعي في بغداد حتى أن الطائرة التي حملتنا إلى لندن كانت مليئة عن آخرها بالمصطافين.

من التفاصيل التي انطبعت في ذاكرتي عن تلك السفرة ما حدث عندما دعانا صديق لوالدي لتناول طعام الغداء مع أسرته في منزلهم الواقع في إحدى ضواحي لندن... انغماس الكبار التام بما عرضته شاشة التلفزيون أثار ريبتي وفضولي، توقفت عن اللعب مع أقراني من الأطفال وانهمكت عوضا عن ذلك في مراقبة تعابير الوجوه المحيطة بي، أطلت علينا المذيعة العراقية شميم رسّام وهي تتحدّث بإنكليزيتها السليمة عن استقرار الوضع الداخلي في العراق رغم الحرب المستعرة على الجبهات، كانت تقف عند واجهة محل بقالة امتلأت بأصناف الفاكهة والخضار المتنوعة، سخر الحضور من دعائية المشهد الفجّة فرغم حقيقة أننا لم نكن نشكو من الجوع والحرمان حينها، كانت رفاهية الاختيار شبه معدومة في أسواقنا المحلية التي طالما عانت من شُح صنف أو أكثر من أصناف المواد التموينية، اعتاد الكثيرون أن يتحايلوا على الأمر باستغلال علاقاتهم بأصحاب المحال وموظفي وزارة التجارة للحصول على المواد المفقودة فيما كان لضباط الجيش والأجهزة الأمنية أسواقهم الخاصة التي زوّدتهم وعوائلهم والمقربين منهم بشتى أنواع المنتجات، محلية الصنع منها والمستوردة.

الفقرة التالية من البرنامج كانت أكثر إثارة ورعبا في ذات الوقت، ظهر فيها خيال لرجل جالس في الظلمة راح يروي تفاصيل تعرضه للتعذيب الوحشي في سجون

النظام الذي لم يكتف باعتقاله بل قام بقتل واغتصاب أفراد عائلته أيضا، لم تكن إنكليزيتي قد نضجت بما يكفي كي أفهم كل ما قيل، لكن شغفي بالغناء الغربي وفّر لي رصيدا لا بأس به من المفردات مكنّني من إدراك الكثير منه، لاحظت الارتباك الذي علا وجوه الكبار واختلاسهم النظر إلينا، تظاهرت بالانهماك في اللعب كي لا أثير شكوكهم في الوقت الذي أصغيت فيه السمع لما دار بينهم من حوار مشفّر كنت على دراية مسبقة بدلالات معظم مفرداته ككلمة "صاحبنا" و"ذاك الرجّال" التي كانت تعني رئيس الجمهورية، كنت قادرا كذلك على تمييز نبرة الصوت عندما تعلو عن المعتاد فجأة كي توصل لي رسالة مغلوطة ومموّهة عن أمر ما، نظرات العيون ولغة الأجساد من حولي عكست اهتماما باللقب الغريب الذي أطلقه مقدم البرنامج الإنكليزي على "عمّو صدام".

جزّار بغداد

رحلة بريطانيا تلك كانت الأخيرة التي قمنا بها إلى خارج العراق ففي العام التالي تم منع السفر على المواطنين لتخفيف العبء على اقتصادنا المثقل بفواتير المعارك الباهظة مع استثناءات معدودة لأغراض الدراسة أو العلاج أو التجارة، الحظر بطبيعة الحال لم يشمل المقربين من السلطة وعوائلهم الذين بقي السفر وتحويل الأموال متاحا لهم طيلة سنوات الحرب وما تلاها... بمجرد عودتنا من لندن، كان عليّ الاستعداد لبدء مرحلة جديدة في حياتي فقد أنهيت دراستي الابتدائية بتفوّق أهّلني للالتحاق بثانوية كلية بغداد للبنين التي كان من بين تلاميذها عدي وقصي صدام حسين.

لم تكن في العاصمة (أو في عموم العراق) مدرسة تشبه كلية بغداد التي أنشأها في بدايات القرن العشرين آباء يسوعيون جاءوا من الولايات المتحدة بغرض التبشير بعقيدتهم في منطقة الشرق الأوسط، المدرسة التي قام حزب البعث بتأميمها وطرد كادرها الإداري والتدريسي الأجنبي بعد فترة قصيرة من وصوله إلى السلطة كانت لا تزال تختلف عن المؤسسات التعليمية الأخرى بعمارة أبنيتها المشيدة بالآجر والمساحات الكبيرة لحدائقها وأفنيتها وملاعبها الرياضية المتنوعة ومكتبتها العامرة ومختبراتها ممتازة التجهيز والتنظيم والتي كان من أشهرها مختبر الصوتيات... على الرغم من توحيد مناهجها مع باقي المدارس في العراق وإلغاء تعليم المواد باللغات

الأجنبية الذي كان معتمدا في المدرسة سابقا، كان لا يزال يتعين على طلبة كلية بغداد إكمال منهج خاص باللغة الإنكليزية يشجع على التفاعل والمحاورة وإتقان اللفظ السليم (وفق اللهجة الأمريكية، بطبيعة الحال) أسفر عنه إجادة معظم خريجيها للانكليزية أكثر من أقرانهم في مدارس القطر الأخرى.

حديث هامس آخر مع والديّ سبق يوم دوامي الأول في كلية بغداد، أوصياني خلاله بعدم الاقتراب من أبناء المسئولين عموما وابنيّ الرئيس خصوصا وتجنب أي احتكاك معهم، كان عدي وقصي، أو "الليثان" كما ورد ذكرهما في أغنية المطرب الشعبي حاتم العراقي، أكبر مني سنا ولذلك فقد اقتصرت علاقتي بهما على نظرات اختلستها من بعيد لهما وهما يتمشيان مع رفاقهما في حدائق المدرسة الغنّاء... الابن الأكبر عدي كان ذا نزعة استعراضية جلية، عُرِف عنه تحدّيه لأساتذته وزملائه بل وإهانته لهم في كثير من الأحيان، كان يحلو له التبختر بين الأبنية محاطا بأفراد حمايته ومجموعة من المتزلفين ترتب عليها احتمال وتلبية رغبات الفتى المدلل الذي عانى من خلل في النطق جعل كثيرا من كلامه مدغما صعب الفهم، لكن ذلك لم يحل دون أن يتخرج عدي من المدرسة بمعدل قل عن المائة بعشر واحد، وحصل بذلك على لقب الأول على مدارس العراق كافة.

قصي، على الجانب الآخر، عُرِف بالدهاء والهدوء وتجنّبه لفت الأنظار إليه، قلما كنا نشاهده مع أكثر من مرافقين اثنين، لم يكن قصي يعاني من عيوب ظاهرة كشقيقه الأكبر، لكنه اشترك معه بالعزوف عن الدراسة والتحصيل العلمي وإن اجتاز امتحان البكالوريا بتفوّق ساحق هو الآخر، مراقبتي لشخصيتي الأخوين الرئاسيين خلال تواجدي معهما في كلية بغداد كانت مفتاحي لفهم الكثير من تصرفاتهما بعد أن تخرجا من المدرسة والجامعة... جدير بالذكر أن عديّا عندما شرع بعد سنوات عدة ببسط نفوذه على شتى مرافق الدولة من صحافة وصحة وإعلام وسواها (حتى كاد يتحوّل إلى سلطة موازية بل منافسة لوالده وشقيقه) لم ينس أن يضم مدرسته الثانوية تحت جناحيه فصارت كلية بغداد مؤسسة تابعة له، خاضعة لإشرافه المباشر ومنفصلة تماما عن مناهج وكوادر وزارة التربية ومعاييرها السائدة.

كانت لابني الرئيس، عندما يحلو لهما الحضور (وهو أمر لم يكن يحدث كثيرا) قاعات درس خاصة بهما وبأقرانهما من أبناء المسئولين مطلية الجدران حديثا

ومزوّدة بأجهزة التكييف والألواح غير المستهلكة والمقاعد المريحة والأرضيات المغطاة بالسجاد على العكس من باقي صفوف المدرسة ذات الطلاء المتقشّر والأرضيات العارية بلا أجهزة تبريد أو تدفئة... الصفوف الرئاسية الفاخرة صارت إرثا تناوب عليه أبناء أقارب الرئيس والمسئولين الآخرين بعد أن ترك عدي وقصي المدرسة للالتحاق بالجامعة حيث أُعِدت لهما هناك أيضا قاعات خاصة بهما.

بعد فترة وجيزة من التحاقي بالمدرسة، تم إلغاء السلام الجمهوري الذي كان عبارة عن معزوفة موسيقية بلا كلمات ليحل محله نشيد وطني جديد قام بتلحينه الموسيقار اللبناني وليد غلمية عن قصيدة كتبها الشاعر العراقي المعروف وعضو حزب البعث القديم شفيق الكمالي، كان علينا حفظ أبيات القصيدة الجديدة الطويلة وتأديتها مُغنّاة أمام مدرسينا كشرط لاجتياز امتحان اللغة العربية... المفارقة هنا أن الكمالي وبعد فترة وجيزة من اعتماد قصيدته نشيدا رسميا تم اعتقاله وتعذيبه في أقبية المخابرات هو وابنه ثم قُتِل ضمن وجبة ثانية من التصفيات (بعد مجزرة قاعة الخلد) استهدفت مزيدا من الرفاق القدماء الذين كانوا على دراية بمسيرة الرئيس الشاب وصعوده المريب إلى سدة القيادة في الحزب والدولة.

رافق غناءنا النشيد الجديد ضمن مراسيم رفع العلم صباح الخميس من كل أسبوع إطلاق أعيرة نارية عدة حسب تعليمات صدرت عن القيادة وعُمّمت على إدارات المدارس في عموم العراق، تولى القيام بالمهمة أحد مدرسي التربية الرياضية الذي كان يرتدي زيا عسكريا للمناسبة أو زملاؤه من التدريسيين من ذوي الرتب الحزبية المتقدمة، الصوت المُدوّي كان كفيلا بإثارة الفزع في مدارس البنات بشكل خاص وتسبب بحالات إغماء متكررة بين صفوف الطالبات كما أدّى عيب في ماسورة البندقية الكلاشنكوف ذات مرة بجرح أحد الطلبة معنا فتم نقله إلى المستشفى وهو ينزف الدم بغزارة... الهدف الواضح من الاستعراض الأسبوعي كان عسكرة الشباب والمجتمع بأكمله بعد أن بات جليا بأن أمد الحرب سيطول لشهور قادمة وربما سنوات.

من الأمور الأخرى التي جدّت علينا في كلية بغداد كان تعطيل الدوام لأيام عدة للخروج في مسيرات تأييد أو شجب حسبما تطلّبت الأحداث السياسية ومجريات المعارك... في البداية، كنا نهرب من المشاركة بتسلق سور المدرسة الواطئ أو الاختباء في حديقة الكنيسة المجاورة لها حتى تهدأ الأمور قليلا ثم نتسلّل خلسة إلى

الشوارع القريبة ومنها إلى بيوتنا، المهمة لم تعد سهلة عندما قررت الإدارة تثبيت أسلاك شائكة فوق الأسوار وإقامة جدار عازل بين الكنيسة ومباني المدرسة وساحاتها، فكنا عندما تُغلق الأبواب وتحضر الباصات لنقلنا إلى ميادين التجمّع، نتوارى وراء جذوع الأشجار السميكة التي يعود بعضها لعقود عديدة خلت، نتوجه بعدها إلى المجمع السكني الخاص بمستخدَمي المدرسة وعوائلهم حيث بقيت هنالك ثغرة كان يمكن النفاذ منها، رحلة الفرار كانت تتطلب مرورنا الحذر بساحات كرة القدم والتنس والسلة وكرة اليد حيث كنا نشاهد أبناء المسئولين وهم يمارسون ألعابهم المفضلة دون اكتراث بالمسيرات ومن شارك فيها.

تحتم علينا أيضا خلال تلك الفترة إيجاد سبل لمواجهة الضغوط المتزايدة علينا للانضمام إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي، الأمر الذي كنا نحتال عليه في البداية بكتابة عبارة "مستقل ومؤيد لمسيرة الحزب والثورة" في خانة الانتماء في الاستمارات التي كانت توزع علينا بشكل متكرر والتي كان علينا أن نملأها ونضمّنها معلومات تفصيلية عن عوائلنا وأقاربنا وإعادتها إلى الرفاق المسئولين عنا، تلك المناورات لم تعد تجدي نفعا في ظل تضييق الخناق علينا فكان التمارض الحل الوحيد المتبقي أمامنا... ادعيت عدم قدرتي على الانضباط والالتزام بحضور الاجتماعات والقيام بالواجبات الأخرى المترتبة على الأعضاء بسبب إصابتي بحساسية مزمنة في جهازي التنفسي، يبدو أن تأديتي للدور كانت مقنعة بما يكفي فقد نجحت في إكمال دراستي الثانوية والتحقت بالجامعة "مستقلا".

شهدت سنوات دراستي في كلية بغداد تغيّر بعضا من معالمها المهمة، فقد تفاجئنا لدى عودتنا للدوام بعد انتهاء العطلة الصيفية ذات عام بتحوّل إحدى حدائق المدرسة إلى ساحة بناء هائلة، ظنّنا في البداية بأن الأعمال الإنشائية كانت بغرض تشييد مُجمّع جديد من الصفوف، لكن البناء الصاعد بدا غريبا، تبين لنا فيما بعد بأنه كان واحدا ضمن سلسلة من الملاجئ النووية التي شرعت ببنائها إحدى الشركات الإسكندنافية وتوزّعت على مختلف أحياء العاصمة... كان يحلو لنا التسلل إلى الموقع المحاط بالأسوار للفرجة، خصوصا بعد ما شاع بين الناس عن منعة المبنى وقدرته على احتمال أقوى الضربات والتقنيات المتقدمة المستخدمة في تشييده.

الملجأ في مدرستنا الثانوية كان نسخة عن ذلك الذي شهد بعد قرابة عقد من الزمن محرقة مريعة ذهب ضحيتها مئات المدنيين في حي العامرية اثر استهداف الطائرات الأمريكية له بصواريخها الموجهة بالليزر ضمن ما عُرِف بـــ "عاصفة الصحراء"... عندما ذهبنا لزيارة الهيكل المحترق بعد انتهاء الحرب وشاهدت الثقب الذي أحدثته القذائف في سقفه وملامح الرعب المرتسمة على الوجوه المحترقة للضحايا التي انطبعت بفعل الحرارة العالية على سواد الجدران الخرسانية، تذكّرت المنشأ الشقيق له الذي عاصرت إنشاءه وسط مباني كلية بغداد، مدرستي الثانوية التي جمعتني يوما بابنيّ الرئيس.

مهرجانات وشهداء وأطياف

جلست أمام شاشة التلفزيون لمتابعة مراسيم افتتاح المهرجان الحدث الذي هلّلت وروّجت له وسائل إعلامنا طيلة الأسابيع الماضية، أبرز ما في برنامج الليلة الأولى كان العرض الخاص الذي قدمته دار الأزياء العراقية وجاء باذخا مبهرا وجامعا لفنون الشعر والموسيقى والغناء والرقص في رحلة متخيّلة للإلهة عشتار (أو ايناننا) عبر الزمان تُوّجت بتجسّدها في شخص المرأة العراقية المعاصرة التي يحارب حبيبها (أو تجسُّد الإله تموز) شياطين الظلام والتخلف على جبهات القتال مع إيران... ترددت الزغاريد وصدحت أناشيد المعركة في المشهد الختامي وانطلقت الألعاب النارية معلنة بدء فعاليات الدورة الأولى من مهرجان بابل الدولي في عام ١٩٨٥ تحت شعار "من نبوخذ نصر إلى صدام حسين، بابل تنهض من جديد".

ملصقات المهرجان التي ملأت الميادين والشوارع كان يعلوها رسم للرئيس في هيئتين، أولاهما للملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني الذي خلّده التاريخ والكتب المقدسة بغزوه لفلسطين مرتين، قام خلالهما بهدم أورشليم وذبح وسبي ساكنيها، أما الهيئة الثانية فكانت لصدام حسين بلباسه العسكري المعاصر في دلالة مباشرة متسقة مع شعار المهرجان... كان منطقيا أن يرتدي زعيم دولتنا التي تخوض حربا ضروسا بدلة عسكرية يظهر بها في مقابلاته الرسمية والإعلامية، لكن بدلته تلك ارتبطت في ذاكرتي بحدث بعينه، فبعد اندلاع المعارك بفترة وجيزة، وصلنا شريط مصور جديد بدا كتتمة للمسلسل الذي افتتحه اجتماع قاعة الخلد سيئ الذكر.

كما في الشريط الأول، اعتلى الرئيس (الذي ارتدى طقما كاكي اللون هذه المرة) المنصة واستهل حديثه بمقدمة عن المعركة المقدسة التي يخوضها العراق دفاعا عن البوابة الشرقية للأمة العربية واسترسل (كما هي عادته في معظم أحاديثه) باستعراض التاريخ وفصوله حتى حانت لحظة الحقيقة عندما دعا الحضور من القيادات الحزبية للتطوع كمقاتلين في صفوف القوات المسلحة، انتقلت عدسة الكاميرا لتصور رد فعل الجالسين في القاعة... أيادي قليلة فقط ارتفعت بعد تردد لتلبية نداء القائد، عاد المصور بعدها لينقل لنا تعابير الغضب المتفجر على وجه الرئيس الذي أصدر أوامره على الفور بمعاقبة المتخاذلين وتنحيتهم عن مناصبهم وتجريدهم من كافة امتيازاتها

المادية والمعنوية، حاول البعض أن يورد حججا لاستعطافه وترضيته، لكنه نهرهم ووبخّهم.

الأمر الذي جعل المشهد ينطبع في رأسي كان تلفّظ الرئيس بعبارات سباب صريحة بحق الرفاق المغضوب عليهم، إذ أمرهم بلزم مساكنهم وعدم التفوّه بكلمة واحدة عما حدث وإلا فسيكون مصير الواشي منهم القتل ذبحا وأن يقوم الرئيس شخصيا بملء فمه بالبراز... ذهلت عندما سمعت المفردة تتردد على لسان القائد الذي راح ينفث دخان سيجاره الكوبي بعصبية فيما مضت الفئة الناجية تصفق وتهلل وتهتف باسمه وحياته حتى انتهى الشريط الذي علمت فيما بعد بأن تسريبه قد تم عمدا، تماما كما في المرة الأولى.

لم يعد أحد يجرؤ على التلكؤ في تلبية نداء التطوع للقتال بعد مشاهدة ما حدث في ذلك اللقاء العاصف مع الرئيس، في كل الاجتماعات الحزبية التي تلت كانت أيادي الحاضرين ترتفع عاليا بمجرد طرح الفكرة للنقاش... أثبتت سياسة الترهيب فاعليتها بامتياز، لكنها لم تكن المرة الأولى (ولا الأخيرة، بطبيعة الحال) التي يلجأ صدام فيها إلى التكتيك الذي ربما كان قد استوحاه من اطلاعه المبكر على كتاب "الأمير" لنيكولو مكيافيللي وتأثره بما ورد فيه، وهو ما صرّح به في إحدى لقاءاته الصحفية لاحقا عندما عدّ المخطوطة الشنيعة واحدة من قراءاته الأثيرة.

بعد شهور قليلة من مشاهدتي وقائع الاجتماع المريع، اتصلت زوجة صديق والدي بنا ذات مساء طلبا للعون، الأستاذ الجامعي الذي تسلّم حديثا وكالة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي عاد إلى منزله مرتجفا شاحب الوجه وراح يتقيأ بلا توقف، حمل والدي حقيبة الفحص الطبي الخاصة به وتوجه على الفور لمعاينة صديقه ثم عاد واجما بعد قرابة ساعة، كان الرجل منهارا فقد تم استدعاؤه بحكم منصبه الجديد (وفق قرار صادر من الرئيس شمل جميع موظفي الدولة بدرجة مدير عام فما فوق) كي يشهد تنفيذ حكم الإعدام بحق مجموعة من "الخونة"... سمعت والدي وهو يهمس لوالدتي بأن صديقه جاهد كي يبدو متماسكا في ساحة القتل فحتى تعابير الاستياء كانت ستُفسّر كدليل على تعاطفه مع المعدومين، الأمر الذي كان سيجر عليه وعلى أفراد عائلته الويلات.

أحداث ومشاهدات مُختلسة كتلك تراكمت في وعيي الغض وشكلت تدريجيا صورة مخيفة عن الرئيس كانت تقابلها على الجانب الآخر (بل تقمعها) هيئة مختلفة تماما من صنع الإعلام المحلي والعربي والعالمي عن زعيم شاب يبني بلده بهمة وعزم ويسعى بخطى حثيثة للحاق بركب الدول المتقدمة رغم التحديات العظيمة التي ما فتأت تواجهه، أولها وأشرسها كان صراعه العسكري والأيديولوجي مع جاره الشرقي هائل الموارد والقدرات والذي عُد جيشه من أكبر جيوش العالم وأفضلها تجهيزا في عهد الشاه المخلوع... كان حتما أن يتأثر منظوري للنزاع باصطفاف العالم شبه التام معنا، بدت الحرب لي وقتها وللكثير من العراقيين أيضا مشروعة ومُبرّرة، تماما كصراع العميل جيمس بوند مع الأشرار في سلسلة الأفلام الشهيرة التي كنا نحتفظ بعدد منها على أشرطة الفيديو في منزلنا ولا نمل من مشاهدتها والتفاعل بحماس طفولي مع لقطات المطاردات والتشويق فيها.

كثير من أغلفة المجلات العربية التي كانت تصلنا بانتظام تصدّرتها صور لصدام حسين (وأحيانا، رسوم كاريكاتيرية ساخرة للخميني) فيما حفلت صفحاتها الداخلية بالتقارير والتحليلات العسكرية والسياسية المؤيدة لنا مع تغطيات موسعة لنشاطات الفنانين العراقيين وهم يتنقّلون من عاصمة عربية وأجنبية إلى أخرى، يقيمون المعارض والأمسيات والحفلات وتثير أعمالهم (الدعائية، لزاما) تعاطف الجمهور مع قضية وطنهم وقائدهم في صراعه مع رجعية الملالي في قم وطهران... باتت عاصمتنا محجا لوفود المبدعين من شتى أنحاء العالم الذين توافدوا عليها للمشاركة في الفعاليات والمهرجانات المختلفة وفي مقدمتها مهرجان بابل الدولي الذي امتدت عروضه قرابة شهر وشملت مختلف أنواع الفنون السمعية والبصرية.

لم أحضر أيا من فعاليات الدورة الأولى للمهرجان بسبب بعدها عن العاصمة وصغر سني نسبيا وقتها، لكنني حرصت في السنة التالية على زيارة المدينة مع بعض الأصدقاء ورصد التغيّرات التي طرأت عليها عن قرب... أول ما استوقفني كان رؤية الآجر المستخدم في تشييد المسارح والقصور والذي حمل الحروف الأولى لاسم الرئيس، كل شيء حولي بدا مصطنعا ركيك المظهر، قرأت لاحقا أن المدينة الأثرية قد تم طمس ملامحها بالكامل وبناء مدينة أخرى جديدة على أنقاضها، الأمر الذي حدا بمنظمة اليونسكو إلى استبعاد بابل من لائحة التراث العالمي الخاصة بها، وسائل

الإعلام العراقية والعربية المُكرّسة للتطبيل للحدث ودلالاته لم تأت على ذكر الأمر من قريب أو بعيد بطبيعة الحال.

الغاية من إقامة مهرجان بابل كانت دعائية بامتياز، وضع المنظمون له نصب أعينهم منافسة مهرجانات فنية عريقة في العالم العربي كبعلبك في لبنان وقرطاج في تونس وبُصرى في سوريا ومهرجان جرش في الأردن المجاور، لم يكن مهما بالنسبة للرئيس الذي أصدر أوامره بتخصيص ميزانية مفتوحة لإقامة حدث مبهر يسرق الأضواء أن المهرجانات الأخرى احترمت خصوصية المواقع الأثرية التي حملت أسماءها ولم تتجاوز عليها، بل حرصت على الحفاظ على الهياكل القديمة وترميمها تحت إشراف أثريين مختصين... لم يكن ذلك يعني شيئا لصدام حسين الذي طالما فاخر باهتمامه بالثقافة والفن ورعايته لهما، لكنه كان يريد ثقافة وفنا من نوع خاص ومُحدّد يُمجّد عهده ويُهلّل له.

على أثر نجاح فيلم "الرسالة" للمخرج الأمريكي (سوري الأصل) مصطفى العقاد عن نشأة الإسلام وانتشاره، أوعز الرئيس بتصوير فيلم تاريخي ضخم عن موقعة القادسية التي شهدت هزيمة الفرس وفتح جيوش المسلمين بلاد فارس... خلال شهور قليلة تم بناء ديكورات هائلة قرب بحيرة الحبانية التي تحول المنتجع المقام على شاطئها إلى مقر لسكنى مئات الفنيين والممثلين المشاركين في الفيلم الذي صار حديث دوريات الفن السابع حول العالم بميزانيته غير المسبوقة عربيا والإمكانيات المادية والبشرية المُسخّرة له.

تم تكليف مخرج مصري شهير بانجاز العمل الذي قام ببطولته نخبة من ألمع نجوم التمثيل في العالم العربي مع الاستعانة بكفاءات تقنية أجنبية لإدارة وتصوير مشاهد المعارك الضخمة كما استوردت فيلة وأسود وطواويس لإضفاء إبهار وفخامة على الصورة حتى قورن الفيلم بإنتاجات ستوديوهات هوليوود الملحمية، ملايين عديدة من الدولارات تكلّفها المشروع، لكن نتيجته جاءت مخيبة للآمال فنسخته النهائية لم تكن سوى تقليد فج لفيلم العقاد بدءا من ملصقه الإعلاني ومرورا بالتفاصيل الأخرى من لقطات وموسيقى تصويرية وأزياء... بعد مرور شهور قليلة على الضجة التي رافقت تصويره وإطلاقه، سقط "القادسية" في عتمة النسيان ولم يعد أحد يتحدث عنه أو يشير إليه.

كان لمصطفى العقاد فيلم آخر عن حياة الزعيم الليبي عمر المختار قام ببطولته عدد من نجوم السينما العالمية وقتها كأنطوني كوين الذي كان بطل فيلمه الأول أيضا... حقق "أسد الصحراء" نجاحا عالميا واستقبله النقاد بالترحاب والإعجاب فأصدر الرئيس أوامره بعد سنتين فقط من إنتاج فيلم "القادسية" بتنفيذ مشروع سينمائي آخر يستلهم تاريخ العراق المعاصر، المشكلة هذه المرة كانت في صعوبة العثور على رمز يعطي ثقلا لسيناريو الفيلم وحبكته فالتطرق إلى السنوات التي سبقت تولي حزب البعث زمام السلطة لم يكن مسموحا، وقع الاختيار في نهاية الأمر على فترة زمنية مثيرة للجدل كانت قد شهدت أحداث شغب ونهب وسلب، عُرِفت بثورة العشرين.

كما في المرة الأولى، تمت الاستعانة بتقنيين أجانب مختصين في تصوير المعارك القديمة والياتها وطائراتها كما أسندت أدوار البطولة لعدد من الممثلين البريطانيين، كان على رأسهم أوليفر ريد الذي قام بدور رئيسي في فيلم مصطفى العقاد ولم تكن ملامح دوره في "المسألة الكبرى" كالكولونيل ليجمان البريطاني تختلف كثيرا عن شخصية غراتزياني التي لعبها في "أسد الصحراء"... وضع النقاد الغربيون الفيلم الذي قاربت ميزانيته خمسة وعشرين مليون دولار أمريكي في خانة الأعمال الدعائية وسخر أبطاله من ركاكة أدوارهم التي أدوها فيه، بل أقر بعضهم لاحقا بأنهم كانوا يمضون جل وقتهم خلال التصوير مخمورين وغادروا العراق مباشرة بعد استلام مستحقاتهم المادية الضخمة دون أن يكترثوا حتى بمشاهدة النسخة النهائية للفيلم.

استمر الرئيس في بذخه على المهرجانات والفنانين في وقت كان اقتصاد العراق يعاني فيه من ضغوط هائلة بسبب فواتير الحرب المتراكمة وعجز الإنتاج النفطي لوحده عن تغطية تكاليفها الباهظة... خريجو الجامعات كانوا يقتلون على جبهات القتال التي أرغموا على الالتحاق بها ضمن خدمة العلم الإلزامية، فيما وقع آخرون في الأسر أو أصيبوا بإعاقات دائمة في الوقت الذي كان أقرانهم من الممثلين والشعراء والراقصين والمطربين يتسكعون في مرابع العاصمة وفنادقها من فئة خمسة نجوم والتي اكتظت بدورها بالنزلاء من المدعوين إلى المهرجانات المختلفة، أبهاء ومطاعم الفنادق شهدت وفود المشاركين بأزيائهم الغريبة وهم يعبّون الشراب المجاني حد الثمل ويملئون أطباقهم بأكوام مما لذ وطاب من أصناف الأكل في البوفيهات الممتدة المخصصة لإطعامهم على مدار الساعة.

الفنادق الفخمة التي افتُتحت في بغداد في مطلع الثمانينيات كانت قد شُيدت في الأصل لاستضافة وفود مؤتمر عدم الانحياز والذي كان من المقرر عقده في عام ١٩٨٢، لكن اندلاع الحرب مع إيران تسبب في إلغاء دورته تلك... فندق الرشيد كان أهم تلك الفنادق على الإطلاق وأكثرها اتساعا وبذخا، بُني كي يكون مقرا لرؤساء البعثات المشاركة في المؤتمر وصُنف وقتها واحدا من أفخم عشرة فنادق على مستوى العالم فقد تم استيراد الرخام الخاص بأرضياته خصيصا من ايطاليا وغلّفت جلود الفيلة أرائك بهوه فيما عهد إلى فريق من الحرفيين المغاربة بنقش جدران وسقوف أحد مطاعمه العديدة، أما حدائقه الغنّاء الواسعة فقد زيّنتها أصناف الزهور والنباتات النادرة وتولّى تصميمها والعناية بها كادر متخصّص من العمال والمشرفين الأجانب.

لم تُدشّن وفود مؤتمر عدم الانحياز أجنحة فندق الرشيد كما كان مخططا لها، لكن الأخيرة استضافت لاحقا عددا كبيرا من الشخصيات العالمية العامة (سياسية وفنية وإعلامية) ثم اكتسب الفندق شهرته الأكبر بعد تعرّضه لقصف الطائرات الأمريكية المغيرة في التسعينيات، فأمر الرئيس بوضع صورة لجورج بوش الأب على أرضية المدخل كان لزاما على كل زائر للفندق أن يدوس عليها قبل الدخول إليه... بعد فترة قصيرة من تثبيت الصورة، أسفر هجوم صاروخي أمريكي عن هدم منزل الفنانة التشكيلية ليلى العطار وقتلها مع أفراد من أسرتها فانتشرت شائعة بين العراقيين والعرب بأن الضربة كانت انتقاما من العطار بسبب دورها في وضع صورة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في مكانها المهين في فندق الرشيد.

قابل الفندق (عبر الشارع العريض المحاذي له) قصر مهيب للمؤتمرات تم افتتاحه بالتزامن معه وكان حديث الأوساط الهندسية خلال فترة إنشائه بسبب كلفته التي جاوزت عشرات عدة من ملايين الدولارات... المجمع الضخم كان قد بُني هو الآخر لاستضافة جلسات مؤتمر عدم الانحياز، لكنه صار مقرا لفعاليات ومراسيم افتتاح وختام المهرجانات المتعاقبة وارتبط بذاكرة العراقيين بمقاعده برتقالية اللون التي توسّدها أعلام الأدب العربي كنزار قباني ومحمود درويش وعبد الوهاب البياتي وأحلام مستغانمي ضمن مشاركاتهم في دورات مهرجان المربد الشعري.

المرة الأولى (والأخيرة) التي زرت فيها قصر المؤتمرات كانت عندما صحبنا أساتذتنا في قسم العمارة لمعاينة آثار الدمار الهائل الذي تعرض له المبنى جراء قصفه

بالصواريخ خلال غارات "عاصفة الصحراء" على بغداد في مطلع التسعينيات، راعني يومها مرأى القاعة الرئيسية التي لم يتبق منها سوى أرضية خراسانية جرداء وجدران محترقة وسقف مفتوح إلى السماء تخللته أشياش حديد ملتوية بفعل الحرارة كخيوط نسيج مفتوق... من سخرية الأقدار أن جنبات ذلك الفضاء كانت قد ردّدت صوت الشاعرة الكويتية سعاد الصباح في نصها النثري الشهير "قصيدة حب إلى سيف عراقي" الذي ألقته من على منصة القاعة وتغزّلت فيه بأرض العراق ونخيله ورجاله الغيارى، فقوبلت أبياتها بهدير من تصفيق الحاضرين، قبل سنوات قليلة فقط من إصدار الرئيس أوامره للقوات المحتشدة على الحدود بغزو أراضي الكويت وضمّها إلى العراق.

من الأمور الأخرى التي تداولها العراقيون همسا عن مهرجان المربد كانت قصيدة نزار قباني التي ألقاها أمام حشد توسطه وزير الثقافة والإعلام في قاعة قصر المؤتمرات وأدان فيها نفاق المثقفين العرب الرؤساء والحكام واقتياتهم فتات موائدهم... النص الجريء لم يكن متوقعا وتسبب بحرج كبير لحضور الجلسة من الشعراء والمسئولين على حد سواء فتم منع نشره ولم توجه الدعوة بعد تلك الواقعة لقباني للمشاركة في دورات المهرجان، قيل أيضا أنه قد حزم حقيبته ورحل غاضبا قبل انتهاء الفعاليات عندما اكتشف مراقبة الجهات الأمنية له وتلصصها عليه في الغرفة المخصصة له في أحد الفنادق فئة خمس نجوم.

التدخلات الأمنية المستمرة وفرض الدولة لأفراد غير مؤهلين مهنيا ضمن كوادر الفنادق الكبيرة لمراقبة الضيوف والزائرين كان من أبرز التحديات التي واجهت الشركات العالمية التي عُهد إليها بإدارة تلك المنشآت وتسبب في حدوث العديد من المشاكل معها، لكن ما حدث في فندق نينوى في الموصل كان أمرا غير مسبوق في عالم السياحة... الفندق الفخم الذي بُني بكلفة ضخمة على شاطئ نهر دجلة (مجاورا لغابات المدينة الشهيرة) شهد منذ افتتاحه إقبالا ملحوظا من العوائل العراقية التي اضطرها قرار منع السفر إلى الخارج إلى البحث عن بدائل محلية لقضاء العطلات، عهد بإدارته إلى شركة عالمية معروفة كانت مسئولة عن تشغيل عدد من الفنادق الكبيرة في العاصمة حتى قرر الرئيس فجأة أن يبني لنفسه قصرا منيفا على قمة التلة المطلة على الفندق فصدرت توجيهات بإخلاء جميع الغرف والأجنحة المقابلة للمنتجع الرئاسي ومنع إشغالها تماما ما أدى إلى تقلص قدرة الفندق الاستيعابية إلى النصف.

زيارتي الأولى للموصل وإقامتي القصيرة في فندقها الحديث في منتصف الثمانينات ارتبطتا في ذهني بأحداث ومشاهدات بدت عابرة وقتها، لكن دلالاتها لا تزال حاضرة ومؤثرة في حياة ملايين من العراقيين بعد قرابة ثلاثة عقود... لم تطل سفرتنا إلا أياما قليلة، لكنها كانت حافلة بزيارة العديد من المواقع الأثرية المحيطة بالمدينة، والتي يعود بعضها إلى آلاف خلت من السنين وكذلك بعض المعالم الدينية كان من أبرزها "دير متي" المقام على سفح جبل عال في القرن الرابع الميلادي، اكتسب المكان اسمه وشهرته من الناسك متي الذي فر من اضطهاد الرومان إلى تلك البقعة القصية المنعزلة حيث التحق به عدد من الرهبان والنسك من المناطق المجاورة وقاموا ببناء الدير، زيارة المجمع الضخم والتمتع بمنظر السفوح المحيطة به كانا من أجمل ذكرياتي عن الرحلة، لكن الحوار الهامس الذي دار بين سيدتين مسنتين من الزوار وتسلل إلى مسمعي أثار دهشتي.

"اغتنمي الفرصة وأكثري من الدعاء كي تُقضى حاجتك فالدير يقصده آلاف الزوار لهذا الغرض!". قالت إحدى السيدتين لرفيقتها، ثم أردفت مُعقّبة:

"المبنى كان متهالكا قبل سنوات وأوشك على الانهيار، تم ترميمه بشكل شامل وشق طريق حديث إليه وفق أوامر الرئيس الذي بلغته أنباء معجزات مار متي فقام بزيارة المكان في بداية الثمانينات وأوعز بتجديده وأولاه عناية واهتماما خاصين"... ذكر المعجزات أثار فضولي فاقتربت أكثر من السيدة التي مضت في حديثها الهامس:

"خلال المواجهات العسكرية مع الكُرد في الجبال القريبة، لاذ عدد منهم بالدير للاختباء فيه، فصدرت الأوامر للطائرات بالإغارة على المجمع وهدمه بالكامل، لكن قائد الطائرة المكلف بالعملية فوجئ بتعطل زر إطلاق الصواريخ عندما ضغط عليه، أكثر من ذلك، شاهد بأم عينه القديس متي واقفا بردائه الكهنوتي على سفح الجبل، رافعا كفه بوجه الطائرة التي راحت تتقهقر إلى الخلف دون أن يستطيع قائدها السيطرة عليها".

فغرت فاهي من الدهشة والتفت نحو السيدتين اللتين أحستا بوجودي فتوقفتا عن الحديث وأسرعتا بالمغادرة خشية أن أكون من رجال "المخابرات" المُكلّفين بالتلصّص على الزوار وأحاديثهم.

... أيعقل أن يصدق إنسان ناضج رواية ساذجة كتلك؟ أين كان مار متي عندما استُهدِف ديره مرة تلو الأخرى عبر التاريخ فهُدم وأحرق على أيدي المغول والفرس وسواهم من الغزاة؟

المحطة التالية في جولتنا النهارية كانت كنيسة قديمة أخرى في الموصل لفت انتباهنا عند وصولنا إليها حشود الزوّار الضخمة المتوجهة إليها والخارجة منها، دليلنا أوضح لنا بأن الكنيسة قد شهدت مؤخرا ظهورا متكررا لطيف السيدة العذراء على جدار محرابها وتداول الناس حكايات عجيبة عن خوارق شملت المتواجدين في القاعة لحظة التجلي فأبصر الضرير منهم وقام المشلول عن كرسيه ونطق الأبكم وسمع الأصم... بعد فترة وجيزة من دخولنا إلى قاعة الصلاة المكتظة بالمصلين والزائرين من مختلف الأديان والملل، ترددت صرخات وتعالى نحيب وتعلقت أبصار الحضور بالجدار الأبيض الذي تدافعت كراسي المعاقين نحوه وارتفعت الأيدي حاملة أطفالا رضعا يبكون في فزع.

"انظروا هناك! ها هي العذراء مريم تتحرك، انظروا إلى طيفها المضيء! إنها تلوّح لنا، تشير إلى اليمين، بل إلى اليسار، انظروا كيف غاب الرجل المشلول عن الوعي عندما لامس النور وجهه! يبدو أنها تحادثه وتمسح رأسه بيدها!" .

أمعنت النظر جيدا... نعم، لمحت حركة على الجدار، لكنها كانت موجودة منذ لحظة دخولنا ولم تثر انتباه أحد، فما الذي جدّ في الأمر؟ رفعت رأسي إلى أعلى حيث مصدر الضوء المنعكس، شاهدت نافذة مرتفعة بدت من خلالها أغصان شجرة قديمة تتمايل بفعل هبوب الريح، نظرت إلى المحراب من جديد، الأطياف المتراقصة كانت ظلال الأغصان التي تخللتها أشعة الشمس، لا غير.

... كيف غاب ذلك عن جموع المحتشدين الباكية المُهلّلة؟

كان ذلك درسي الأول عن المحن وأثرها على الناس وتغييبها لعقولهم وتهيئتهم لتصديق شتى الأفكار والأوهام، جلست متأملا ما حدث في الباص الذي أقلنا إلى بغداد في صباح اليوم التالي عندما انتبهت إلى امرأة من فوجنا، قصيرة الشعر، ترتدي السواد، بدت في الثلاثينات من عمرها، كانت أكثر المسافرين مرحا طيلة الرحلة، تلاعب الأطفال وتمازح المسنين، تردد الأغاني مع الشباب. وتتشارك الطعام مع الجميع، استغربت جلوسها واجمة ساكنة كجسد غادرته الحياة، ظننتها في بادئ الأمر

متوعكة بسبب تعب الأيام الماضية حتى انفجرت باكية بطريقة هستيرية أثارت دهشتنا وفزعنا... طلب المسافرون العون من والدي باعتباره الطبيب الوحيد في المجموعة فقام بإعطائها حبة مهدئ خفيف المفعول بعد أن جس نبضها ثم جلس يراقب حالتها عن كثب.

عندما سكن النشيج قليلا، حكت المرأة قصتها بكلمات قاطعتها شهقاتها ودموعها المنسكبة كالسيل على وجهها... كانت زوجة لرجل محب مثقف لم يكتب لها أن ترزق بأبناء منه، لكن ذلك لم يقف عائقا في وجه سعادتهما حتى استُدعي الزوج للالتحاق بجبهة القتال، ابلغوها بنبأ استشهاده في إحدى المعارك بعد أسابيع قليلة فأصيبت بانهيار عصبي حاد استلزم خضوعها لعلاج طويل، نصحها الطبيب في نهايته بالسفر لأيام قليلة للترويح عن نفسها والخروج من دوامة الذكريات... راقت لها الفكرة واستطاعت الرحلة بالفعل أن تنسيها مصيبتها مؤقتا، لكن العودة إلى بغداد جعلتها تسترجع تفاصيل كل ما حدث فانهارت وجعا وحزنا وأسى من جديد.

ترجل أفراد فوجنا من الباص بوجوه متجهمة الواحد تلو الآخر، عيون النساء كانت محمرة من البكاء تأثرا بقصة الأرملة المسكينة، مضى كل منا عائدا إلى منزله صامتا شارد الفكر رغم حقائبنا المعبأة بحلويات الموصل وأطايبها... تجاهلنا المعارك المستعرة على الجبهة كان آلية بقاء لجأ إليها معظم العراقيين خلال سنوات الحرب مع إيران ، مسيرة الحياة يجب أن تمضي قدما ولا تتوقف عند أحد أو حدث بعينه، لكن مشاهدا خاطفة كتلك كانت تداهمنا بين الفينة والأخرى، تصفعنا على وجوهنا وتعيدنا إلى قتامة واقعنا وجنونه وعبثه، فنردد ساخطين:

اللعنة عليكِ أيتها الحرب!

الخطر لم يعد بعيدا

كبرنا وكبرت الحرب معنا بل شاخت وترهّلت، ذوت عنها حماسة الشعارات والأناشيد الأولى وخط التعب والخيبة تجاعيدهما على وجهها... كل شيء صار روتينيا حتى الموت وتعاطينا معه، إحياؤنا لذكرى القتلى في يوم الشهيد الذي قامت إيران فيه بارتكاب مجزرة مروعة بحق الأسرى من الجنود والضباط العراقيين العزل هو الآخر أمسى طقسا عابرا تحتم علينا خلاله الهتاف بمقولة الرئيس الشهيرة: "الشهداء أكرم منا جميعا" مع وضع شارة على صدورنا حملت رسما لنصب الشهيد المشيد حديثا، الصرح الضخم ضم متحفا لتوثيق معارك القادسية الثانية ومئات الصور الضخمة لبطلها مع سطور له عن الشهادة صكت من الذهب الخالص المصهور لحلي النساء العراقيات اللاتي أجبرن على التبرع بها دعما للمجهود الحربي.

بات للفقدان جائزة يتسلّمها ذوو القتيل على هيئة سيارة حديثة وقطعة أرض، علمت بذلك عندما استشهد بعض معارف أسرتي أو فقدوا، كان من بينهم ضابطا شابا لم تمض سوى سنوات قليلة على زواجه، اختفى وانقطعت أخباره عندما كانت زوجته الجميلة حاملا بطفلهما الثاني، رفضت الزوجة أن تعود إلى بيت أهلها حتى بعد أن وضعت وليدها خشية أن يعود الحبيب إلى داره يوما فلا يجدها بانتظاره، لم تترك بابا دون أن تطرقه بحثا عمن يدلها على أثر له، لجأت إلى المنظمات الإنسانية الأجنبية، قابلت رفاقه العائدين من الجبهة، البعض أكد رؤيته حيا بينما روى البعض الآخر أنباءً عن إصابته وأسره، فيما تمتم قلة منهم بصوت خفيض: "رحمه الله!"... ابيض شعر الزوجة الشابة جزعا وحزنا، انكفأت على ابنيها ترعاهما وعينها ترقب مدخل البيت علّ بشيرا يصل يوما ليزف لها خبرا سارا، أضناها الانتظار فأصيبت بمرض خبيث اقتضى استئصال أحد ثدييها، السيارة التي وصلت من الرئاسة ترضية وتعويضا عن مصاب الأسرة بقيت في المرآب بانتظار من يقودها حتى قام اللصوص بسرقتها في ليلة كالحة السواد.

لا أذكر أني قد رأيت الدموع من قبل في عيني أم عباس، السيدة القروية التي كانت تساعد والدتي في تدبير شئون منزلنا وتعول عددا كبيرا من الأبناء والبنات كانت دائمة النشاط والابتسام رغم ضيق الحال، رؤية وجهها الصبوح المشرق وهي تمازح

الجميع فيما تمضي في تأدية مهامها بلا كلل أو تبرم كانت مبعث أمل وطمأنينة لكل من عرفها وأنا من بينهم... مشهدها في الثوب الأسود وهي تتناول طعامها والدموع تتساقط من عينيها أثار جزعي عندما عدت من المدرسة ذات يوم، أبلغتني والدتي أن ابنها البكر عباس قد استشهد على جبهة القتال مع إيران، طبعت قبلة على رأس الأم الثكلى الملفوف بالفوطة السوداء، رفعت عيناها المبللتان إلي وهي تبتسم.

... أما لهذا النزاع المجنون من نهاية؟

صار من المألوف ظهور الرئيس وهو يقوم باستقبال عوائل الشهداء ويعلق الأنواط والأوسمة على صدور الأرامل والأيتام، المقابلات التي استغرقت ساعات طوال أمست جزءا ثابتا في برامج قنوات التلفزة رغم حقيقة أن أحدا لم يعد مكترثا بمشاهدتها، كنا نخفض الصوت ونكتفي بمراقبة الصورة بين الحين والآخر على أمل أن ينتهي اللقاء الممتد كي نواصل متابعة مسلسلاتنا المفضلة أو أن يغلبنا النعاس خلال الانتظار فنقوم بإغلاق الجهاز ونتوجه إلى أسرتنا للنوم... واحدة فقط من تلك اللقاءات أثارت لغطا واسعا بين الناس إذ ظهر القائد فيها وهو يُكرّم رجلا قام بالإبلاغ عن ابنه الفار من القتال، تم القبض على الفتى واقتيد إلى مصيره المحتوم فيما توجه أبوه إلى قصر الرئاسة لاستلام مكافأة مالية ضخمة ومقابلة صدام حسين الذي أثنى على شعوره الوطني، تصدرت صفحات الجرائد الأول في اليوم التالي صور للرجلين المبتسمين مع تفاصيل اللقاء كانت كفيلة بجعل جلود الكثيرين تقشعر لخسة الفعل وانعدام عاطفة الأبوة لدى الرجل الواشي.

مشكلة الفرار من الخدمة العسكرية ظهرت بعد بدء الحرب بفترة قصيرة... كما هي عادته، جاء رد الرئيس عليها حاسما دمويا إذ أوعز بإعدام كل من يتقهقر أو يهرب من المواجهة فلجأ البعض لإطلاق الرصاص عمدا على أرجلهم أو أذرعهم كي يتم إخلاؤهم إلى الصفوف الخلفية ثم يُلحقون بالوحدات العسكرية في المدن عوضا عن مواجهة الموت الرابض على الجبهات، تفوق إيران العددي على العراق فرض واقعا حرجا على الأرض مع تدفق أفواج من المقاتلين المؤدلجين مستعدين للموت بل تواقين إليه على وعد من الملالي بدخول جنات الخلد والتمتع بنعيمها، بدأنا نعيش كابوس أن يعلن العراق النفير العام فيتم تعطيل الدراسة وسوق الطلبة للقتال فقد أُجبر موظف

الدولة على الالتحاق بما عرف بالجيش الشعبي وكانوا يُرسلون دوريا إلى خطوط التماس حيث مات الآلاف منهم بسبب ضعف التجهيز والتدريب.

أذكر صوت الضربات المتلاحقة التي هوت على باب دارنا ذات مساء عندما جاء الرفاق الحزبيون بحثا عن أخي الطالب الجامعي كي يلتحق بصفوف الجيش الشعبي خلال العطلة الصيفية، قال لهم والدي أن ابنه الأكبر قد سافر إلى مدينة أخرى كي يكون إلى جوار خالته التي كان زوجها ضابطا مقاتلا على الجبهة، تكررت زيارات الرفاق لنا بعدها وتعددت الأعذار التي كنا نسوقها في كل مرة حتى أصدر الرئيس أوامره بأن يلتحق طلبة الجامعات بمعسكرات للتدريب العسكري خارج المدن، سادت حالة من الرعب بين الأهالي الذين لم يكونوا يعلمون إن كان سيتسنى لهم رؤية أبنائهم مرة أخرى أم أن الفراق سيكون أبديا، أذكر وداع والديّ لأخي المخضب بالدموع والدعاء... تسللت الحرب خلسة إلى أسرتنا كثعبان لزج سام.

هل سأكون أنا فريستها التالية؟

طالت فترة التدريب لشهور حاول أخي خلالها الفرار أكثر من مرة من معسكره، لكنه كان يُجبر على العودة في كل مرة خشية وقوع كارثة تودي بمستقبله فعقوبة الفرار من القتال الصارمة كانت تتربص بالجميع، بات من شبه المؤكد أن الدراسة الجامعية ستتوقف ويتم إرسال الطلبة إلى أتون القتال المستعر على الجبهات، لكن القائد أوعز فجأة بعودة المتدربين إلى مقاعدهم واستئناف العام الدراسي، تنفس الجميع الصعداء واحتلت مكرمة الرئيس عناوين الصحف التي أبرزت حرصه على قيمة العلم والتعليم مع اقتباس مقولته الشهيرة:

للقلم والبندقية فوهة واحدة

رجع الطلبة إلى قاعات الدرس وهم يشعرون باليأس وعدم المبالاة بالتحصيل العلمي، ما جدوى شهادة ترمي بحاملها في الجحيم؟ لجأت كثرة من الجامعيين الذكور إلى الرسوب المتكرر علّ ذلك يبعد عنهم شبح الموت الذي بات يطاردني أنا الآخر عندما التحقت بقسم الهندسة المعمارية في جامعة بغداد.

استمتاعي بدراسة الفن الذي شغفت به منذ طفولتي لم يستمر طويلا فقد كدّره حادث وقع بعد أسابيع قليلة فقط من بدء الدوام عندما أفزعنا دويّ مباغت ردّدت صداه جدران وأروقة المجمع الضخم، لم يكن انفجارا أو هدير طائرة مغيرة فتلك الأصوات

لم تعد غريبة على مسامعنا وما كانت لتثير دهشتنا، كان طلقا ناريا قريبا... دبّت حركة مضطربة بين الممرات وشهدنا تراكض بعض الرفاق الحزبيين باتجاه قسم الهندسة المدنية المجاور لنا، علمنا بعد قليل أن زميلنا عمر سبعاوي (ابن أخ الرئيس غير الشقيق) قد أطلق رصاصة من مسدسه الشخصي الذي كان يحمله على رئيس اتحاد الطلبة في الجامعة اثر سوء تفاهم وقع بينهما وارداه قتيلا.

مررت في اليوم التالي بجوار موقع الجريمة وشاهدت بأم عيني بقايا بقعة الدم المتيبس على الأرض دون أن أجرؤ على التفوه بكلمة فالجامعة مليئة بالعيون والآذان المتلصصة المتربصة... الرفيق عمر لم يحاكم أو يسجن بل واصل "دراسته" بيننا كأن شيئا لم يحدث.

علا الوجوم الوجوه لحظة إبلاغنا بقرار وجوب التحاقنا بمعسكرات تدريب الطلبة خلال العطلة الصيفية، تجربة أخي مع معسكره وانطباعه السيئ عنه كانا لا يزالان حاضرين في ذهني عندما توجّهت إلى الباص الذي سيقلنا إلى معسكرنا في ضواحي مدينة الموصل والذي صعدنا إليه الواحد تلو الآخر واجمين صامتين كمن يساق لحتفه... استقبلتنا جدارية ضخمة تحمل صورة مرسومة للرئيس عند بوابة المعسكر، أنباء إزاحة الستار عن واحدة من تلك الجداريات التي أنجزها رسامون محترفون وهواة وملأت الميادين والشوارع في مدن العراق من شماله إلى جنوبه كانت تطالعنا بشكل يومي في الصحف وبرامج التلفزيون مرفقة بصور ومقاطع للرفاق الحزبيين بشواربهم الكثة وكروشهم المتدلية وهم يرتدون ملابس القتال ويصفقون ويهزجون بحماسة لحظة ظهور ملامح وجه القائد فيما يقوم عدد من الشعراء الشعبيين بترديد أبيات تمجد "أبا عدي" وتجدد عهد الشعب وبيعته له واستعداده لفدائه بآخر قطرة دم متبقية في عروقه.

أثار توقف الباصات عاصفة من الأتربة استنشقنا كمية لا بأس بها منها عند ترجلنا، وقفنا بجوار حقائبنا الصغيرة قبل أن تتردد صرخات غاضبة تأمرنا بالاصطفاف في طوابير ريثما يتم سوقنا إلى العنابر كي نقوم باستبدال ملابسنا المدنية بأخرى عسكرية تم توزيعها عشوائيا فوجب علينا أن نبحث عن الأحجام المناسبة لكل منا عن طريق التجربة والخطأ، أمضينا ما تبقى من سويعات النهار في الاستعداد لليوم التالي الذي سيشهد بدء تدريبنا العسكري... المفاجأة التي كانت بانتظارنا أن برنامج

تدريبنا المرتقب لم يكن قتاليا قدر ما كان استعراضيا، غايته أن نقوم في نهاية الدورة بالمسير أمام ممثلي القيادة وبعض مسئولي الحزب فيتم تصويرنا وتبث وسائل الإعلام مقتطفات من استعراضنا المهيب، تلك كانت كل القصة، لكن ذلك لا يعني أن وجودنا الذي استمر لأسابيع معدودة في المعسكر كان نزهة سهلة.

صور عدة انطبعت في ذاكرتي من تجربتي الأولى في المعسكر لعل أبرزها مشاعر الكره والحقد التي وشت بها عيون وأفواه وأفعال الموكلين بتدريبنا، استمتاع العرفاء والضباط بل تلذّذهم بإهانتنا خلال التدريب وقبله وبعده وسخريتهم من سعينا لنيل شهادات جامعية فضحا أمراضا نفسية وعقدا متوطنة في وعيهم الظاهر والباطن... لا أزال أذكر قهقهاتهم ذات ظهيرة صيف ملتهبة عندما خطر لضابط الأمن أن يتسلى بمعاقبة أحد الفصائل فأمر أفراده بلا استثناء بالتجرد من ثيابهم والتدحرج على طريق إسفلتي أذابت حرارة الشمس سطحه فصار لزجا حارقا، صرخات الألم التي صدرت عن رفاقنا وهم يتلظّون وجعا أمام أنظارنا واللون الأرجواني الذي صبغ صدورهم وظهورهم أصابنا بالذهول والجزع عليهم، لكن تلك لم تكن أول العقوبات ولا آخرها.

الخوض في الأوحال التي كثيرا ما أُجبرنا على تمريغ جباهنا فيها، الدوران حول أنفسنا حتى الإصابة بالغثيان والسقوط على الأرض، السباب الذي انهال علينا صباح مساء، العطش الذي كان يعتصرنا حتى يوعز لنا الضابط بدقائق معدودة فقط من السقيا من خزان صدئ قديم فنركض إليه كي نعب بقبعاتنا العسكرية من مياهه التي علتها الحشرات والزواحف النافقة واختلط طعمها في أفواهنا المتيبسة ظمأ مع ملح عرقنا، نقاط الماء المتساقطة ببطء من أنابيب حديدية في كبائن الاستحمام والتي كان يتعين علينا التحمّم فيها وغسل ملابسنا القذرة بعد ساعات من التدريب فيما تتراكض الفئران مذعورة بين أرجلنا وتتعالى ضربات الزملاء التائقين للاغتسال على الأبواب، المرافق الصحية المخصصة لنا والتي كانت عبارة عن تلال من الفضلات علتها سحب من الذباب وحدتها برك من البول كانت الكلاب السائبة تعف عن الاقتراب منها، رائحة الطعام المقدم لنا التي كانت تجبرنا على إغلاق أنوفنا خشية التقيؤ ريثما نتناول لقيمات فقط نسد بها رمقنا، غارات الإزعاج الليلي التي كان يشنها الضباط على عنابرنا بين الفترة والأخرى فيقضّون بها مضاجعنا ويحرموننا من سويعات قليلة من نوم قبل أن يحين موعد التجمع ولما يبزغ بعد أول ضياء للفجر.

كل ذلك كان سيهون لو كان عندنا حافزا من شعور وطني أو وجدنا أثرا له في سلوك من تولوا تدريبنا فالخشونة والصرامة من مفردات الحياة العسكرية كما لا يخفى على أحد، لكن الشعور الوحيد الذي ساد بيننا كان أننا محتجزون في معسكر تعذيب بتهمة لا نعلمها، الأسوأ والأمر أننا رأينا بأعيننا تمييزا شنيعا في المعاملة على أسس غير أخلاقية ولا منطقية... فقدت عشرين كيلوغراما من وزني في غضون أسبوعين بفعل امتناعي شبه الكامل عن تناول الطعام، أحسست بالأرض تموج بي ذات صباح بعد أن انتهينا من فقرة التمارين الرياضية، فقدت وعيي وسقطت أرضا، لا أعرف كم من الوقت استغرقت إغماءتي، لكنني أفقت منها عندما هوى الطبيب بصفعة من كفه على وجهي، تركني مستلقيا على سرير الفحص ثم أوصى بمنحي استراحة لمدة يومين.

عندما نهضت بعد قليل طالعتني هيئتي المنعكسة في مرآة صغيرة معلقة على الحائط، راعتني ملامحي والتغير الذي طرأ عليها، كان لوني قد تحول إلى بني غامق مع هالات سوداء حول العينين فيما تقشر الجلد المحروق المتيبس عند أذني وبرزت أسناني إلى الأمام بسبب ذوبان الدهون في وجنتيّ ووجهي كله... وقفت لحظات أرقب صورة الهيكل العظمي المتحرك الذي صرته ثم خرجت من غرفة الطبيب بخطوات ثقيلة متوجها إلى عنبر المبيت.

غابت الرؤية عني للحظات بسبب انتقالي من وهج الشمس الساطعة إلى الظلمة، الأصوات التي التقطتها أذني بدت مألوفة، وقفت حتى استعدت قدرتي على التمييز، مشهد المجلس الذي ضمّ ضابط الأمن وعددا من مرافقيه مجتمعين حول زميل لنا تربط والده صلة نسب بإحدى أخوات الرئيس كان أول ما طالعني عند دخولي العنبر، سرت بحذر نحو السرير الحديدي المخصص لي ثم خلعت بهدوء جزمة التدريب عن قدمي المتقرحة ودسستها أسفل السرير فقفز هاربا جرذ كان مختبئا بين أغراضي، الحركة المفاجئة قطعت حديث رفيقنا الذي كان يبيت لياليه مخمورا في جناح خُصّص له في أفخم فنادق الموصل ويقوم بزيارة المعسكر بين الفينة والأخرى يمكث خلالها سويعات قليلة فقط قبل أن يغادر مصحوبا بحفاوة الضباط على اختلاف رتبهم... اتجهت الأنظار نحوي، قمت بمناولة ورقة الإجازة الممنوحة لي لضابط الأمن الذي تغيرت تعابير وجهه من السرور والانشراح إلى التجهم وهو يتفحصها.

"قد تتساءلون فيما بينكم عن سبب استثناء زميلكم الكريم من التدريب،" نطق بعد برهة وهو لما يزل ينظر في القصاصة التي ابتلت أطرافها بعرقي، لم أعقب بشيء فاستدرك قائلا:

" يجب أن تعلموا أن ذلك ليس سوى رد جزء من جميل أسرته العظيمة التي يدين عراقنا بالفضل لها في انتشاله من الظلمات والمذلة إلى العزة والفخر والنصر... الرخاء الذي تنعمون به الآن ما كان ليتحقق لولا نضال وتضحيات رجال كرام مثل الرفيق والد زميلكم".

أدهشني التحول المفاجئ الذي طرأ على الكائن المتوحش الذي طالما تلذّذ بتعذيبنا وإهانتنا في ساحة التدريب وخارجها، كم صار مستأنسا ودودا!

مضى ضابط الأمن يردد هراءه أمام الجميع وهو يسترق النظرات إلى وجه الفتى المبتسم خيلاءً كي يرى وقعها عليه. أشفقت على والدي الذي أفنى عمرا بين ردهات المستشفيات حتى أصيب بأزمة قلبية وهو لما يزل في الخمسين من عمره كادت أن تودي بحياته... أبي ورفاقه من أصحاب الكفاءات العلمية مع ملايين أخرى من المزارعين والحرفيين والموظفين البسطاء وسائقي سيارات الأجرة الكادحين كانوا بنظر ضابط الأمن من المتنعّمين بأفضال عائلة زوج أخت الرئيس الذي كان قاطع طريق أميّ قبل ان ينضوي تحت جناح حزب البعث ويصبح واحدا من مراكز القوة فيه.

... ثم، ألم يقولوا لنا بأن التدريب العسكري شرف وواجب على كل عراقي، لماذا إذا يستثنون أقارب الرئيس منه؟

دسست ورقة الإجازة في جيب قميصي ومضيت نحو مضجعي في العنبر فيما ردّدت أذني صدى صوت زميل لنا فاض به الكيل قبل أيام قليلة فراح يصرخ على نحو هستيري جعل ألسنة المدربين والضباط في ساحة التدريب تنعقد من الدهشة:

"أيها السفلة، أيها المجرمون، ألا تخجلون من أنفسكم؟ هل ترون كم حقدكم علينا؟ أهذه وصايا قائدكم لكم؟ هل هذا هو التدريب الذي جئتم بنا إلى هنا من أجله؟ أتظنون حقا أنكم بذلك ستنتصرون في الحرب، هيهات، هيهات!"... استمر صراخ الفتى عاليا وهو يُقاد إلى خارج الساحة الجرداء التي حفتها لافتات حملت مقولات الرئيس عن صناعة الرجال في سوح القتال، لا يعرف أحد ما حل به أو الوجهة التي سيق إليها.

الغرض من تدريبنا لم يكن عسكريا تعبويا قدر ما كان سياسيا أمنيا فقد كان حتما علينا بعد التخرج وقبل توزيعنا على الوحدات أن نمر بفترة تدريب أساسي تمتد لثلاثة شهور، كما أن معسكرات الطلبة والإعداد لها وتجهيزاتها كانت تستنزف مبالغا طائلة في وقت كانت ميزانية العراق فيه تئن تحت أعباء نفقات القتال على الجبهات الممتدة... وحشية تعامل الضباط والعرفاء معنا هدفت لإيصال رسالة مغلفة بشعارات جوفاء من الوطنية والواجب كي نتعظ مما يحدث أمامنا وندرك جيدا عاقبة التمرد والعصيان.

استلقيت على السرير المعدني بحذر كي لا تصدر عنه ضوضاء تزعج ضابط الأمن ومرافقيه، رحت سريعا في إغفاءة عميقة بفعل الإرهاق، داهمتني كوابيس عن عصابة "أبي طبر" التي ذاع صيتها خلال السبعينات بعد أن هاجمت عددا من العوائل البغدادية وقامت بذبح أفرادها بوحشية هزّت الرأي العام قبل أن يتّضح للناس بأنها كانت جزءا من مسلسل ممتد استهدف ترويع العراقيين وتتابعت حلقاته على امتداد عقود حكم البعث في بلدنا... رأيت في منامي ضابط الأمن وقد تحول إلى كلب مسعور انقض عليّ والزبد ينسكب من فيه، أحسست بأنيابه تنهش لحمي فتضوّرت وجعا فيما راح أبو طبر وعصابته يرقبون المشهد عن بعد، صراخي واستنجادي لم يحركا ساكنا فيهم، أمعنت النظر فيهم فراعني أن ملامح وجه أبي طبر كانت شديدة الشبه بملامح شخص أعرفه، ضحك فاهتز كتفاه كما يفعل الرئيس.

يا الهي... صدام هو أبو طبر!

أيقظتني يد هزّت كتفي من كابوسي المقيت، فتحت عيني فشاهدت وجه زميل لي، لم أره بمثل تلك البهجة والسرور من قبل.

... هل أصيب بالجنون؟

مسحت حبات العرقْ التي غطت وجهي بكم قميصي القذر، نظرت حولي فوجدت رفاقي الآخرين يتقافزون ويتصايحون فرحا.

هل لا زلت أحلم؟

قال صديقي والدموع تترقرق في عينيه:

"انهض من نومك! ستنتهي الحرب قريبا... أعلنت الإذاعة للتو خبر قبول إيران وقف إطلاق النار".

... وانتهت الحرب، أخيرا!

"اتخاذي لقرار القبول بوقف إطلاق النار لهو أشد وطأة على نفسي من تجرّع السم الزعاف"

الخميني – ١٩٨٨

ضجّت بغداد بالفرح بعد أن ظنّ أهلها أن عهد المسرّات قد ولى إلى غير رجعة، احتفلت بالسلام بمجون وشبق يليقان باليوم المرتقب، نزل الناس إلى الشوارع يتراقصون ويتراشقون بالمياه، انطلقت الأعيرة والألعاب النارية لتضيء ليل العاصمة وأُعلنت الأيام التالية عطلة رسمية ابتهاجا بالنصر العظيم... اتّقدت من جديد جذوة الأمل بعودة حبيب أسير أو مفقود في نفوس أمهات وزوجات وأبناء بعد أن ذوت أو كادت أن تذوي بفعل طول الغياب، واكبت برامج التلفزة مظاهر الاحتفال وسط أناشيد تغنّت بنصرنا المُتحقّق على يد الرئيس الذي أطلّ مرتديا اللباس العربي الخاص بأهل البادية، ملوّحا للحشود المتدافعة أمامه فيما سمي بساحة الاحتفالات الكبرى التي ضمت منصة رئاسية ومدرّجات تشرف على مضمار عرض عسكري وسط حدائق منمّقة ممتدة تخلّلتها برك مياه وجداول ونافورات.

بالإضافة إلى نصبي الشهيد والجندي المجهول المُنجزين حديثا، عزم القائد على تشييد صرح ثالث يحتفي بالنصر على الفُرس ويحاكي في رمزيته القوس الشهير في باريس فوقع الاختيار على تصميم استوحى ساعدي الرئيس وقبضتيه الممسكتين بالسيوف المتقاطعة على هيئة قوسين هائلين يحدّان نهايتي مضمار الاستعراض في ساحة الاحتفالات... تناثرت حول القوسين وتحتهما خوذ مثقوبة بالرصاص لجنود إيرانيين كي يدوس عليهما كل مار تحت الذراعين كما أوعزت القيادة.

تكفّلت شركات أوروبية بتنفيذ التصميم من الفولاذ والبرونز في مصاهر وورش خاصة، شُحنت بعدها القطع الضخمة إلى بغداد كي يتم تثبيتها في الموقع المحدد وسط احتفالات مهيبة... جدير بالذكر هنا أن بصمات أصابع صدام حسين التي أُرسِلت إلى الشركة المنفّذة للنصب، كانت إحدى المصادر التي اعتمدتها قوات التحالف في التأكد من هوية الرجل الذي سقط في قبضتها بعد قرابة عقدين من مروره الشهير تحت القوسين، متبخترا على ظهر فرسه الأبيض.

خلع الرئيس ملابس القتال وصار يكثر من الظهور بملابس مدنية ذات تصاميم غريبة، فتارة يرتدي زيا شبيها بلباس الصيادين الأوروبيين أو رعاة البقر الأمريكيين أو حتى زعماء عصابات المافيا بمعاطف من الفراء باهظة الأثمان، وأخرى يظهر بزي عربي مزركش لم يكن من المألوف أن يرتديه الرجال... تفاصيل صغيرة كتلك كانت إرهاصات لتغييرات عديدة قادمة، فصدام حسين بات يسعى لدور يفوق في تأثيره النطاق المحلي المحدود إلى مساحة عربية ودولية وزعامة مثل تلك التي كانت للرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، بل تفوقها بمراحل، لم لا؟ أليس هو بطل النصر المبين؟

غالى البعض في تفاؤلهم وراحوا يرسمون في خيالاتهم ملامح عصر رخاء وشيك سيضمّد جراح المنكوبين ويحقق رفاهية عيش طال انتظارنا لها، لكن مفاجأة من نوع آخر كان يتم الإعداد لها فقد طلعت وسائل الإعلام علينا بخبر تأسيس مجلس التعاون العربي المشترك، وهو تكتّل إقليمي ضم في عضويته بلدانا عربية متجاورة هي العراق والأردن ومصر ثم أُلحقت به اليمن فيما بعد دون توضيح أو تبرير مقنع... كان اليمنيون في تلك الفترة يلعقون جراحا خلفتها حرب أهلية طويلة شطرت بلدهم نصفين.

لكن أنّى للعراق الخارج توا من حربه مع إيران أن يقوم بأعباء تمويل دول تعاني جميعها من شح الموارد الاقتصادية وتتصدّر أحداها (مصر) قائمة أكثر البلدان العربية والشرق أوسطية تعدادا سكانيا؟ هل يستطيع إنتاجنا من النفط وحده أن يتكفّل بتسديد ديوننا المتراكمة وتحقيق تنمية اقتصادية للمواطن العراقي ثم يفيض بجوده على دول شقيقة مجاورة وبعيدة؟ أسئلة كثيرة تهامست بها النخب البغدادية في مجالسها المغلقة بعيدا عن ملحمية شعارات العروبة والقومية التي ردّدتها وسائل إعلامنا الرسمي.

تدفقت الوفود على العاصمة المنتصرة حديثا للاحتفال بإطلاق المشروع المثير للجدل، كنت لا أزال طالبا في الجامعة عندما تم إبلاغنا بإلزامية المشاركة في المهرجان الضخم الذي سيقام في ساحة الاحتفالات في حضور الرئيس وضيوفه من الملوك والرؤساء وممثلي البعثات الدبلوماسية، العربية منها والأجنبية... لم يكن دوامنا قد انتظم بعد بسبب كثرة المناسبات والمسيرات والاحتفالات التي تلت إعلان وقف

إطلاق النار، لكن التوجيهات التي صدرت لنا بالتجمّع في الزمان والمكان المحددين بدت أكثر جدية وصرامة من كل ما سبقها، رافقها تلويح بعقوبات ستطال المُتخلّفين عن الحضور من الذكور والإناث قد تصل إلى حد الفصل من الدراسة وإخضاع الغائبين للاستجواب والمساءلة الأمنية، وهي عواقب لم نكن نقوى على احتمالها.

في صباح يوم المهرجان وقبل صعودنا إلى الباصات التي جاءت كي تقلنا إلى ساحة الاحتفالات، علا فجأة صراخ أستاذ مادة الثقافة القومية الذي راح يجرّ رفيقا لنا من ياقته عندما حاول الأخير التسلل لواذا بعد أن أثبت حضوره ويكيل له أقذع الشتائم على مسمع ومرأى الزملاء والزميلات قبل أن يقذف به إلى داخل الباص... لا أزال أتذكر ذلك الأستاذ فقد كان يحمل اسما غير مألوف بين الرجال هو "سعاد" وكان يعاني من اضطراب جلي في السلوك، فتارة يحتد غضبا علينا في وسط المحاضرة وتارة أخرى يقوم بممازحتنا بأسلوب سمج مثير للاشمئزاز.

مادة "الثقافة القومية" التي درّسها لنا الأستاذ سعاد كانت تتمحور حول أيديولوجيات حزب البعث الاشتراكي وتاريخ نشأته، لكنها كثيرا ما كانت تجنح إلى تمجيد الرئيس والتركيز على خطاباته وسير معاركنا مع إيران... تسطيرنا لمقولات القائد على ورقة الامتحان ملحوقة بلقبه كبطل للقادسية الثانية كان كفيلا بإحرازنا النجاح الباهر فيه بصرف النظر عن ماهية السؤال المطروح، الرسوب في "الثقافة القومية" لم يكن واردا ولا مسموحا به من الأصل.

جلس زميلنا المُعنّف صامتا بيننا بعينين دامعتين وقد اصطبغت وجنتاه ورقبته باللون الأحمر القاني وتجعّدت ياقة قميصه فيما راح الأستاذ سعاد الذي بلغ رتبة متقدمة في صفوف الحزب يوجه لنا نظرات توعدّت كل من تسوّل له نفسه تكرار المحاولة بالعقاب العسير، مضت بنا الباصات إلى الموقع المحدّد الذي لم يكن بعيدا عن أبنية جامعتنا في حي الجادرية، لكن الإجراءات الأمنية غير المسبوقة جعلت وصولنا إليه يستغرق وقتا طويلا جدا أمضيناه بتفحّص الطريق ومراقبة الثغرات المحتملة على امتداده كي نستغلها في الفرار... للأسف، عدد الرجال المنتشرين على الجانبين (مدجّجين بالأسلحة والهراوات وأجهزة اللاسلكي) كان كفيلا بإجهاض كل آمالنا بالهروب.

تم إيصالنا إلى بقعة بعيدة جدا عن منصة الرئاسة في ساحة الاحتفالات التي امتلأت عن آخرها بالجمهور من طلبة المدارس والجامعات وعدد كبير من رجال الأمن المُتنكّرين بملابس مدنية والذين راحوا يحثوننا على الهتاف عاليا بحياة القائد والتصفيق الحار فيما زعقت مكبرات الصوت الضخمة بأناشيد تخلّلتها خطب حماسية ألقاها المذيعون الذين أوكلت إليهم عرافة الحفل، لم يكن ممكنا من الموقع المخصص لنا أن نشاهد أيا من اللوحات التي أدتها مجاميع من الراقصين والراقصات على امتداد مضمار الاستعراض، اقتصر الدور المنوط بنا على تشكيل خلفية حاشدة وهادرة للمشهد الملحمي تثير إعجاب ضيوف القائد ووسائل الإعلام الأجنبية التي تغطي الحدث، خلفية شابة مختلفة عن جموع القرويين الذين كان يتم نقلهم عادة إلى المواقع التي يزورها الرئيس كي يظهروا على شاشة التلفزيون المحلية في نشرة الأخبار المسائية وهم يهزجون أمامه ومن حوله.

مضى الوقت ثقيلا ونحن محبوسون في العراء، نال التعب والجوع والعطش والضيق من أجسادنا فاستلقينا على الأرض بانتظار ساعة الإفراج عنا، حل الليل علينا فسطعت الأضواء الكاشفة للساحة وقامت شاشات ضخمة بعرض رقصات الفرق المشاركة بأزيائها المتلامعة مع لقطات مقربة لوجه الرئيس مبتسما، مزهوا وسط ضيوفه وملوّحا بيده للجماهير... كانت تلك المرة الأولى التي جمعني فيها مكان واحد مع صدام حسين رغم أن مئات عديدة من الأمتار كانت تفصل بيننا، تذكرت حلمي القديم عن لقائي بالرجل المخيف، سرت في جسدي قشعريرة اضطربت لها أوصاله المتعبة.

بعد مغامرات عديدة للهروب عن طريق منتزه الزوراء المحاذي أجهضها الحرس المحيطون بنا كإحاطة السوار بالمعصم وعصيهم التي انهالت بقسوة على أجساد المتسللين فأثخنتها جراحا وكدمات، توقفنا عن المحاولة وركنّا إلى السلامة... سيارة الإسعاف في الجوار عجزت عن علاج الأعداد المتزايدة من الفتيات اللاتي أصبن بالإغماء ونوبات من الفزع، تعالت أصواتهن المتوسلة بالحراس كي يسمحوا لهن بالعودة إلى أسرهن فوسائل الاتصال حينها لم تكن بالتطور التي هي عليه اليوم، لم تكن لدينا هواتف نقالة ولا حواسيب محمولة لطمأنة الآباء والأمهات الملتاعين قلقا، لكن جميع التوسلات ذهبت سدى فالتعليمات الصادرة كانت حاسمة ونصّت على ألّا يغادر الموقع أحد قبل أن تنتهي مراسيم الاحتفال تماما.

قبضة رجال الأمن من حولنا بدأت ترتخي قليلا قرابة الساعة التاسعة، لمحنا عددا من الزملاء وهم يلوذون بالفرار دون عقاب، شرعنا بالركض مثلهم نحو أقرب الثغرات فتساقط عنا العشب اليابس الذي التصق بملابسنا جراء رقودنا الطويل على الأرض... نجحنا في اختراق الطوق الحديدي أخيرا، لكن محنة أخرى كانت بانتظارنا فقد خلت الشوارع المحيطة بالموقع من السيارات ووسائل المواصلات بسبب الحصار الأمني المفروض منذ الصباح، أقرب الأحياء السكنية إلى ساحة الاحتفالات كان على مبعدة كيلومترات عدة، دارنا مثلا كانت تبعد أكثر من عشرين كيلومتر، فما العمل؟

الأولوية كانت لمساعدة زميلاتنا اللاتي وقفن مضطربات في مجموعات صغيرة بحثا عن سائق شهم يتطوّع لنقلهن إلى أقرب البيوت كي يقمن من هناك بالاتصال بذويهن، لوّحنا للسيارات الأولى التي سُمح لها بالمرور كي نقنع أصحابها بمد يد العون لنا، تعاطف معظمهم مع محنتنا بالفعل، لكن الأمر استغرق ساعات إضافية فأعدادنا كانت كبيرة جدا وعدد المركبات محدود بما في ذلك عربات النقل التي امتلأت أحواضها الخلفية بالفتيات المقرفصات الباكيات، صار علينا بعدها أن نتدبر أمر عودتنا، لم نجد حلا آخر سوى أن نقطع المسافات الطويلة مشيا على الأقدام رغم الإنهاك والجوع والعطش... عندما وصلت إلى بيتنا أخيرا كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل، خلعت حذائي فوجدت دما يسيل من قدميّ اللتين تورّمتا وتقرحتا، ألقيت بجسدي الموجوع على السرير وأنا أكيل الشتائم للرئيس ومجلس تعاونه اللعين.

عندما شاهدت وقائع الحفل التي أعادت بثها محطات التلفزة في اليوم التالي، كان أول ما لفت نظري أن اللقطات المتتابعة على الشاشة أمامي وزوايا تصويرها المنتقاة بعناية شديدة تجاهلت تماما معاناة الجموع في الخلفية، كل شيء بدا مبهجا، براقا، استوقفني أيضا مشهد الرئيس وهو يمسك بأيدي حسني مبارك والملك حسين وعلي عبد الله صالح ويرفعها عاليا في دلالة على متانة العلاقات الأخوية بين القادة الأربعة... اللحظة التاريخية التي وثّقتها أغلفة الصحف والمجلات انطبعت في ذهني واسترجعتها ذاكرتي مرارا عندما انفرط عقد المتحالفين بعد أقل من عام على انعقاده، بل أن البعض منهم انضم إلى صفوف حلف أجنبي أعلن الحرب على العراق.

أمضيت الأيام التالية حبيس البيت للتعافي من نزلة برد أصابتني وتفاقمت سريعا إلى التهاب حاد في جهازي التنفسي... لم أكن بطبيعة الحال الغائب الوحيد عن

الجامعة التي خلا حرمها من الطلبة بسبب المرض والإرهاق الجسدي والنفسي، لكن توقف الدوام وغياب الطلبة والأساتذة لم تكن أحداثا استثنائية خلال سنوات دراستنا، فعندما قرر الرئيس أن قصره الجمهوري المطل على نهر دجلة في حي كرادة مريم (شيد في أواخر العهد الملكي ولم يتسنّ للملك فيصل الثاني أن يقطنه بسبب الثورة التي أطاحت بعرش أسرته في عام ١٩٥٨) لم يعد لائقا بمكانته كزعيم عربي مهم وشخصية فاعلة على المسرح الدولي، تم الإعلان عن مسابقة عالمية لتصميم مقر جديد يفوق في حجمه وفخامته قصور جميع الممالك والدول المجاورة، تقدّمت العديد من المكاتب المعمارية المحلية والعالمية المرموقة بتصوّراتها عن المشروع، لكن أيا منها لم يرق لطموح الرئيس الذي كان يصبو إلى بناء قصر أبهى وأكثر عظمة من كل ما عُرِض عليه.

صدرت الأوامر لعشرات من أساتذة العمارة في جامعتي بغداد والتكنولوجية بالتهيؤ لرحلة يجوبون خلالها أبرز القصور في العالم بهدف توسيع آفاقهم والارتقاء بقابلياتهم التصميمية إلى مستوى تصوّرات القائد، المشكلة الأبرز كانت أن موعد الجولة قد تحدّد في منتصف العام الدراسي، الأمر الذي تسبب بخلو أروقة قسمنا من المحاضرين الذين أوكلت مهامهم إلى عدد من المعيدين الشباب... علت الفرحة وجوه أساتذتنا للمكرمة السخية التي ستتيح لهم زيارة مقرات الملوك والأباطرة في مصر وفرنسا واسبانيا وسواها من دول القارة العجوز مع الإقامة في أفخم فنادقها والعودة بجيوب معبأة بالعملة الصعبة التي تضاعفت قيمها مرات عديدة إبان الحرب، لكن لا مشكلة أبدا طالما أنها مشيئة القائد الذي ظهرت عليه أعراض شغف جديد.

بدأت محطتا التلفزة بنقل وقائع لقاءات الرئيس مع جموع من الأكاديميين من شتى التخصصات، علمية وإنسانية، كي يحاضر لهم (ولنا) عن نظرياته في الطب والفن والهندسة والتاريخ والمعاصرة، طروحاته كانت تقابل بالإشادة بعبقريته الفذة وسط دوي تصفيق حار من الحاضرين فأضافت وسائل الإعلام إلى ألقاب القائد الكثيرة لقبا جديدا هو "المهندس الأول" رغم حقيقة أن الرجل لم يكن حاصلا على شهادة جامعية من أي نوع... انسجاما مع ميوله الهندسية المستجدة، أوعز صدام حسين بسن تشريعات تُلزم كل من يروم الحصول على إجازة بناء بأن يقدم تصميما تكون فتحات النوافذ فيه على هيئة أقواس دون إدراج معايير موضوعية للمقاييس والاشتراطات التكوينية الأخرى للواجهات، تلك كانت بداية عصر من القسرية والسوقية تدهورت

خلاله قيم الذوق السليم وتعثر مسار الحركات والمدارس الفنية في العراق بعد أن كانت رائدة في محيطها العربي لعقود.

بين محاضرات الرئيس وزياراته الميدانية ومراسم تقليده الأوسمة والنياشين وخطبه الطويلة التي كان يبثها التلفزيون في المساء ثم يعيد عرضها مجتمعة خلال عطلة نهاية الأسبوع، بالكاد تبقى متسع للبرامج الأخرى من دراما ومنوعات ورياضة حتى شاعت نكتة بين العراقيين مفادها أن إعرابيا قد تعطّل جهاز التلفزيون في بيته فحمله إلى المُصلّح الذي طلب منه العودة بعد ساعة واحدة فقط لاستلامه... عندما فعل، تفاجئ الرجل بوجود صورة للرئيس ملصوقة على شاشة الجهاز المعطوب، سأل المُصلّح عنها، فقال له:

" تلفزيونك جاهز الآن، هذه الصورة هي كل ما سيطالعك طيلة ساعات البث"

يقال (والعهدة على الراوي دائما) أن النكتة قد أعجبت الرئيس فألقاها على مسامع حضور أحد مجالسه وكتفاه يهتزان من شدة الضحك، لكن رد فعل المحيطين به اقتصر على الابتسام بتحفظ.

رغم الحضور الإعلامي المكثف للرئيس، كنا نادرا ما نشاهد زوجته معه، حتى المناسبات التي كان البروتوكول الرسمي يقتضي تواجدها فيها إلى جوار زوجها كانت ساجدة طلفاح تتغيّب عنها باستمرار، كذلك الأمر مع بناتها الثلاث رغد ورنا وحلا، والأخيرة هي أصغرهن سنا وأكثرهن شهرة فقد سمح والدها بظهورها معه في عدد من الصور عندما كانت طفلة وشاع بين الناس أنها الأقرب إلى قلب الرئيس من بين أبنائه الذكور والإناث حتى أن اسمها قد ورد في إحدى الأغنيات التي أدتها المطربة المعروفة مائدة نزهت بعنوان "حيّاك يا أبو حلا"... عقب ظهور تلك الأغنية وبثها المتكرر عبر وسائل الإعلام، ظهرت نكتة أخرى بأن رجلا من عصرنا قد راح في غيبوبة لم يفق منها إلا بعد مرور خمسين سنة، عندما أدار جهاز المذياع إلى جواره، انطلق منه ذات اللحن مع تعديل بسيط في الكلمات هو:

"حيّاك يا ابن حلا، يا ابن حلا، يا ابن حلا... يا بهجة الأيام!"

حس الدعابة، على ما يبدو، لم يرق للرئيس هذه المرة فلم يعرف عنه أنه قد روى تلك النكتة لأحد من زائريه، ليس بسبب غمزها من قناة استئثار عائلته بالسلطة لأجيال قادمة، ولكن ربما لأنه لم يكن ليتخيّل أحدا سواه على سدتها، الأمر الذي أكدته

حادثة رواها لوالدي مهندس صديق بأن الرئيس إبان إحدى زياراته لموقع بناء قصر جديد له، أبدى ملاحظة عن سلم ضخم من الرخام كان لا يزال تحت الإنشاء، قائلا:

"ينبغي أن تأخذوا في الحسبان أن سلالما كهذه ستكون متعبة لصدام حسين عندما يبلغ الثمانين من العمر"!

من هنا كانت المفاجأة... فذات ليلة عيد، طلعت علينا نشرة الأخبار بتقرير مصوّر عن زيارة الرئيس للمنطقة الشمالية برفقة عائلته، ظهرت فيه زوجته ساجدة وهي محاطة ببناتها والسرور والمرح يعلو وجوه الجميع بما في ذلك صدام الذي بدا مسترخيا ومستمتعا بنزهته الأسرية برفقة صهره وابن خاله ووزير دفاعه العتيد عدنان خير الله طلفاح، التقرير طال لساعات كالعادة فأغلقنا شاشة التلفزيون في ساعة متأخرة من الليل لنيل قسط من النوم والتهيؤ لطقوس اليوم التالي.

عندما أدرنا جهاز التلفزيون في الصباح، طالعتنا تلاوة لآيات من القران فأيقنا أن ثمّة خطبا جللا قد حلّ، بعد قليل، ظهر المذيع بوجه عبوس متجهم كي يعلن بصوت مُتهدّج وفاة وزير الدفاع أثر سقوط طائرته المروحية التي فقد طيارها السيطرة عليها في خضم عاصفة عاتية واجهتها في رحلة العودة إلى العاصمة... أُعلِن الحداد وبدأت الاستعدادات لمراسيم الجنازة المهيبة فعدنان خير الله كان ضابطا مرموقا، مؤهّلا أكاديميا على العكس من قائده وصهره، كما كان يتمتع بشعبية لافتة بين أفراد المؤسسة العسكرية إلى درجة أن البعض قد عزا صمود العراق أمام إيران خلال سنوات الحرب الطاحنة بينهما إلى حنكة وزير دفاعه حينها.

لم يمض وقت طويل قبل أن تبدأ خيوط نظرية المؤامرة في حياكة نسيج اتهم صدام حسين بتدبير مقتل ابن خاله فقد سبق له أن تخلّص من العديد من رفاق الدرب، لعل من أبرزهم ابن عشيرته الرئيس السابق أحمد حسن البكر الذي شاع بأنه قد أمر بدس السم له في مقر إقامته شبه الجبرية... هل دارت الدوائر على عدنان وحان وقت تصفيته هو الآخر؟ تساءل الكثيرون همسا.

مشى الرئيس برباطة جأش لافتة في جنازة وزيره الراحل ثم لوّح بيده للجثمان الملفوف بالعلم العراقي، نقل التلفزيون لنا في المساء مشاهدا من قرية العوجة ظهر فيها عدي وقصي صدام حسين منتحبين وهما يواريان جسد خالهما التراب... نقل البعض ممن حضروا الواقعة أن جدهما، خال الرئيس المُسن خير الله طلفاح الذي

عُرِف بسلاطة اللسان حتى أنه لم يكن يتردد في سب أخته وابنها في مجالسه الخاصة والعامة قد صرخ عند الدفن، متهما صدام بتدبير مقتل ابنه عدنان، لكننا بطبيعة الحال لم نشاهد أو نسمع أيا من ذلك في التقرير المصوّر الذي بثته قناتي التلفزة.

أقاويل أخرى ترددت بقوة عن الحادث زعمت بأن العلاقة بين عدنان وصدام قد ساءت قبل ذلك بشهور عندما اتخذ الأخير له زوجة ثانية كان قد التقاها خلال زيارته لإحدى المدارس، السيدة الحسناء التي راقت للرئيس كانت على ذمة رجل يعمل إداريا في الخطوط الجوية العراقية فصدرت الأوامر للزوج بتطليق أم أبنائه التي عُقِد قرآنها على صدام حسين وبقي الأمر سرا حتى تسرّبت الأخبار عنه... استشاطت ساجدة غضبا واصطف معها أخوها عدنان وابنها الأكبر عدي الذي عقد العزم على الثأر لكرامة والدته النازفة.

بعد مرور أقل من شهرين على إعلان وقف إطلاق النار بين العراق وإيران، وخلال حفل خاص أُقيم على شرف عقيلة الرئيس المصري سوزان مبارك التي كانت في زيارة للعراق حينها، عمّ الاضطراب وتعالت الصيحات معلنة إقدام عدي على قتل مرافق والده الأقرب وكاتم أسراره العاطفية كامل حنا ججو... ذكر شهود الواقعة أن ساجدة تركت ضيفتها وهي تولول فزعا من العقاب الذي سينزل لا محالة بابنها البكر جراء فعلته تلك.

صدر بيان رسمي يعلن إلقاء القبض على ابن الرئيس وإحالته إلى القضاء بتهمة القتل العمد، لم يكن صدام يلقي بالا في العادة إلى جرائم بكره، لكن القتيل هذه المرة كان من ذوي الحظوة لديه وأحد قلائل فقط كانوا موضع ثقته المطلقة حتى قيل أن ججو كان يتناول لقيمات من طعامه قبل تقديمه له للتأكد من خلوه من السم... أودع عدي السجن بانتظار صدور الحكم عليه، لكن والدته قامت بالتوسّط عند الملك حسين والرئيس مبارك كي يقنعا صدام بالعدول عن إعدام نجله، استجاب العاهل الأردني لمناشدة زوجة الرئيس سريعا وقاد طائرته الخاصة إلى بغداد لانجاز المهمة، وافق صدام على إصدار العفو عن عدي إكراما لضيفه الملكي فتنفست ساجدة طلفاح الصعداء.

تم إطلاق سراح عدي بعد أن تنازلت أسرة القتيل عن حقها فشدّ الرحال إلى سويسرا حيث أمضى هنالك شهورا مختفيا عن الأنظار وكان ظهوره في جنازة خاله

الأول له بعد ارتكاب جريمته... تردّد حينها أن الشرخ الذي أصاب علاقة عدي بأبيه قد استمر في الاتساع منذ ذلك اليوم فصار شقيقه قصي الأقل جموحا والأكثر دهاءً محل ثقة صدام فيما توارت ساجدة عن الأنظار بعد مقتل أخيها واقتصر ظهورها على مرات قليلة فقط بدت فيها متجهمة، عابسة، مرتدية الحجاب ومتخلية عن ولعها المعهود بالملابس المزركشة والمجوهرات ومساحيق التجميل الثقيلة، قيل أيضا أن علاقتها بزوجها قد فترت فانصرفت عنه إلى إدارة مشاريعها الزراعية واستثماراتها الأخرى.

تلك، على أية حال، لم تكن أولى الأزمات التي واجهتها العائلة الرئاسية فقد سبقها شقاق تسبب به تزويج صدام ابنتيه رغد ورنا لابني عمه الشابين الشقيقين حسين وصدام كامل المجيد رغم استياء واعتراض أخوته غير الأشقاء برزان ووطبان وسبعاوي على المصاهرة التي حدّت من نفوذهم ورفعت أسهم آل المجيد بدلا عنهم، خصوصا علي حسن المجيد الشهير بعلي "الكيمياوي" وهو لقب اكتسبه بعد حملات الإبادة التي شنها على القرى الكردية خلال سنوات الحرب مع إيران وراح ضحيتها الآلاف من المدنيين الأبرياء بفعل استخدام الأسلحة الكيمياوية المحرّمة دوليا... على الجانب الآخر، لم يكن عدي وقصي صدام حسين على وفاق مع صهريهما والمكانة التي بلغاها والصلاحيات الممتدة التي صارا يتمتعان بها.

أخبار الدسائس والتكتّلات ضمن العشيرة بدأت بالتسرّب تباعا فتناقلها العوام همسا وصارت حديث المجالس المغلقة بل قد يجوز القول أنها وسمت مرحلة ما بعد الحرب مع إيران قبل أن تحتل حادثة أخرى عناوين الصحف ونشرات الأخبار فقد أُلقي القبض على مراسل صحفي بريطاني مولود في إيران اسمه فرزاد بازوفت واتهم رسميا بالتجسس لحساب إسرائيل، هو وممرضة بريطانية كانت برفقته، صدر حكم الإدانة سريعا وتم إعدام المتهم خلال أيام، الأمر الذي تسبب بأزمة دبلوماسية كبيرة بين العراق والمملكة المتحدة والعديد من الدول الأخرى التي أدانت بربرية الحكم... اتضح لاحقا ان بازوفت كان يجري تحقيقا لجريدته عن انفجار ضخم وقع في إحدى منشآت التصنيع العسكري في ضواحي بغداد، أسفر عن مقتل العديد من العاملين فيها بالإضافة إلى خبراء مصريين زائرين.

رغم الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي كان يمر بها، مضى العراق قدما في مساعيه لتصنيع وتطوير أسلحته (التقليدية منها وغير التقليدية) وأنفق في سبيل ذلك

مبالغ هائلة، مستعينا بخبرات عربية وأجنبية، تردّدت أنباء عن مشروع ضخم لانجاز مدفع عملاق يبلغ مداه آلاف الكيلومترات، كان كفيلا بقلب موازين القوى في المنطقة... المعلومات المتسربة استنفرت القوى العظمى التي عزمت على فرملة وإجهاض الأحلام الجامحة لحاكم بغداد، ظهرت أولى بوادر المواجهة القادمة مع الغرب عندما قام صدام حسين في خطاب متلفز له بتهديد إسرائيل بحرقها بأسلحة الدمار الشامل لو أقدمت على مهاجمة العراق ومنشآته الاستراتيجية.

لم أكن قد بلغت حدا من النضج في تلك الفترة يؤهلني لقراءة المؤشرات وتحليل نتائجها وتبعاتها اللاحقة... الحدث الأبرز والأهم بالنسبة لي كان صدور قرار رفع الحظر عن السفر الذي أسفر عن تدفّق حشود غير مسبوقة من الراغبين بالحصول على وثائق جديدة على دائرة الجوازات العامة وبيع آلاف عديدة من تذاكر رحلات الخطوط الجوية العراقية وسواها من الشركات الناقلة استعدادا لموسم الاصطياف القادم، ابتهجنا أن طوق العزلة قد انكسر أخيرا وصار بإمكاننا أن نجوب العالم من جديد.

وقع اختياري على تايلاند كي تكون وجهتي القادمة، أمضيت الأسابيع التي تلت انتهاء سنتي الجامعية في الإعداد لرحلتي المنشودة لنا، غمرني شعور بالسعادة عندما حلّقت بنا الطائرة، متجهة نحو جنوب شرق آسيا، استغرقتني الخطط والأحلام بسفرات أخرى سأقوم بها في السنوات القادمة دون أن ألقي بالا إلى أزمة جديدة لاحت بوادرها في الأفق مع الكويت، جارتنا الشقيقة وداعمتنا في حربنا الضروس مع إيران... أقنعت نفسي أن الأمر لا يعدو كونه زوبعة في فنجان، لن يلبث صوت العقل أن يعلو وتعود العلاقات بين بلدينا إلى سابق عهدها من ود ووفاق.

الثاني من آب كان الموعد المقرر لرجوعي إلى بغداد التي وطأت أرض مطارها وسط اضطراب لافت لم أفقه له سببا... عدت إلى دارنا فاستقبلني والدي وهو يحمل جهاز راديو، أسود اللون (ماركة سوني) كان قد ابتاعه من لندن ولازمه طيلة سنوات الحرب مع إيران التي أمضاها متنقلا بين موجات الأثير، متابعا لنشرات الأخبار وتقارير المراسلين على محطات الإذاعة الأجنبية، الأكثر مهنية ومصداقية من نظيراتها العراقية والعربية كما ثبت للجميع بالتجربة.

... لكن الحرب قد وضعت أوزارها منذ عام، فما الذي جدّ الآن كي يعود أبي إلى التصاقه بجهازه العتيد؟

لم تطل حيرتي، صوت مذيع هيئة الإذاعة البريطانية بدا مضطربا وهو ينقل لنا خبرا كان وقعه كالصاعقة على الجميع:

قامت وحدات من الجيش العراقي في ساعة مبكرة من هذا الصباح باجتياح أراضي الكويت واحتلالها...

غزو الكويت

محافظة جديدة، قرع طبول حرب جديدة

شأننا شأن أهل الكويت، أفقدتنا صدمة اجتياح جيشنا للإمارة الصغيرة جنوبا توازننا وأصابتنا بالذهول، مثلهم مررنا بمراحل الإنكار والغضب ثم الانغماس في الحزن والمخاوف... كيف يمكن أن يحدث ما حدث ورفوف مكتبات بغداد تملأها أعداد صحف ومجلات كويتية صادرة قبل أسابيع قليلة فقط، ممجّدة لصدام حسين، حاملة لصوره على أغلفتها الصقيلة حتى يخيل لمن يراها من بعيد أنها إصدارات عراقية؟ ماذا عن أشعار سعاد الصباح التي تغنّت بعشق العراق وجيشه ونخيله؟ ماذا عن الأحضان المتبادلة بين الرئيس وأمير الكويت امتنانا لوقوف الشقيقة الصغرى معنا خلال سنوات الحرب مع إيران؟

ردّد البعض رواية عن ثري كويتي كان يصطاف في لندن عندما أبلغوه بنبأ الغزو، فردّ مستنكرا:

"هل جننتم؟ من ذا الذي يجرؤ على احتلال الكويت ورأس أبي عدي يشم الهواء؟"

فلما علم أن أبا عدي هو الغازي، سُقط في يده.

تواترت نشرات الأخبار، محمّلة بالتطورات اللاهثة... شاهدنا الرئيس على شاشة التلفزيون وهو يستقبل رجلا طويلا، نحيفا، يرتدي الزي الكويتي التقليدي، تم تقديمه لنا بصفته زعيم الضباط الثائرين على حكم آل الصباح، لكن سذاجة السيناريو المُقترح لم تنطل على أحد فأية مصادفة عجيبة أن تندلع الثورة بالتزامن مع تحشّد القوات العراقية على امتداد الحدود؟ ثم كيف يستقيم أن يطالب الثوّار بضم وطنهم إلى أراضي بلد آخر؟ لو كان ذلك فعل الثائرين، فماذا يكون فعل الخونة؟

صدرت البيانات المتلاحقة مبشرّة الشعبين الشقيقين بعودة "الفرع إلى الأصل" في إشارة إلى تبعية الكويت السابقة إلى البصرة، لكن العراق بولاياته الثلاث (الموصل وبغداد والبصرة) وقبل أن ترسم بريطانيا حدوده الحالية (المثيرة للجدل) غداة احتلالها له بعد الحرب العالمية الأولى كان هو الآخر تابعا للدولة العثمانية، فهل يبرر ذلك اجتياحه من قبل تركيا وضم أراضيه إليها؟ حجج ركيكة كتلك ما كانت لتقنع طفلا

غرّا، فكيف لها أن تقنع الرأي العام العالمي في نهايات القرن العشرين؟ ما الذي راهن عليه صدام حسين لتمرير فعلته دون تدخّل من القوى العظمى لحماية مصالحها في منطقة ملتهبة ذات ارث هائل من الصراعات والاحتقان السياسي؟ أية ضمانة حصل عليها جعلته يصدر أوامره بتحرك القطع العسكرية دون أن يشاور وزير دفاعه ورئيس أركان جيشه في عواقب قراره أو يحيطهم علما بما انتوى فعله على أقل تقدير؟

تناقلت وسائل الإعلام أنباء لقاء مريب كان قد تم بين الرئيس وسفيرة الولايات المتحدة الأمريكية في بغداد قبل فترة قصيرة من الغزو، زعم كثيرون أن السفيرة أعطت صدام خلاله الضوء الأخضر للمضي قدما في تنفيذ ما عقد العزم عليه، أو لعلها وعدته بعدم تدخّل بلادها عسكريا في النزاع بين الأشقاء... لكن كيف تنسجم روايات كتلك مع رد الفعل الغاضب الذي صدر سريعا عن الولايات المتحدة ومطالبتها النظام العراقي بسحب فوري وغير مشروط لقواته من أراضي الكويت؟ هل تم استدراج الرئيس لابتلاع طُعم سام أعده الغرب للتخلّص من رجله الأثير في الشرق الأوسط بعد أن انتفت الغاية من وجوده؟ هل صدام حسين طفل بريء كي يتم خداعه بتلك السهولة، أم أن هنالك صفقة خفية أُبرِمت بليل بين الطرفين؟ هل هي مجرد مناورة لتحقيق مكاسب معينة كإسقاط الديون وحل النزاع حول حقوق التنقيب عن النفط واستخراجه في المناطق الحدودية، ينسحب جيشنا بعدها من الكويت وتعود المياه إلى مجاريها؟ المؤشرات على الأرض كانت تدل على العكس من ذلك، لكن بصيص الأمل في قلوبنا بانتهاء الأزمة سريعا بقي يصارع هبوب رياح التصعيد الهوجاء.

تواترت الأنباء عن سقوط قتلى وجرحى بين صفوف المدنيين وتمكّن الأسرة الأميرية الكويتية (أو معظمها) من الهرب في اللحظة الأخيرة إلى السعودية حيث تم تشكيل حكومة منفى، أعلن العراق رسميا ضم الكويت له كمحافظة تاسعة عشر فصار لزاما على الجامعة العربية أن تتخذ موقفا واضحا تجاه الأزمة، خصوصا وأن شرارتها الأولى قد اندلعت خلال انعقاد جلسات القمة التي استضافتها بغداد قبل شهور قليلة فقط عندما وجه الرئيس اتهاما واضحا إلى الكويت بممارسة ضغوط اقتصادية عليه والتجاوز على ثروته النفطية، لكن كعادة الجامعة العربية وقممها المتعاقبة، انتهت الاجتماعات دون التوصل إلى حلول... قام صدام حسين بعدها بإيصال الأمير جابر الصباح إلى المطار ورد على الدعوة التي وجهها الأخير له بزيارة الكويت، قائلا:

"الكويت بيتنا وسنأتي إليها قريبا"

إرهاصات كتلك مرت دون أن تؤخذ على محمل الجد، حتى ما حدث في اجتماع جدة سيء الذكر، الذي دعت السعودية إليه بعد رصد حشود عسكرية عراقية قرب الحدود، وحضره ولي العهد الكويتي ونائب الرئيس العراقي لم يكن مؤشرا كافيا لاستشراف ما سيقدم عليه صدام حسين في الأيام القليلة التالية... لا نعلم الكثير عن طبيعة الحوار الذي دار بين الأشقاء خلال جلسات اللقاء العاصف باستثناء ما قامت الكوادر الحزبية بتروّيجه بعد الغزو عن إهانة ممثل الكويت للرفيق عزت الدوري بقوله:

"كفاكم كبرا وتبجّحا، فبأموالنا نعاشر ما نشاء من نسائكم الماجدات!"

القمة العربية الطارئة التي عُقِدت في القاهرة بعد قرابة أسبوع من غزو الكويت سادها كثير من الصخب وتبادل الشتائم وحتى الضرب بين الوفود التي انقسمت بين معارض صريح للغزو ومتحفظ عليه ومؤيد له (ضمنيا)... على الرغم من ذلك، أدان القرار النهائي الصادر عن القمة العراق بشكل واضح ورفض الاعتراف بشرعية احتلاله، الأمر الذي مهّد لانتقال الصراع من محافل السياسة إلى الأرض حيث بدأ حشد دولي بقيادة الولايات المتحدة لتشكيل تحالف عسكري بهدف لإجبار الجيش العراقي على الانسحاب.

انضمام سوريا إلى التكتل الجديد لم يكن مستغربا فالعداء بين النظامين البعثيين الجارين قديم حتى أن حافظ الأسد ومعمر القذافي كانا الزعيمين العربيين الوحيدين الذين مدا يد العون لإيران خلال حربها معنا، المثير للدهشة كان انتقال حسني مبارك إلى معسكر المناوئين لصدام وهو الذي كان حليفه الأثير بالأمس وشريكه في مجلس التعاون العربي الذي تهاوت دعائمه بين ليلة وضحاها... سارعت وسائل إعلامنا بإطلاق لقب "الخفيف" على الرئيس المصري الذي صار مادة شبه يومية لرسوم الكاريكاتير ومقالات الصحفيين المليئة بعبارات السباب، الهجوم ما لبث أن امتد ليشمل دول الخليج وعلى رأسها السعودية التي رفع الرئيس راية تحرير أراضيها من دنس القوات الأجنبية المتوافدة عليها والإطاحة بحكم العائلة المالكة فيها هي الأخرى.

واجه صدام حسين الضغوط العربية والدولية المتزايدة عليه بصلف وعناد فقام بتنصيب أفراد من عشيرته لتسيير أمور "المحافظة الجديدة" أو بعبارة أصح، لتنظيم

واحدة من أكبر عمليات النهب في القرن العشرين، تم تقسيم الغنائم الكبيرة في مرحلة مبكرة بين أبناء الرئيس والمُقرّبين منه ثم أعطي الضوء الأخضر لكوادر الحزب وضباط القوات المسلحة بالاستحواذ على ما تبقى من الفتات... الأسلحة، مقتنيات المتاحف والمختبرات، تجهيزات الجامعات والمستشفيات وسائر الوزارات، رفوف الأسواق وأثاث المنازل، السيارات، حلي النساء والعطور والملابس ولعب الأطفال، الأجهزة الكهربائية وشرائط الأفلام والمسلسلات والأغاني والمناسبات الشخصية، كلها تم الاستيلاء عليها ونقلها إلى مدننا التي شهدت أسواقها وفرة وتنوعا لم تعهدهما منذ عقود.

أسرتي كانت واحدة من آلاف الأسر التي أخذت عهدا على نفسها في البداية بمقاطعة البضائع القادمة من الكويت، رغم إغراء المعروضات وانخفاض أسعارها، اقتصر شراؤنا على المنتجات المحلية أو تلك التي استوردتها الدولة قبل الغزو، لم يكن مقبولا أخلاقيا ولا إنسانيا أن ندخل أجوافنا طعاما أو شرابا مسروقا من بيوت ومحلات آمنة، خصوصا وأن الإذاعات الدولية كانت تبث علينا في كل مساء رسائل صوتية للكويتيين الذي اضطروا للفرار من بلدهم مع نشيج حار لفراق أحبة لهم سقطوا تحت نيران رشاشات الغزاة من بني جلدتنا... فقرة الخزي المسائية تلك كانت تستدر الدموع الغزيرة من مآقي كثر من العراقيين الذين خبروا وجع الظلم والفقد، بالتحديد الأمهات اللاتي فجعن بأبنائهن خلال سنوات الحرب، لكن ذلك لم يكن حال الجميع فقد انغمس آلاف آخرون في وحول السرقة حتى قمم رؤوسهم وأثروا من ورائها ثراءً فاحشا.

ذات مساء، وبينما كنت أتمشى على ضفة دجلة متكدّرا بعد سماع نشرات الأخبار التي توعّدتنا بحرب عاصفة لا تبقي ولا تذر، لفت نظري مشهد أسرة متعددة الأجيال، اتخذ الجد والجدة من العشب الأخضر سجادة صلاة فيما راح الأبناء يتجاذبون أطراف الحديث وهم يحتسون أكواب الشاي الساخنة ويرقبون أطفالهم اللاعبين بجذل تحت ظلال الأشجار الوارفة... خطر لي أن أرتاح قليلا على إحدى المصاطب المجاورة عندما تناهت إلى مسمعي حوارات الرجال عن غنائم عادوا بها للتو من الكويت وفرص بيعها لتجّار العاصمة، صدمني أن ذات الأشخاص الذين تعالت أصواتهم تطلب الدعاء من الوالد والوالدة بعد انتهائهما من أداء الصلاة قد أكملوا حديثهم بلا حياء أو خجل عن اقتسام مقتنيات شخصية منهوبة من مخادع أناس أبرياء.

في مشهد مماثل وبينما كنت في زيارة لصديق طفولتي في بيته، تسلّل إلينا حديث هاتفي لقريب له كان يتصل بأحد السماسرة في الخارج، مفاوضا إياه على بيع مقتنيات ثمينة سرقها من قصور أثرياء الكويت لأحدى دور المزادات الأوروبية... لم تكن صدمتي كبيرة هذه المرة فالمتحدث كان سيء السمعة وعلى صلة وثيقة بجهاز المخابرات.

ما حدث في الكويت لم يكن سابقة في تاريخنا المعاصر، وجدت نموذجا مشابها له في الكتب التي لذت بصفحاتها هربا من جنون الأحداث، قرأت عن "الفرهود" الذي استباح به الدهماء ممتلكات اليهود ودورهم ودماءهم وأعراضهم في مطلع الأربعينيات، ذكّرتني وقائعه المريعة بإقدام صدام حسين على طرد آلاف العراقيين الذين حمل أجدادهم في العصور الغابرة وثيقة تبعية لإيران (بغرض التهرّب من السوق إلى "السفر بر" أو القتال في حروب الدولة العثمانية) ورميهم على الحدود في بداية الثمانينات ومصادرة أملاكهم التي تم اقتسامها بين كبار المسئولين في الحزب والدولة... استرجعت ما رواه لنا والدي يوما عن أحد مرضاه من الضباط الذي عرض عليه سجادة عجمية نفيسة، فلما استغرب أبي السعر الزهيد المطلوب لتحفة مثل تلك، أقر البائع أن في السجادة ثقبا صغيرا أحاطته بقعة داكنة من دماء صاحبها الذي تمت تصفيته عندما اجتاحت قواتنا إحدى القرى الحدودية في بداية الحرب، كان ذلك كفيلا بإحجام والدي عن الشراء.

القضية، هذه المرة، كانت مختلفة، ليس فقط لأن المنهوبين لم يكونوا مختلفين عنا عرقا أو ديانة كاليهود والفرس والأكراد، ولكن لأن السرقة تمت على نطاق واسع تحت مظلة الدولة ودعمها في خطوة خطيرة شرّعت للفعل الدنيء وجعلته مستساغا في الوعي والسلوك الجمعي للعراقيين، لم يعد السلب جرما يعاقب عليه القانون بل بدا كحفل ضخم كانت الدعوة للمشاركة فيه عامة للجميع... لكن، عن أي قانون ومنطق أتحدث وكل ما كان يدور من حولي ماثل في ديستوبيته أحداث رواية جورج أورويل الشهيرة "١٩٨٤".

في تطور لاحق، صدرت الأوامر بمنع الأجانب المتواجدين في العراق من مغادرته، تم جمعهم في مبان خاصة بغية الضغط على المجتمع الدولي الذي مضى

يستعد بخطى حثيثة للقيام بعمل عسكري ضدنا، أثار القرار ضجة عالمية لمخالفته القيم والأعراف وعُدّ استخداما شنيعا للمدنيين كدروع بشرية، لكن الرئيس كان يحبذ استخدام مفردة "الاستضافة" لتوصيف الموقف الفريد من نوعه... عندما سمعت بالخبر، تذكّرت على الفور خبيرا ألماني الجنسية، جلس إلى جواري على متن الطائرة التي عادت بنا من بانكوك، كان سيمضي أياما قليلة في بغداد للإشراف على سير الإنتاج في مصنع للمشروبات الغازية، باح لي قبل أن تحط الطائرة بنا أن كثرة أسفاره تجعله دائم الاشتياق لعائلته، توّاقا للعودة إليهم.

أتراه يمكث الآن ضمن جموع المحتجزين أم أن الحظ قد حالفه بالفرار قبل صدور قرار الرئيس؟ أصابني الضيق عند مشاهدة الخوف البادي على وجوه الرهائن في التقرير الذي بثه التلفزيون عنهم في المساء.

أزمة المحتجزين جعلت أنظار العالم وأجهزة إعلامه على اختلاف مشاربها تتوجه نحونا فيما تسابق المحاورون على الظفر بمقابلة مع الرئيس العراقي الذي أطل على الجمهور مزهوا، مرتديا أطقما فاخرة، زينتها ربطات عنق ومناديل حريرية بتوقيع أشهر دور الأزياء الفرنسية والايطالية... ملايين من المشاهدين في شتى أرجاء المعمورة تابعوا الحوارات المتلفزة مع حاكم بغداد الذي أمسى معروفا للجميع، حيثما أدرت مؤشر مذياعي في الليل، على كافة الموجات وبمختلف اللغات، سمعت الاسم العتيد يُذكر المرة تلو الأخرى.

صدام، صدام، صدام...

الضجة المثارة حول الرئيس والشهرة العالمية التي أصابها في أيام قليلة منحته نشوة غامرة كان من السهل ملاحظة آثارها على ملامح وجهه ولغة جسده في لقاءاته التي لم تقتصر على الإعلاميين، بل امتدت لتشمل سياسيين وفنانين ورياضيين، كان من أبرزهم الملاكم المعروف محمد علي كلاي الذي اجتمع بصدام حسين والتقط الصور التذكارية معه ثم عاد إلى بلده برفقة عدد من الرهائن الأمريكيين أُطلق سراحهم إكراما له... على الشاشة، بدا الرئيس واثقا من نفسه، مزهوا بوضعه كند للقوة العظمى الوحيدة في العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ومقتنعا بأن الولايات المتحدة والغرب لن يلبثا أن يعيدا حساباتهما ويرضخا للأمر الواقع، خصوصا وأن

العراق قد لوّح باستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد إسرائيل واستهداف منابع النفط في الخليج.

كانت تلك لحظة فارقة أمضى صدام حسين عمرا وهو يحلم بها ويخطط لها، فلما تحقّقت أخيرا كان من الطبيعي أن يعب من رحيقها عبّا رغم مصير مخيف توعّد جيشه وشعبه بالويل والثبور مع تدفق آلاف من المقاتلين على المنطقة، مجهّزين بالخفيف والثقيل من الأسلحة الحديثة الفتّاكة ضمن حملة التحالف الذي زاد عدد الدول المنضوية تحت لوائه على ثلاثين.

تفتقت أذهان رعاة السيرك الإعلامي المنصوب عن فكرة جديدة تضمّنت قيام الرئيس الأمريكي بتوجيه رسالة متلفزة إلى الشعب العراقي، تليها مباشرة رسالة مماثلة يوجهها صدام حسين إلى الأمة الأمريكية في استيحاء لأجواء الحملات الانتخابية في الولايات المتحدة ومناظراتها الشهيرة... كما كان متوقعا، جاءت كلمة جورج بوش (الأب) ممهورة بختم هوليوودي واضح، استهلها بإخراج قصاصة ورق من جيبه، حملت ترجمة لفقرات بعينها من ميثاق الدفاع العربي المشترك الذي كان العراق من أشد المتحمسين له وأول الموقعين عليه، وراح يتلو علينا السطور التي شدّدت على ضرورة وقوف الدول العربية بالمرصاد لأي بلد ينتهك سيادة وحدود بلد عربي آخر.

ختم الرئيس الأمريكي خطابه (القصير نسبيا) بدعوة العراق إلى سحب قواته بلا قيد أو شرط من أراضي الكويت وحان دور صدام حسين كي يقنع العالم بعدالة قضيته في خطابه الذي ردّدت صداه مكبرات الصوت في ميادين بغداد والمحافظات وجاء مترهلا ومراوغا، مزركشا بالتزويق اللفظي واسترجاعات لشخوص وأحداث من التاريخ السحيق كحمورابي ونبوخذ نصر البابليين، مرورا برموز الفتوحات الإسلامية كسعد بن أبي وقاص والمثنى والقعقاع، دون إغفال ذكر محرر القدس صلاح الدين الأيوبي، الأمر الذي ترك أثرا سلبيا على المشاهد الأمريكي غير المعني بتاريخ العراق والشرق الأوسط فيما حارت وسائل الإعلام الأجنبية في فك طلاسم الخطبة الطويلة التي قرأ صدام نصها بصوت رتيب، أحادي النغمة... أمر واحد بدا جليا للجميع، أن الرئيس العراقي قد عقد العزم على الاحتفاظ بالكويت.

تم استدعاء وجبات من المواليد لأداء خدمة الاحتياط بعد مضي شهور قليلة فقط على تسريحها عقب انتهاء الحرب مع إيران، علت الكآبة والوجوم الوجوه

وترقرقت الدموع من جديد في عيون الزوجات والأمهات والآباء والأبناء... لو كان القتال مع إيران مُبرّرا بالوقوف سدا أمام مطامع الفرس في البوابة الشرقية للأمة العربية ومنع محاولات تصدير ثورتهم الظلامية إلينا، فغزونا لجيراننا من العرب كان اعتداءً صريحا لا يمكن بأي حال من الأحوال إيجاد مسوّغ أخلاقي له، كما أن الزج بجيشنا المتعب في مواجهة مع حشد عسكري دولي هائل القدرات كان أقرب إلى فعل انتحار جماعي، محض جنون!

تجاهلت وسائل إعلامنا هموم وتساؤلات وغضب الشارع ومضت في نهجها التطبيلي المعتاد للقيادة فصار مقرّرا علينا في كل مساء أن نشاهد برنامجا ساخرا هزيلا على شاشة التلفزيون، توسط مقدمه حلقة من الجنود مع خلفية من مياه الخليج، استهلت حلقاته بفقرة استهزاء بأهل الكويت الذين فروا من مواجهة جيشنا الباسل مع التأكيد بأن الجنود الأمريكان، القادمين من وراء المحيطات، مجهزين بخزين من أصابع الشوكولاتة ومرطبات البشرة، سيرون الويل عندما يتصدى لهم جندينا الهمام، المتمرس بالقتال على الأرض والذي تفوح من ملابسه رائحة العرق المختلط ببقع دماء لم تجف بعد فيمزقهم بأسنانه شر ممزق، الحلقة كانت تنتهي في كل مرة بأهازيج ورقصات النصر المرتقب في طقوس شبه وثنية على وقع زغاريد من طلقات البنادق... تلك كانت الاستراتيجية المطروحة لمواجهة أكبر حشد عسكري عرفه العالم منذ الحرب العالمية الثانية!

بعيدا عن تهريج الإعلام الرسمي وترهاته، مضت بنا الأيام والأسابيع ونحن مذبذبين بين التصديق والإنكار وإن كان الأخير خيار أسهل وأكثر راحة للنفس... كنا نحدث بعضنا البعض بأن فتيل الأزمة، كما في أفلام التشويق، سيتم نزعه في اللحظة الأخيرة، فيعلن الرئيس الانسحاب وينتهي بذلك الكابوس المقيت الذي كنا نعيش تحته.

... لكن مهلا!

ماذا لو وقعت الحرب بالفعل؟ ماذا لو لجأ صدام حسين إلى استخدام أسلحته السرية التي هدّد الغرب بها؟ ماذا لو جاء الرد بتوجيه ضربة نووية لنا تمحقنا محقا؟هل هي النهاية؟ هل نجونا من سعير الحرب مع إيران كي تهلكنا حرب أخرى، أشد وطأة وأكثر فتكا من سابقتها؟

أي استعدادات يتعين علينا القيام بها لمواجهة مثل ذلك الاحتمال المريع؟

قتالنا السابق مع إيران اندلع فجأة، لم نستعد له بشيء، كنا نتعاطى مع تطوراته وتداعياته يوما بيوم حتى انتهى كما ابتدأ، على حين غرة، كل ما تعلمناه من تجربة السنوات الماضية كان أن الزجاج المتطاير بفعل الانفجار القريب والعصف الناتج عنه لا يقل خطورة عن الاستهداف المباشر بالصواريخ وقذائف الطائرات... قمنا بلصق عشرات الأمتار من شرائط الإسعافات الأولية السمراء على النوافذ كي تمنع تشظيها، ابتعنا كل ما استطعنا العثور عليه من المواد التموينية، طرية وجافة ومعلبة، قمنا برصّها في الثلاجات والمجمدات وعلى سطوح الأرفف، أصرت والدتي على تخزين المياه أيضا فاشترينا أحواضا بلاستيكية ملأناها بالماء وكذلك قدور الطبخ الكبيرة حتى لم يتبق عندنا وعاء فارغ، سألت أمي مداعبا ان كانت ترى أن نملأ أفواهنا بالماء أيضا تحسبا للظرف الطارئ، لم تلق مزحتي استجابة فالجميع كانوا مشغولين بإعداد قوائم المهام التي تحتم انجازها قبل انتهاء المهلة الممنوحة للعراق للانسحاب في الخامس عشر من كانون الثاني.

كنا على مشارف امتحانات نصف السنة في الجامعة، لم نعد قادرين على المذاكرة في ظل جو متوتر ومشحون فكنا نمضي ساعات الدوام الطويلة مازحين وعابثين تارة، مضطربين وواجمين تارات أخرى كثيرة حتى أُعلن عن اجتماع بين طارق عزيز وجيمس بيكر في جنيف أُطلق عليه "لقاء الفرصة الأخيرة" أحيا الأمل في نفوسنا بالتوصل إلى حل ما... توجهت أنظار العالم وأسماعه نحو سويسرا، الترقّب لم يدم طويلا فسرعان ما خرج الرجلان ليعلنا فشل محادثاتهما حيث رفض عزيز الذي حضر برفقة برزان التكريتي (الأخ غير الشقيق للرئيس) استلام رسالة موجهة من الرئيس الأمريكي لصدام حسين بزعم عدم استيفائها لشروط لياقة المخاطبات بين الرؤساء، قيل أن وزير خارجيتنا أعاد الرسالة إلى نظيره الأمريكي بيد مرتجفة بعد أن اطلع على مضمونها الذي تم تسريبه إلى وسائل الإعلام وتضمّن إشارة صريحة إلى عزم الولايات المتحدة ودول التحالف على اللجوء إلى القوة وتسخير كل إمكاناتها لإخراج الجيش العراقي من الكويت، بما في ذلك استخدام أسلحة شديدة التطور من شأنها أن تلحق بالعراق وقواته العسكرية وبنيته التحتية دمارا غير مسبوق.

حسمت العديد من الأسر أمرها بالرحيل إلى القرى المحيطة بالعاصمة تحسُّبا لهجوم يستهدف بغداد ومنشآتها العسكرية والمدنية، عاد إلى الأذهان حدث تلا انتهاء الحرب مع إيران بشهور قليلة عندما أُعلن عن إجراء تجربة إخلاء لأحياء بغداد

استعدادا لهجوم افتراضي بأسلحة الدمار الشامل... دار كثير من اللغط بين الناس وقتها بسبب القرار الغريب المفاجئ، زعم مُنظّرو المؤامرة أن الدولة ستقوم بزرع أجهزة تنصت وكاميرات مراقبة في بيوت المواطنين خلال غيابهم عنها، تجاهلت الغالبية العظمى من سكان العاصمة تعليمات الإخلاء وبقيت داخل دورها بعد التأكد من إيصاد الأبواب الخارجية بإحكام ريثما انتهت الفترة المخصصة للتجربة.

كيف لم يخطر على بالنا أن الرئيس كان يستعد لحرب جديدة؟ هل حزم أمره بغزو الكويت منذ ذلك الوقت؟

... أسئلة كثيرة دارت في أذهاننا، لم (وربما لن) نعثر على إجابات شافية لها.

حبس الجميع أنفاسهم عند حلول الموعد المحدد، لكنهم عادوا وتنفسوا الصعداء بعد أن مضى اليوم دون حدوث شيء رغم استمرار وسائل الإعلام العربية والأجنبية برصد ونقل مظاهر الاستعداد لهجوم وشيك في القواعد العسكرية المجاورة... راح المتفائلون يردّدون مزاعمهم المعهودة، أقسم البعض منهم أن لا شيء سيحدث على الإطلاق وارتفع مؤشر الأمل قليلا بعد أن شارف على الحضيض.

كان علينا أن نقدم مشاريعنا الجامعية النهائية لمادة التصميم الداخلي صبيحة يوم السابع عشر، الساعات القليلة المتبقية كانت بالكاد تكفي لانجاز الرسومات والخرائط المطلوبة منا... انكببت على طاولة الرسم الهندسي في غرفتي محاولا أن أضع شيئا على الورق الأبيض المفرود أمامي بينما علا صوت مذيع محطة مونتي كارلو، ناقلا آخر تطورات الموقف، مؤكدا سماعه زمجرة الطائرات المتأهبة للانطلاق في مهمتها المريعة.

رن جرس الهاتف، جاءني صوت زميلي مقهقها، محاولا أن يخفي اضطرابه بالسخرية من الجنون الدائر من حولنا.

"ماذا سنفعل؟ هل نستمر في الرسم، أم ننصرف عنه لمتابعة ما يحدث وترقّب ما قد يحدث؟"

وجدنا ضالتنا في الموسيقى الكلاسيكية التي جمع بيننا شغفنا بها، تحدثنا عن أوبرا "مدام بترفلاي" للايطالي بوتشيني التي كان قد تم استيحاؤها حديثا في عمل غنائي مسرحي هو "مس سايغون" حيث تقع فتاة فيتنامية في غرام مجند أمريكي وتحمل منه قبل أن يفترقا ثم تنتحر عندما تكتشف أن حبيبها الذي أمضت السنوات

بانتظار عودته قد تزوج من امرأة سواها... سخرنا من ميلودرامية القصة وكل منا يسترق السمع لصوت المذياع الهادر في بيت الآخر عبر الهاتف.

هل ستعرض خشبات المسارح الموسيقية في برودواي والويست أند يوما ما عملا بعنوان "مس بغداد" يستوحي مأساة الناس في بلدنا؟

تساءلنا إن كنا سنلتقي مجددا...

هل سنبقى أحياء حتى صباح اليوم التالي؟

وهبّت عاصفة الصحراء...

قفزت لسماع الدوي المفاجئ، حبست أنفاسي ترقّبا قبل أن يتضح لي بأن مصدر الصوت كان شاحنة مسرعة مرّت فوق إحدى المطبات الإسفلتية في الشارع القريب... عقارب الساعة كانت تشير إلى ما بعد منتصف الليل بقليل، أقنعت نفسي بأن لا شيء سيحدث فها قد مضى يوم آخر بسلام، من الأجدر بي أن أسرع بإكمال رسوم مشروعي الجامعي فلم يبق على موعد التقديم سوى ساعات قليلة.

مضيت إلى كومة الأشرطة الموسيقية على الرف واخترت أحدها كي يساعدني على التركيز أثناء عملي وطرد النعاس، قبل أن أكبس زر التشغيل بلحظات سمعت أصواتٌ مألوفة من بعيد، لم تكن شاحنات مارة في الشارع هذه المرة بل انفجارات علا صوتها شيئا فشيئا وازداد قوة وقربا قبل أن ينطلق من صفارات الإنذار نعيق كئيب.

... ما العمل، والى أين المهرب؟

تساءلت فزعا، فمهاجمونا اليوم ليسوا مثل إيران، هم جمع من أقوى جيوش العالم، عتادهم أحدث وأعتى ما وصلت إليه تقنيات صناعة الدمار على وجه الأرض.

... ما التالي؟ هل سيسقطون علينا قنابل ذرية كتلك التي دكّت هيروشيما وناغازاكي وأجبرت اليابان على الاستسلام في الحرب العالمية الثانية، أم سيستخدمون أسلحة أشد تطورا وفتكا؟ هل كبس صدام زر إطلاق صواريخه التي هدد باستخدامها؟ هل أحرق نصف إسرائيل كما توعّد؟ هل هي الحرب العالمية الثالثة؟

بين لحظة وأخرى كنت أتوقع الاحتراق بفعل عصف القنبلة التي ستهوي على بغداد فترتفع في سمائها كرة هائلة مضيئة يخيل لمن يشاهدها من بعيد أنها حبة فطر عملاقة من لهيب ودخان، أو أن تفوح في الجو رائحة نفاذة بسبب استخدام الأسلحة الكيميائية.

... كم تبقى من الوقت قبل أن أفقد كياني المادي فأصير روحا، شبحا؟

في مطلع العشرين من العمر، في الساعات الأول من عامي الثالث والعشرين تحديدا (قررت قوات التحالف أن تشن هجومها علينا في ذكرى يوم ميلادي!) كنت رجلا ذا ذقن قصير مهمل، يجلس صامتا بجسد يرتعد بردا وخوفا وهو يبتهل إ

السماء في سره بأن تمن عليه بميتة غير مؤلمة... شبكت كفيّ وقمت بتثبيتهما بين ركبتي كي أبدو أكثر تماسكا أمام عائلتي رغم حقيقة أن لا أحد كان يرى شيئا في الظلمة حيث تجمّعنا، علا صوت بكاء ابنة أختي الرضيعة التي أفزعها دوي الانفجارات، الضغط النفسي المتراكم خلال الأيام والأسابيع والشهور الماضية بلغ مداه ولم يعد من الممكن إخفاؤه، ضمّت شقيقتي طفلتها إلى صدرها بقوة وهي تردّد بما شابه الهذيان:

"حرام، والله حرام، والله حرام!"

تسللت الضوضاء من مذياع أبي العتيد، وددت لو أني حطمت الجهاز اللعين الذي لم ينقطع عن بث الأخبار المشئومة منذ شرائنا إياه... الرئيس الأمريكي (جورج بوش الأب) كان يخطب معلنا بدء العمليات العسكرية لتحرير الكويت من قبضة صدام حسين، حرّك والدي المؤشر بحثا عن بث إذاعة العراق علّنا نفهم ما الذي سيحدث لنا وكيف ستتطوّر الأحداث كأن زمجرة زجاج النوافذ ووميضات الانفجارات البعيدة والقريبة التي أضاءت الغرفة رغم إسدال الستائر لم تكن مؤشرات كافية.

تردّد صوت الرئيس مرتبكا وهو يلقي خطابا بشّر فيه الشعب بالنصر المبين ودحر قوات المعتدي... النصوص المعدّة مسبقا، المكتوبة بالفصحى، كانت عقبة وتحديا لقدرات صدام حسين اللغوية طالما فشل في اجتيازه، لا أحد من المحيطين بالرئيس جرؤ على إبلاغه بضعف أدائه الذي استوى فيه الاستفهام والتقرير، أو لفت انتباهه إلى ضرورة تعديل طريقة لفظه الحروف والكلمات التي كانت تخرج من فيه (وأنفه) مدغمة غير مفهومة بعكس خطبه المرتجلة باللهجة المحلية التي كانت أكثر بيانا وأوضح عند المُتلقّين.

سماع هراء الرئيس المعهود عبر الأثير كان مؤشرا لعدم إقدامه (بعد) على فعل جنوني لا تحمد عواقبه، الأمر الذي أشعرنا بشيء من الطمأنينة كنا بأمس الحاجة إليها، مضى والدي في استطلاعه تحليلات الخبراء والمعلقين التي انقسمت واختلفت باختلاف ولاءاتهم... أكد البعض أن الحرب لن تتوقف حتى تطيح بحكم صدام حسين وأن الغارات الجوية سيتبعها حتما هجوم بري كاسح لن يكتفي بإخراج الجيش العراقي من الكويت بل سيمتد إلى بغداد وسائر أنحاء العراق وقد يسفر عن إعادة رسم حدوده من جديد، المواجهة على الأرض كانت ما راهن عليه فريق آخر من المحللين في

تحقيق القوات المسلحة العراقية لانتصارات حاسمة ستجبر المهاجمين على إعادة حساباتهم والرضوخ في نهاية المطاف للأمر الواقع.

على خلفية من هدير الصواريخ والطائرات وضجيج نيران دفاعاتنا الجوية وتقارير مراسلي المحطات الإذاعية وهمهمات والدتي بالدعاء وترديدها لآيات من القران واصطكاك حبات المسبحة المنسابة بين أصابع والدي وصراخ ابنة أختي الذي رافق دوي الانفجارات، مضت ليلتنا الأولى تحت القصف... أشرقت الشمس علينا ونحن لا نزال مُتحلّقين حول المذياع، تنبّهنا إلى أهمية تأمين خزين إضافي من البطاريات الجافة لتشغيل مصابيح الإنارة اليدوية في ظل انقطاع الكهرباء الذي عاد فجأة فهرعنا إلى شاشة التلفزيون كي نتفاجئ بقناتنا الرسمية وهي تعرض أغنيات عاطفية مصورة لمطربين ومطربات عرب وكأن لا شيء قد حدث، بدا لنا ذلك ضربا من الجنون انصرفنا عنه لانجاز المهام الأساسية المترتبة على كل فرد منا خلال ساعات نهار الشتاء القصير.

سمعت وقرأت كثيرا عن "الكوميديا السوداء" في كتب الفن والأدب، لكنني لم أفقه تماما معنى المصطلح حتى حلول مساء السابع عشر من كانون الثاني من عام ١٩٩١ عندما أصرّت والدتي بعناد طفولي على الاحتفال بذكرى يوم ميلادي... على ضوء القناديل، تحلّق أفراد أسرتي حول طاولة غرفة المعيشة التي توسطتها كعكة شوكولاتة جرداء (مخبوزة في اليوم السابق) انغرست فيها شمعة وحيدة، وراحوا ينشدون أغنية الميلاد بأصوات ترتجف خوفا ثم تمنّوا لي سنة سعيدة قادمة!

جلسنا نلوك الحلوى بطريقة آلية دون أن نستطعمها، بعد دقائق قليلة انفجرت والدتي في بكاء حار بسبب غياب أخي الأكبر عن الجمع وانقطاع أخباره عنا منذ بدء القصف... محاولات والدي المستميتة ووساطاته كانت قد أتت أكلها وأسفرت عن إبعاد ابنه عن جبهات القتال وإلحاقه بوحدة غير فاعلة في العاصمة كي يمضي فيها خدمته العسكرية الإلزامية بعد تخرجه من الجامعة، لكن الموت المنهمر علينا منذ الليلة الماضية كان كالكوارث الطبيعية، لا يميّز بين وحدات قتالية وسواها، ولا بين عسكريين ومدنيين.

يا الهي! أيكون أخي قد قُتل ونحن لا ندري؟

سمعنا وقع خطوات في الخارج فهرعنا لاستطلاع هوية القادم، تنفسنا الصعداء عندما طالعنا وجه أخي الشاحب، قمنا باحتضانه وتقبيله، جلس بيننا وراح يمضغ قطعة من قالب كعكة الميلاد هو الآخر ثم أوصى والديّ بأن يعتنيا بي جيدا لو أصابه مكروه وأن يسعيا لإبعادي عن جحيم العراق في أقرب فرصة ممكنة.

أمضينا الأيام التالية في السعي لتوفير مستلزمات العيش الضرورية، صارت الحياة بالنسبة لنا صراعا وتحديا للنجاة لمدة أربع وعشرين ساعة، تتجدّد تلقائيا عند انتهاء المهلة... الكهرباء التي عادت في نهار يوم الحرب الأول غادرتنا بلا رجعة عندما استهدفت الصواريخ تباعا محطات توليد الطاقة على امتداد العراق وكذلك شبكة توزيع مياه الشرب، خزيننا الهائل من المياه نفذ سريعا بعد أن جاءت خالتي وزوجها للإقامة معنا اثر تعرض حيّهما للقصف العنيف، المشكلة ذاتها واجهتنا مع الوقود فبرد الشتاء كان في أوجه والمدافئ التي تعمل على الكيروسين والغاز كنا نستخدمها للتدفئة ولتسخين مياه الاستحمام والطهي.

تجدّدت المخاوف من انجرار المواجهة إلى منعطف استخدام الأسلحة غير التقليدية عندما استهدف العراق إسرائيل وبعض دول الخليج بصواريخه البالستية، دبّ الفزع بين الإسرائيليين وسمعنا في نشرات الأخبار عن توزيع الأقنعة الواقية من الغازات السامة على المواطنين هناك، ضجّ الشارع الفلسطيني في المقابل بالفرح ونقلت تقارير المراسلين أهازيج الجماهير الهاتفة بحياة صدام حسين... رد الفعل الشعبي الفلسطيني الصاخب كان المسمار الأول في نعش التعاطف العراقي مع "القضية" التي كنا مؤمنين بعدالتها ومستعدين للتضحية بالغالي والنفيس في سبيلها، شعرت كما شعر سواي من العراقيين بحجم الخديعة والخيانة التي تعرّضنا لها من قبل "الأشقاء" في وقت المحنة.

... لا أخ حقيقي يرضى التضحية بدم أخيه في سبيل تصفية حساباته الخاصة.

نعم، شعرنا بمرارة وخيبة، لكن الضغينة كانت ضربا من ضروب الترف لم نكن نملك خيار الانغماس فيها ونحن نجاهد من أجل البقاء على قيد الحياة... تأكّد للجميع أن تهديدات الولايات المتحدة بإعادة العراق إلى العصر الحجري لم تكن من باب المبالغة أو التهويل، حياتنا بلا ماء أو كهرباء أو وسائل اتصال كانت بالفعل شاقة وبدائية، لكن انهماكنا في تأدية مهامنا اليومية لتأمين احتياجاتنا البشرية الأساسية كان

آلية تشبّثنا بها (بلا وعي أو قرار مسبق) لمواجهة رعب الحاضر وتجنّب التفكير في احتمالات المستقبل المريعة.

تغيرت طقوس الحياة المعتادة بل انقلبت رأسا على عقب، اقتصر استحمامي اليومي على سكب أكواب قليلة فقط من الماء البارد كانت ملامستها الأولى لبدني كفيلة بإصدار شهقات ألم مكتومة وموجة من القشعريرة تلازمني حتى بعد انتهائي من الاغتسال ومغادرتي الحمام، كل كوب من الماء المسكوب كان يقتضي زمنا طويلا من الانتظار لتجميعه قطرة بعد أخرى من صنبور الحديقة الواطئ بعد أن جفت المياه تماما في باقي أرجاء المنزل... كنت أخرج متلفعا بأغطيتي الثقيلة في نهارات الشتاء الباردة والممطرة، مُحمّلا بالعبوات البلاستيكية الفارغة التي أضعها تباعا تحت الفوهة الصدئة كي أظفر في نهاية المطاف بلترين أو ثلاثة من الماء، أقوم بحملها إلى الداخل بزهو الفاتحين المنتصرين وتفريغها في حوض أكبر ثم أعود إلى الخارج لجمع المزيد من القطرات، وهكذا دواليك.

أذكر جيدا فزعي عندما انقطع تساقط القطرات ذات مرة وقفزي في الهواء فرحا وابتهاجا بعودته في اليوم التالي، أذكر أيضا نوبات الحساسية التي كانت تهاجمني بضراوة وتتسبّب بتورّم عينيّ وأنفي وصداع مؤلم كنت أحاول التحايل عليه باستذكار استحمامي الباذخ في الأيام الخوالي ولقاء الماء الساخن المتدفّق من ثقوب الدُش خلاله مع رغوة الصابون الكثيفة وتصاعد بخار ذو عبير منعش فوّاح منهما... استغراقي الآثم في الذكريات كان ينتشلني منه أحيانا صوت عربة بيع نفط عابرة فأخرج ركضا للحاق بها ومساومة سائقها على بضاعته النادرة، أو وقع ضربات على باب منزلنا لجار جاء يجترّ معنا حيرته ومخاوفه والأخبار التي سمعها من تلك المحطة أو تلك.

نهاراتنا الشتائية كانت تنقضي سريعا قبل أن يرخي الليل سدوله، منذرا بموجة جديدة من الغارات والقصف الصاروخي الذي تفاوتت ضراوته بين ليلة وأخرى لأسباب لا يعلمها أحد، وجبة طعامنا المسائية كانت تقتصر على الخبز وما توفر لدينا من منتجات الألبان (جُبن معلب في أغلب الأحيان) على العكس من وجبة الغداء الدسمة من قطع الدجاج المطهوة على نار المدفأة، لكن لا الدجاج كان طعمه كالسابق ولا حتى الخبز الذي أمسى لونه أسودا بعد نفاذ الدقيق الأبيض من الأسواق وكان علينا الوقوف لساعات أمام شبابيك المخابز للحصول على أرغفة معدودة منه، تلك كانت

نقطة تحوّل قرّرنا فيها كسر مقاطعتنا للبضائع والأطعمة المسروقة فالثمن قد تم تسديده... الشحاذون، كما يقول المثل الانكليزي، لا يملكون رفاهية الاختيار بين مشروع وغير مشروع، خيارنا الوحيد كان بين موت وحياة.

مفارقة مضحكة أننا صرنا ندهن خبزنا (منفر المظهر والطعم والرائحة معا) بزبد لورباك وأنواع المربى والأجبان الأوروبية الفاخرة التي تبقّت في الأسواق من خيرات الكويت، وجبتنا المغمّسة بالإثم تلك كنا نتناولها ونحن نصغي إلى نشرات الأخبار المسائية لهيئة الإذاعة البريطانية وصوت أميركا ومونتي كارلو، ننذّس بعدها في أفرشتنا المفرودة على الأرض في ملجئنا في الطابق الأرضي كي نمضي ما تبقى من الليل على وقع الانفجارات المتعاقبة التي لا تهدأ وتيرتها حتى تبزغ خيوط الفجر الأولى... في غمرة اللهاث اليومي ودوامته، لم يعد الطموح يشغلني وأنا الطالب الجامعي ولا عدت أبالي بمستقبل مهني، جلّ ما كنت أرجوه هو أن أتمكن من تأمين الماء والطعام لي ولأهلي في اليوم التالي وأن ننجو معا من أتون الموت المستعر.

بين فترة وأخرى كان يعلو صوت طلقات نارية قريبة معلنا عن وصول جثمان قتيل، يرافقه عويل ونواح النسوة والرجال من أقاربه، ينصب بعدها مجلس لاستقبال المعزّين كان يحج إليه الجميع لتبادل الأخبار المتواترة عن قرب الإطاحة بنظام البعث في العراق والتبعات المتوقعة للحدث على حياتنا ومستقبلنا، بدأ البعض مستبشرا بقرب يوم الخلاص، لكن الأغلبية (وأنا منها) لزمت تحفظها المعهود وآثرت الجلوس على مقعد المراقب لا الفاعل حتى تنجلي العاصفة... في أجواء كئيبة مضطربة كتلك، كانت وسيلتي الوحيدة للترويح عن النفس بعد انجاز مهامي اليومية هي المشي لمسافات طويلة ورصد محال البقالة المفتوحة على الطريق، بحثا عن خضروات طازجة أو حبات من فاكهة أحملها معي إلى بيتنا (وإن ترتب على ذلك استهلاك المزيد من المياه لغسلها)

كنا قد انتهينا من سماع نشرات الأخبار ذات ليلة وبقينا ننتظر أن تهدأ وتيرة الضربات قليلا كي نتوجه إلى مخدعنا عندما زمجر رعد مفاجئ وسطع وميض أضاء الفضاء من حولنا، اهتزت الأرض بفعل استهداف مركز الاتصالات الذي لم يكن يبعد عنا سوى مئات قليلة من الأمتار واصطكّت إطارات النوافذ بعنف حتى سمعنا صوت انفلاق ألواح الزجاج رغم الشرائط السميكة التي كنا قد ألصقناها عليها... تكوّرت

أجسادنا وقمنا بتغطية رؤوسنا بأذرعنا في رد فعل غريزي، توقعنا انهيار السقف علينا في أية لحظة، لكن الهدوء عاد بعد دقائق بدت لنا كسنوات، بقينا نرتجف اضطرابا حتى بعد زوال الخطر، شحبت الوجوه وزاغت النظرات.

... ماذا لو كان الصاروخ قد أخطأ هدفه بأمتار قليلة؟

عند تفقّدي لزجاج النوافذ المكسور في صباح اليوم التالي، انتبهت لوجود فراغ غريب في خط الأفق كان سببه غياب برج مركز الاتصالات عن الصورة، خرجت إلى الشارع فوجدت وفودا من الزائرين تتجه نحو الموقع لتفحّص حجم الدمار الذي لحق بالمبنى والمنازل والمحلات المجاورة له... تلّ من الأنقاض والأتربة، تعلوه قمة البرج المعدني الذي هوى وانصهر تحت اللهيب كانوا كل ما تبقى من المنشأ الذي شيدته شركة أجنبية قبل سنوات قليلة فقط، تهشّمت مع البرج صفارة الإنذار المثبتة عليه والتي لازمنا صوتها المنفر منذ بدء الحرب.

أليست مفارقة أنها لم تستشعر خطر الصاروخ الذي استهدفها في تلك الليلة؟

تدمير المبنى القريب مثّل لحظة الذروة في مسار العمليات العسكرية، أو هكذا خيّل لنا وقتها... لا شك أني قد تأثرت لوقوع خسائر بشرية ومادية بسبب الضربة، لكنني لا أستطيع أن أنكر أيضا بأن جزءا مني كان مبتهجا بالنجاة منها، أدركت ذلك عندما رحت التهم بشهية استثنائية وجبة الغداء المعهودة من خزين الدجاج في مجمداتنا التي أوشك ثلجها على الذوبان بالكامل وتجمّعت المياه الباردة في قعرها، شعرنا جميعا بتغير مذاق اللحم فكان ذلك نذيرا لنا بقرب انتهاء صلاحيته، بعد مشاورات ونقاشات مستفيضة أخذنا القرار (المؤلم) بالتبرّع بما تبقى لحرّاس المدرسة المقابلة لدارنا والتي بتنا نخشى أن تكون هدفا للغارات الجوية التالية.

قمت بوضع الدجاج واللحم في أكياس بلاستيكية سلّمتها للحراس الذين هلّلوا واحتفلوا بهديتنا غير المتوقعة، أوصيتهم بسرعة استهلاك محتواها فتصاعد دخان الشواء من الساحة بعد مضي دقائق قليلة فقط، عدت بعدها كي أفرغ المجمدات من المياه المتجمعة فيها وتجفيفها حيث استخدمناها لاحقا كحاويات للأطعمة الجافة بوضع عصا مائلة في كل منها لمنع أغطيتها من الانغلاق، الأمر الذي كان سيؤدي إلى تعفّن المخزون... تحتّم علينا إيجاد بدائل للبروتين الحيواني في طعامنا، كان البيض قد شحّ

في الأسواق بسبب الطلب الكبير عليه فالجو كان لا يزال باردا وبالإمكان إبقاء الطبقات خارج الثلاجة لأيام وأسابيع دون أن تفسد.

ذات ظهيرة، وخلال تجوالي المعهود في الحي، عثرت على رجل افترش قارعة الرصيف لبيع ما جادت به دجاجاته من بيض، من فرط حماستي، قمت بشراء خمس طبقات (كانت آخر ما تبقى لديه) دون أن أفكر في كيفية إيصال صيدي الثمين إلى منزلنا الذي كان على مبعدة كيلومترات عدة... أدركت المأزق الذي أوقعت نفسي فيه عندما استقرت الطبقات على ذراعيّ الممدودتين وبدأت رحلة العودة الشاقة التي تخللها وقوفي أكثر من مرة للإجابة على استفسارات سائقي السيارات العابرة عن مصدر البيض وثمنه، أوشكت على أن أعرض عليهم أن يقوموا بإيصالي إلى دارنا مقابل أن أعطيهم واحدة من الطبقات، لكن خجلي منعني، تحاملت على الألم ووصلت أخيرا إلى دارنا بذراعين شبه مشلولتين، صرخت وجعا عندما ساعدني أهلي على إنزال حملي الذي استقر على طاولة الطعام بلا خسائر، الفرح الذي علا الوجوه من حولي لمرأى طبقات البيض الخمس أنساني مشقة وعناء الرحلة.

في تلك الليلة، وبعد أن تناولنا وجبة عشاء لذيذة من البيض الطازج المسلوق (مع الخبز الأسود) قررت أن أكافئ نفسي على انجازي الفريد بالنوم على سريري الذي كنت قد هجرته منذ اندلاع القتال، مفاصل وعظام جسدي المتيبسة بفعل افتراش الأرض لليالي عديدة متعاقبة كانت بأمس الحاجة للشعور بدفء ووثارة الإسفنج السميك، استلقيت على السطح الطري وصرت أتقلّب عليه يمينا وشمالا ثم دثّرت نفسي بالأغطية، وتيرة القصف بدت أقل من المعتاد فاستبشرت خيرا ورحت في إغفاءة عميقة... أفقت من كابوس مرعب بعد ساعات معدودة، مضيت بخطوات متثاقلة كي أمسح وجهي بالقليل من الماء المتبقي في الحوض البلاستيكي على الأرض عندما أضاءت جدران الحمام واهتزت الأرض تحت قدميّ، تشبّثت بقوة بحافة حوض الاغتسال كي لا أقع، بلغني في انحنائي صوت تكسّر المزيد من ألواح الزجاج.

للمرة الثانية تم استهداف موقع مركز الاتصالات، للمرة الثانية نجونا من موت محدّق، لكنني لم أشعر ببهجة النجاة هذه المرّة.

... ما معنى أن يتم قصف هدف مدمّر؟

لم أذهب لزيارة الموقع في اليوم التالي فماذا كنت سأجد فيه سوى ذات التلة من الأنقاض والأتربة؟ حزمت أمري بالعودة إلى النوم في غرفتي مهما حدث فلا جدوى من الفرار... تدهورت حالتي المعنوية وظهر أثر ذلك على أدائي لمهامي اليومية.

... *إلى متى سيستمر هذا العناء؟*

أيقظتني هزة من إغفاءة قصيرة تلت وصلة حافلة من القصف المعهود ذات ليلة، الصوت وإن بدا بعيدا كان مختلفا عن كل ما خبرناه خلال الأسابيع الماضية، حاولت العودة إلى النوم بلا جدوى، اعتدلت جالسا في الفراش متأملا الجدار المقابل لي وانعكاس ضوء الفجر عليه فيما راحت العصافير تغرّد معلنة عن قدوم الصباح... مضيت إلى المطبخ كي أعد شايا للفطور عندما حملت لي نشرة أخبار هيئة الإذاعة البريطانية النبأ المفجع:

سددت طائرات التحالف صواريخها قبل قليل نحو ملجأ العامرية الذي كان يعج بالمئات من المدنيين ما أسفر عن محرقة مريعة بداخله وأوقع خسائر فادحة في الأرواح.

هزّت المأساة ضمير العالم الذي تابع مشاهد الجثث المتفحمة وعويل النساء والأطفال على شاشات التلفزة، توالت الإدانات لوحشية الجريمة من كل حدب وصوب، انقلبت الطاولة على الولايات المتحدة وحلفائها الذين وجدوا أنفسهم في مأزق كبير أمام الرأي العام في بلدانهم... تحرير أرض وشعب من الاحتلال ليس مبرّرا لارتكاب المجازر البشعة بحق الأبرياء.

صدرت تصريحات مضطربة تتّهم النظام العراقي وتحمّله مسئولية ما حدث بسبب استخدامه الملجأ كمقر قيادة عسكري والمدنيين المختبئين فيه كدروع بشرية، لم تقنع الذريعة أحدا وإن كان ما ورد فيها حقيقيا فاستخدام الأحياء السكنية المكتظة والمنشآت الخدمية كالمدارس والمستشفيات وحتى الجوامع كمخابئ للأسلحة والوحدات العسكرية لم يكن تكتيكا غريبا عن القيادة العراقية خلال حروبها المتعاقبة... خبرنا ذلك عن قرب عندما انطلق صاروخ أرض/أرض ذات ليلة من ساحة كرة القدم في مدرستي الثانوية وتسبب بزلزلة أثارت فزع سكان حينا والأحياء المجاورة له.

انتابني حزن عميق وأفكار سوداوية حاولت أن أنتشل نفسي منها بالصلاة، صلّيت حتى جفّ لساني ودبّ الخدر في رجليّ فلم أعد أشعر بهما، صلّيت ركعا بعدد الضحايا الساقطين ثم بكيت بحرقة عندما آويت إلى فراشي ليلتها... الملاجئ النووية المزعومة التي كانت حتى الأمس ملاذ الخائفين تحوّلت إلى هياكل مهجورة منبوذة.

محرقة ملجأ العامرية شكّلت منعطفا ونقطة تحول في مسار العمليات العسكرية فقد أدركت قوات التحالف أن استهدافها المكثّف للداخل العراقي لم يكن ورقة رابحة على طول الخط في ظل ارتفاع ضحايا القصف من المدنيين العُزّل والاستياء الذي أثاره ذلك في الشارعين العربي والغربي، خفّت وتيرة الغارات الليلية على العاصمة بشكل ملحوظ مقابل اشتداد ضراوة القتال على الأرض... إنهاء الحرب سريعا بات أولوية ومطلبا ملحا، لكن جحافل المتحالفين لم تكن مستعدة للعودة من حيث أتت قبل أن تنجز مهمتها بتحرير الكويت من قبضة صدام حسين الذي طلع على العالم بمبادرة للانسحاب مقابل تحقيق قائمة من الشروط التعجيزية شملت انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة واقتسام دول الخليج ثرواتها النفطية مع شعوب الأمة العربية جمعاء.

رد الفعل الشعبي الأول على المبادرة التي ردّدتها مكبرات الصوت في ميادين بغداد كان الابتهاج العارم فرغم استحالة تحقيق ما ورد فيها، كان ذلك أول بصيص أمل وإشارة رسمية إلى إمكانية انسحاب قواتنا من الكويت... الزج باسم فلسطين والقدس وتحريرهما من قبضة الاحتلال الصهيوني في نص المبادرة تسببا بموجة جديدة من التظاهرات الهاتفة بحياة الرئيس العراقي البطل اجتاحت الشارعين الفلسطيني والعربي، لكن رد الولايات المتحدة وحلفائها جاء سريعا بالرفض القاطع للعرض والسخرية من سذاجة بنوده.

توالى وصول جثامين القتلى فيما انقطعت أخبار آلاف من الجنود والضباط عن ذويهم، بدا القلق جليا على الوجوه من حولي بسبب طول غياب أخي الذي أبلغنا في آخر زيارة له عن احتمال صدور الأوامر لوحدته بالتوجه إلى جبهة القتال في أية لحظة، عاش والداي أياما من الهلع مع انتشار الأنباء عن هزيمة نكراء أُلحقت بقواتنا في الكويت وتعرّض قطعاتنا لقصف مكثّف تسبّب بهلاك الكثيرين بينما تحتم على الناجين مصارعة الجوع والعطش ومخاطر الطريق خلال رحلة الفرار العشوائية عبر

الصحراء، أوعز قائد وحدة أخي لأفرادها بالعودة إلى أهليهم ريثما تتضح معالم الصورة... عندما ظهر أخيرا عند باب بيتنا، كادت والدتي أن تغيب عن الوعي تحت وقع المفاجأة السعيدة.

الدمار الذي لحق بأبنية وتجهيزات مجمّع الإذاعة والتلفزيون في حي الصالحية ومرسلاتهما جعل البث يقتصر على الأناشيد ونشرات أخبار موجزة يقرأها المذيعون من على متن عربات نقل مُموّهة تجوب الشوارع خِلسة خشية استهدافها من قبل الطائرات المغيرة، ما كنا لنكترث بمتابعة المادة المذاعة لولا ترقّبنا لنبأ بعينه... ذات ليلة، وقبل دقائق فقط من نهاية البث، ألقى الرئيس خطابا قصيرا بصوت ضعيف مرتبك، أعلن فيه الانسحاب التام من أراضي الكويت، تحرير القدس واقتسام ثروات دول الخليج والتفاخر بأمجاد القعقاع وحمورابي وصلاح الدين غابوا هذه المرة عن البيان المقتضب الذي شدّد على رضوخنا لكافة شروط قوات التحالف لوقف إطلاق النار.

اختلطت المشاعر وماجت بين فرح وارتياح وغضب ومرارة

... ما كان مبرّر تلك الحماقة التي راح ضحيتها الآلاف من الأبرياء وتسبّبت بدمار شامل لبلدنا؟

غطّت وسائل الإعلام مراسيم التوقيع على وثيقة الاستسلام في خيمة صحراوية، بدا النظام أقرب من أي وقت مضى إلى الانهيار... لأول مرة في حياتي سمعت الناس وهم يسبّون الرئيس على الملأ بلا وجل أو خوف، كنت مارا بالصدفة برجلين يتحدثان عن معاناة الجنود العائدين من الموت والمهانة التي تعرّضوا لها عندما صرخ أحدهما:

"... الكلب ابن الكلب، هل يظن أنه سينجو بفعلته؟ هيهات أن نسكت عنه هذه المرة!" .

ظهرت كتابات على الجدران تلعن الرئيس وتبشّر بهلاكه القريب، أزيز طائرات قوات التحالف المحلقة في سمائنا لم ينقطع حتى بعد إعلان الانسحاب من الكويت ووقف إطلاق النار بين الطرفين، الأمر الذي كان وراء جرأة البعض وتماديهم في التعبير عن غضبهم على نحو غير مسبوق... توارى قادة البعث وكوادره عن الأنظار، اعتكف معظمهم في منازلهم فيما آثر آخرون الاختباء في أماكن قصية خشية

ردة فعل شعبية تطالهم وأسرهم، بدأت الإذاعات تتحدث عن اندلاع انتفاضة عارمة في المحافظات الجنوبية (ذات الأغلبية الشيعية) ضد صدام حسين ونظامه، أعمال العنف طالت الجنود المساكين خلال زحفهم المنهك نحو الشمال وتسببت بسقوط المزيد من الضحايا بينهم.

لا شك بأن حراك الجنوب كان في جانب منه رد فعل منطقي ومشروع على عقود من طغيان النظام وظلمه، لكن افتراض براءة "أطراف وقوى إقليمية مجاورة" من تأجيج الهياج الشعبي وتوجيهه نحو خدمة مصالحها كان ضربا من السذاجة المفرطة لم تكن القوى العظمى مستعدة لتحمّل تبعاته، خصوصا مع رفع المتظاهرين صورا لمراجعهم الدينية إلى جوار صور الخميني... أعادت الولايات المتحدة حساباتها في الوقت الحرج الذي شارف الثائرون فيه على بلوغ العاصمة وقرّرت إبقاء الرئيس على سدة الحكم فبعد الدرس الذي تم تلقينه لها، لم تعد القيادة العراقية العدو الذي يُخشى جانبه، لكنها كانت لا تزال قادرة (مع شيء من الدعم غير المباشر) على سحق التمرّد المثير للقلق.

وصلت الرسالة إلى صدام حسين في مخبأه فاستوعبها سريعا وقام بإرسال اثنين من عتاة أعوانه هما صهره حسين كامل وابن عمه علي حسن المجيد (الكيمياوي) فمضيا في الحشود قتلا وذبحا على مرأى من قوات التحالف التي اكتفت برصد العقاب الجماعي الوحشي عن بعد دون أن تتدخّل لنجدة المستغيثين... تم القضاء على الانتفاضة خلال فترة قصيرة وجرى التمثيل بقادتها وذويهم كي يكونوا عبرة لكل من تسوّل له نفسه معاداة الرئيس ونظامه.

كثير من تفاصيل ما حدث خلال عمليات عاصفة الصحراء بهت عبر السنوات التي عالجتنا بالضربة تلو الأخرى والنزاع تلو الآخر حتى لم تعد الذاكرة قادرة على استيعاب الكم الهائل من المشاهدات المتراكمة في ثناياها... نعم، نسيت (أو ربما تناسيت) كما لا يستهان به من الأحداث التي رافقت تلك الأيام العصيبة، لكن صورة بعينها قاومت عوامل التعرية وبقيت عالقة في ذهني حتى بعد مرور قرابة عقود ثلاثة:

كان النظام قد لجأ في مرحلة مبكرة من المواجهة إلى إضرام النار في أكوام من إطارات السيارات المستعملة قرب الجسور والأهداف الاستراتيجية الأخرى في

العاصمة كوسيلة لتضليل الطائرات المغيرة والصواريخ الموجهة وفق إحداثيات مأخوذة عن الأقمار الصناعية... الحيلة البدائية، بطبيعة الحال، لم تجد نفعا وتسببت بحالات اختناق عديدة بين المواطنين، تلا ذلك إيعاز الرئيس بحرق آبار وحقول النفط في الكويت عندما لاحت بوادر الهزيمة في الأفق، ما عُد جريمة مروعة بحق البيئة في المنطقة.

المفاجأة كانت عندما هبّت ريح عاتية حملت الدخان الكثيف شمالا ثم انفتحت أبواب السماء بأمطار غزيرة تسببت بإغراق شوارعنا بالمياه، لكن المطر النازل علينا لم يكن يشبه أي مطر آخر... أذكر أني جلست يومها عند حافة نافذة غرفتي في الطابق العلوي، أرقب عبر زجاجها المكسور المشهد السريالي لزخات الماء الداكن المنهمر فوق رؤوس المارة في الخارج، ملطخا السيارات وجدران المنازل وسطوحها حتى لم يبق في المدينة حائط ناصع واحد، عندما فتحت الباب في الصباح راعني ما حلّ بدارنا، رفعت بصري إلى السماء وتمتمت مع نفسي:

... ألا يكفي ما لحق بنا من قتل ودمار حتى تبصق السماء سوادها علينا هي الأخرى؟

... أتكرهنا إلى هذا الحد يا الله كي تسومنا صنوف عذابك الواحد تلو الآخر؟

... لماذا، ماذا فعلنا وبم أجرمنا؟

انتهت الحرب واستتبت الأمور لصالح الرئيس من جديد، لم تكن المرة الأولى التي يصارع فيها صدام حسين قدره ويخرج من النزال منتصرا، يكاد يكون ذلك العنوان الأبرز لمشوار حياته مذ بدأ سعيه الحثيث وراء القوة عندما كان صبيا معدما يسكن خرائب قرية العوجة، مرورا بمشاركته بمحاولة اغتيال عبد الكريم قاسم بعد التحاقه بصفوف حزب البعث والتي أصيب فيها بطلق ناري واضطر على أثرها لمغادرة العراق، يُضاف إلى هذا وذاك حملاته التي شنّها دوريا لتصفية الخصوم المحتملين والإجهاز على محاولات الانقلاب عليه بعد بلوغه سدة الحكم... مواجهة المخاطر كانت وبقيت ديدن الرئيس حتى النهاية، ولذلك ففي الوقت الذي اعتبر الخبراء فيه ما حلّ بالعراق كارثة مزلزلة، كان صدام حسين يحتفل بنجاته من الهلاك وانتصاره في الموقعة التي أطلق عليها لقب "أم المعارك".

الحقيقة التي غابت عن الرئيس، أو ربما لم يلق لها بالا (أو لعلها أسعدته؟) أن نيران القصف المنهمرة لم تسقط الأبراج والجسور فقط بل أتت (مع تبعاتها اللاحقة) على ارث عصر النهضة الفتي في العراق ومنظومة القيم التي بشّر بها، حجم الدمار المتحقق استدعى إلى الأذهان الانهيار الذي رافق اجتياح المغول لبلاد الرافدين في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وأرّخ لنهاية مجد بغداد وسنوات عز الخلافة العباسية فيها، مع فرق أن "هولاكو" هذه المرة قد قرّر الإبقاء على "المستعصم" ولم يقتله... العديد من العراقيين كانوا يلعقون جراحهم النازفة عندما أطل الرئيس على شاشة التلفزيون ذات مساء وهو يقهقه جذلا، طارحا علينا تساؤلا عقد ألسنتنا دهشة:

"انظروا لنا! ما الذي حدث؟ هل متنا، هل تبخّرنا؟"

بالنسبة لي، كانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير، لم يعد هناك مجال لافتراض حسن النية ولم يبق في جعبتي من المبررات ما أسوقها كي أقنع نفسي بأن الرجل ليس بالسوء الذي روّج عنه وأنه ضحية مؤامرة أكبر منه ومنا... أسقطت عاصفة الصحراء الأقنعة فظهرت الوجوه على حقيقتها، صار للشر صورة وصوتا واسما تردّد في ذهني على مدار الساعة هو صدام حسين، بت مقتنعا أن خلاص العراق مرتبط بالإطاحة به وبنظامه، لكن كيف السبيل إلى ذلك وشريحة الشباب التي

تنتفض وتقود التغيير في مجتمعاتها مشلولة وعاجزة تماما عندنا؟ كيف نسقط سلطة ونحن بلا سند يحمينا أو ظهير من جيش أو إعلام أو دعم سياسي؟ كيف نثور ونحن أسرى رعبنا الذي تفاقم بعد وقف إطلاق النار وما شهدناه بأعيننا من عقاب جماعي مريع وتنكيل وحشي بمنتفضي الجنوب؟

صدرت الأوامر باستئناف الدوام في المدارس والجامعات فورا رغم الدمار الذي حل بالكثير منها وانقطاع الكهرباء المستمر وشُح الوقود وانهيار معظم الجسور الرابطة بين شطري العاصمة والذي تسبب بأزمات سير خانقة واضطراب كبير في المرور، لكن لا يهم، فعودتنا العشوائية إلى مقاعد الدراسة كانت بإيعاز من عدي صدام حسين الذي وجد أن بقاء الطلبة بلا شاغل يصرفهم عن الانغماس في الشأن السياسي في تلك الفترة الحرجة ستكون له عواقب غير محمودة... في يوم دوامنا الأول، وعند مروري بالموقع في طريقي إلى الجامعة، لفت انتباهي أن الشتائم بحق الرئيس والشعارات التي بشرّت بسقوطه الوشيك قد تم محوها تماما عن الجدران المحيطة بمبنى الاتصالات المهدّم، لمحت كذلك تجمّع عدد من الرفاق البعثيين الذين عاودوا الظهور على الساحة بعد طول غياب بحثا عن سلطة ونفوذ سابقين، لكن هيهات أن يعود ما فات.

ما كان لصدام أن يبقى على سدة الحكم بعد كل ما حدث لولا ولاء ودموية رجال عشيرته الذين هبّوا لنجدته في ساعة الشدة ولذلك فقد كان من الطبيعي أن يجزل العطاء لهم بعد أن تحقق له النصر... طرأت تغييرات كبيرة على خارطة مراكز القوى في الدولة إذ شهدنا انسحاب البساط من تحت أقدام قيادات وكوادر حزب البعث العربي الاشتراكي وسطوع نجم أبناء القبيلة الرئاسية بفروعها الممتدّة.

كنت واقفا مع بعض الزملاء في الحديقة المحاذية لقسمنا في الفترة الفاصلة بين محاضرتين عندما لمحنا رجالا مفتولي العضلات وهم يقتادون أحد الطلبة خارج المبنى المجاور ويدسونه في سيارتهم التي انطلقت مسرعة مخلفة وراءها سحابة من الغبار، تبادلنا النظرات الحيرى قبل أن ترد الأخبار بأن الفتى كان قريبا لأحد قادة التمرد في الجنوب وقد أُخِذ بجريرته... ما حدث على مرأى من الجميع كان درسا آخر لقّنوه لنا وعظة.

كنت منكبا على مشروعي التصميمي ذات مساء، مستغلا عودة التيار الكهربائي لساعات معدودة عندما أبلغني والدي بقدوم اثنين من رفاقي. خرجت للقائهما فهمسا لي بحصولهما على شريط ممنوع لعمليات قمع المنتفضين، وقد جاءا لمشاهدته معي في دارنا فالكهرباء كانت مقطوعة في حيّهما وقد اشترط صاحب الشريط عليهما إعادته إليه بسرعة.

تحلّقنا حول شاشة التلفاز في غرفة الضيوف ورحنا نتابع المشاهد المريعة لعلي حسن المجيد وهو يصدر أوامره بإعدام المتظاهرين ودك دورهم وقراهم بدم بارد، رأينا عددا من المقبوض عليهم وهم يجثون أمامه مقيّدي الأيدي قبل أن يقوم بركلهم بحذائه العسكري الثقيل ويطلق النار عليهم فيما علت في الخلفية أصوات استغاثة لنساء قرويات وولولات... انتقلت الكاميرا بعدها لتصوير طبيبة ترتدي رداءها الأبيض الذي بقعّته الدماء وهي تركض خارج المركز الصحي الذي تعمل فيه، صارخة بأعلى صوتها:

"هذا جنون، كيف لبشر أن يقدم على ارتكاب أفعال كهذه؟".

انقطعت الكهرباء قبل أن ننتهي من مشاهدة الشريط المخيف الذي بدا واضحا أن تسريبه كان عن عمد... جلسنا صامتين في الظلام لبرهة، أوصلت صاحبيّ إلى الباب ثم عدت إلى غرفتي واجما، أضأت فانوسا صغيرا كي أتم عملي على المشروع، لكن أنّى لي أن أصمم وأبدع بعد كل ما شاهدته؟ أزحت القلم جانبا واستغرقت في مراقبة اللهيب المتراقص في الظلمة واسترجاع عدد من اللقطات، أصوات الصراخ كانت لا تزال تتردّد في أذنيّ.

عقدت العزم ليلتها على الهجرة حال تخرجي من الجامعة وإكمالي خدمة العلم التي صدر قرار بتقليصها إلى ثمانية عشر شهر للمهندسين والأطباء بعد أن كانت مفتوحة خلال سنوات الحرب مع إيران، أجيال الخريجين التي سبقتنا غبطتنا على ظروف سوقنا (المرفهة) خصوصا وأن النظام لم يعد قادرا على شن حروب جديدة وبالتالي فخطر الموت على جبهات القتال لم يعد يتهدد المساقين كما كان في السابق... "أين المشكلة في إضاعة عام ونصف من عمر المرء في سخرة الجيش؟ أليس ذلك أرحم من فناء عمر بأكمله في جحيمه؟" قالوا لنا.

وقفنا نجترّ مخاوفنا وتبرّمنا من السوق لأداء الخدمة العسكرية ذات نهار عندما علّقت زميلة لنا على الموضوع:

"هوّنوا عليكم! لن تلبث الأمور أن تتغيّر"

النبرة الواثقة التي ردّدت بها الفتاة الحسناء عبارتها والابتسامة التي علت شفتيها بدت مُستغربة لنا، خصوصا وأن أسرتها كانت تنحدر من تكريت (مدينة الرئيس) في الأصل... ما كادت تمر فترة وجيزة على تصريح زميلتنا الخطير حتى سمعنا عن مغادرتها وعائلتها العراق اثر انكشاف محاولة انقلابية أعد لها عدد من أقاربها، تردّدت أنباء عن قيام الولايات المتحدة بتسريب معلومات عن المتآمرين لأجهزة الأمن العراقية التي أفشلت المخطط وألقت القبض على أصحابه قبل أن يصدر صدام حسين أوامره بتصفيتهم بطريقة وحشية.

أسرة زميلتي كانت محظوظة إذ أفلتت من العقاب في اللحظة الأخيرة، لكن ذلك لم يكن حال باقي أقاربها الذين تعرّضوا لشتى أصناف التعذيب في المعتقلات حتى قيل أن أهاليهم قد وجدوا صعوبة في التعرف على ملامح الجثث التي سُلّمت لهم مع تعليمات صارمة بدفنها بصمت وعدم إقامة مجالس عزاء لها... من تسنّى لهم الاطلاع على الجثامين، أرعبتهم التشوّهات التي بدت على الأجساد وآثار الضرب والصعق بالكهرباء وحتى افتراس الكلاب وتمزيقا لها إربا، لكن ذلك لم يكن نهاية المطاف فقد استمر رجال الأمن يداهمة المنازل دوريا وتجريدها من كل ما غلا ثمنه على مرأى من ساكناتها من النساء اللاتي لم يحتملن هول ما حلّ بأزواجهن وأبنائهن ودورهن فأصيبت بعضهن بلوثة عقلية بينما قضت أخريات حزنا وكمدا.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يقوم فيها الرئيس بتصفية أفراد من أقاربه ولن تكون الأخيرة ولذلك فالحديث المتواتر عن طائفية صدام ليس دقيقا بنظري، معيار الرجل الوحيد في حكمه على الآخرين وطريقة تعاطيه معهم كان مدى ولائهم لشخصه بصرف النظر عن الديانة أو المذهب، شنه لحملة الإبادة الشهيرة لقيادات وكوادر حزب الدعوة الشيعي منذ السبعينات (على سبيل المثال لا الحصر) لم تكن بسبب تعصّبه المذهبي بل بسبب أجندة الدعويين السياسية وسعيهم للاستيلاء على السلطة في العراق، الأمر ذاته تكرّر مع الأحزاب والحركات الأصولية السنية وكذلك الشيوعيين

والماسونيين وسواهم من المارقين... عالم صدام حسين كان وثنيا بامتياز، لا يُسمح فيه بعبادة صنم سواه.

أمضيت ما تبقى من شهور دراستي في الجامعة بلا هدف أو حافز سوى الحصول على الشهادة، لم يعد الإبداع هاجسي ولا راودتني أحلام يقظة بتصميم أبنية تكون علامات باقية في سجل العمارة في بلدي، قاطعت حفل التخرج ولم أكترث بالتقاط الصور الجماعية مع رفاقي فجزء مني كان لا يزال في حالة حزن عميق بسبب ما حدث، لم يكن واردا عندي أن أرقص وابتهج ودماء الآلاف التي أهدرت عبثا لم تجفّ بعد، ثم ما وجه الاحتفال باجتياز مرحلة الدراسة وملامح ما سيليها بدت غامضة لا تبشّر بخير؟ حاولت تهيئة نفسي وتوطينها على قبول تكرار ما حدث خلال معسكرات تدريب الطلبة، لكن أحوال الجيش لم تعد كما كانت في السابق مع تفشي الفساد بين صفوفه ومعاناة منتسبيه من ضعف الموارد بعد عقود من بحبوحة العيش والرفاهية.

أول ما لمسناه وشهدنا مظاهره بأعيننا في دورة التدريب الأساسي كان الانهيار الشامل للمعنويات فالأسلحة الناجية من محرقة الحرب كانت قديمة مستهلكة وما حل بالوحدات المنسحبة من الكويت من دمار ومهانة كان لا يزال ماثلا في الأذهان، خصوصا مشهد الجنود العراقيين وهم يقبّلون أيادي آسريهم من الأمريكان، وجبات الطعام باتت هزيلة هي الأخرى وكذلك باقي التجهيزات كالألبسة التي صار المستعمل منها والجديد يباع في السوق السوداء... لم يعد الرئيس يعوّل كثيرا على فرق الجيش التقليدي في حماية نظامه فانحسر الاهتمام والدعم عنها لمصلحة قوات النخب المؤسسة حديثا والتي تم اختيار أفرادها بعناية من أبناء تكريت والعوجة والمدن والقرى المجاورة لهما.

اشتريت ساعة يد رخيصة من أحد باعة الرصيف كي أُبقي ساعتي الأصلية في البيت خشية تعرّضها للكسر أو السرقة خلال أسابيع التدريب العسكري الأولى، الساعة الجديدة كانت نسخة مقلّدة بإتقان عن ماركة عالمية مشهورة، لمحها الضابط المسئول عنا ذات ظهيرة وتفحّصها مليّا في يده ثم أعادها لي، يبدو أنها قد راقت له فقبل انتهاء الدورة بقليل انتحى بي جانبا وطلب مني أن أعيره إياها لبعض الوقت، زاعما بأن ساعته قد توقفت عن العمل فجأة، لم يكن بوسعي الرفض رغم يقيني بأني

لن أراها مرة أخرى فأوراق تسيبي إلى وحدتي الجديدة كانت بين يديه وبوسعه عرقلة مسارها بكل يسر، تخيّل خيبة الأمل التي ستبدو على وجهه لحظة علمه بأن قيمة غنيمته لا تتجاوز ثمن البطارية التي تربض في أحشائها هوّن الأمر علي قليلا، لكن مواساتي لنفسي لم تستمر سوى دقائق معدودة فبمجرد عودتي إلى العنبر المخصص لنا استقبلتني أنباء اختفاء أمتعتنا وحقائبنا عن بكرة أبيها... قام عرفاء الفصيلة بسرقتها خلال غيابنا!

استقبلنا في وحدتنا العسكرية الجديدة ضابط شاب أمضى أيامه في اختلاق المشاكل وإنزال العقوبات العشوائية بالجميع، أعيتنا الحيل في إيجاد طريقة للتعامل معه فقد كان شبيها ببركان ثائر تتدفق الحمم من فوهته بلا توقف، أستمر الحال على ما هو عليه حتى همس رفيق لي في أذني ذات صباح بأنه قد اتفق مع السيد الضابط على تناول العشاء معنا خلال عطلة نهاية الأسبوع، على شرط أن نبقي الأمر سرا بيننا... في الوقت المحدد خرج ضابطنا من بوابة الوحدة، مرتديا اللباس المدني وتوجه نحو سيارتي الرابضة بانتظاره على مبعدة مئات قليلة من الأمتار كما أراد، ما أن دخل وأغلق الباب وراءه حتى طلب مني الانطلاق بسرعة، ففعلت.

الشاب الودود المهذب الذي أمضى المساء برفقتنا كان ذا شخصية مختلفة تماما عن الضابط الذي خبرنا مزاجه الصعب المتقلّب عن قرب طيلة الأسابيع الماضية، بدا لنا وكأنه قد خلع سوء الخلق مع بزته العسكرية وتركهما وراءه في غرفته، أدهشنا تبسّطه في الحديث معنا واسترساله في الفضفضة بعد أن انتهينا من تناول العشاء الذي اقتسمت دفع فاتورته مع رفيقي، في طريق العودة إلى المعسكر، أبدى ضابطنا تذمّره من الأوضاع السائدة في الجيش ورغبته في ترك صفوفه في أقرب فرصة ممكنة فالخدمة فيه لم تعد تطعم خبزا ولن تتيح له الزواج وفتح بيت وبناء أسرة... هو أيضا كان يأمل في مغادرة العراق والبحث عن فرصة عمل في الخارج.

حدود العراق مع الأردن كانت تشهد في تلك الفترة موجة نزوح غير مسبوقة، الآلاف كانوا يغادرون يوميا بحثا عن مستقبل أفضل لهم ولأسرهم، في مقدمة الركب كان أصحاب الكفاءة والخبرات الذين لم تعد شهاداتهم تساوي شيئا في وطنهم، جدّت على قاموسنا مفردات وتسميات مثل "لاجئ إنساني" وهو لقب بات غاية لكثير من الشباب الذين سلكوا شتى السبل للحصول عليه بسبب الامتيازات العديدة الممنوحة

للاجئين في الدول الحاضنة لهم من مأكل ومشرب ومسكن ورعاية صحية ووثائق تضمن لحامليها السفر بكرامة وحرية، بالإضافة إلى فائض بسيط من المال يكفي لإعالة من بقي من الأهل في العراق... في ظل التدهور السريع لقيمة الدينار، كان مبلغ مئة دولار أمريكي (أو ما اصطلح على تسميته بين الناس بالورقة) قادرا على تأمين عيش كريم لأسرة متوسطة في بغداد لشهر بأكمله ، لكن الأموال المحوّلة من مدن اللجوء لم تكن مصدر "الأوراق" الوحيد في السوق.

وظائف بسيطة كالترجمة والسكرتارية أو حتى العمل كسائقين لدى ما بقي من السفارات وهيئات الأمم المتحدة وبعثاتها المختلفة والتي كان العراقيون يأنفون من القيام بها في السابق، أمست بين ليلة وضحاها مطمعا تتكالب عليه النخب بسبب الرواتب المدفوعة بالدولار للعاملين في تلك الأماكن... الطريق إلى الرخاء الموعود كان يمر بدوائر الأمن المخيفة ويشترط الحصول على موافقات خاصة منها مقابل تعهّد المتقدمين والمتقدمات بكتابة تقارير دورية مفصلة عن تحركات واتصالات الموظفين والخبراء من العرب والأجانب.

مرافقة لجان التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل والتي تصدّرت أنباء الأزمات المثارة معها عناوين الأخبار بشكل مستمر كانت من بين المهام التي شهدت إقبالا كبيرا ممن أجادوا التحدّث بالإنكليزية... رغم موافقة العراق على بنود اتفاقية وقف إطلاق النار بلا قيد أو شرط، لم يكن صدام حسين مستعدا لكشف أوراق ترسانة أسلحته التي زعم امتلاكها قبل الحرب وركن إلى لعبة القط والفأر مع المفتشين الذين كانوا يحدّدون أهدافهم بسرية تامة ويقومون بمداهمتها على حين غفلة فيلجأ العاملون في المنشآت المعنية إلى شتى الحيل كمحو الملفات عشوائيا من على أجهزة الكومبيوتر أو حرق الوثائق في براميل النفايات أو حتى محاولة تهريبها من الأبواب الخلفية لتجنّب وقوع الدلائل في أيدي الباحثين عنها.

الإمكانيات الهائلة التي تمتعت بها اللجان واستخدامها لأحدث تقنيات الرصد والمراقبة والتحليل حالت دون أن تنطلي الألاعيب الساذجة للجانب العراقي عليها فبتنا نصحو وننام على أخبار الخلافات المتصاعدة بسبب منع المفتشين من دخول هذه المنشأة أو تلك، تقوم الولايات المتحدة وحلفاؤها على أثرها بالتلويح بعصا استخدام القوة العسكرية فتصدر تصريحات من النظام العراقي باستحالة الرضوخ للذل والهوان

مهما كان الثمن، يلي ذلك قرع لطبول الحرب وزمجرة الطائرات الرابضة في القواعد العسكرية المجاورة استعدادا للانقضاض على أهدافها... حينها فقط، وفي اللحظة الأخيرة، يطلع علينا أحد المذيعين كُثّ الشوارب كي يقرأ بصوت مرتجف وملامح مضطربة بيانا عاجلا من القيادة، يسمح الرئيس فيه بدخول المفتشين إلى المواقع المحاصرة وتقديم كافة المساعدات المطلوبة لهم، فيُنزع فتيل الأزمة وتهدأ الأمور حتى تلوح في الأفق بوادر مواجهة جديدة، وهكذا دواليك.

التخبّط والصبيانية في معالجة أزمات حرجة حساسة كتلك كان سببهما غياب الكفاءات وتنحيتها عن مراكز اتخاذ القرار التي استحوذ عليها أشخاص شبه أميين كصهر الرئيس حسين كامل الذي تعاظم دوره ونفوذه حتى صار ذراع صدام اليمنى والرجل الثاني في الدولة فعُهِد إليه بترميم البنى التحتية المدمرة بعد أن لعب دورا أساسيا في سحق المتمردين في الجنوب... أوعز كامل بتفكيك محطات توليد الطاقة للمحافظات واستخدام ما صلح منها لإعادة تشغيل وصيانة مولّدات العاصمة، الأمر ذاته تكرّر مع مراكز الاتصالات وشبكات توزيع المياه فبغداد كانت وجه النظام الذي حرص على محو آثار الهزيمة عنه وليذهب باقي العراق إلى الجحيم!

إمعانا في التحدي، أنجزت كوادر حسين كامل في فترة قياسية جسرا جديدا بطابقين ربط بين ضفتي نهر دجلة بالقرب من القصر الجمهوري بالإضافة إلى تشييد برج عملاق أطلق عليه تسمية "برج صدام"... تناقلت وسائل الإعلام والدوائر الهندسية العالمية أخبار المشاريع الضخمة المُفتتحة في بغداد، المدينة الفقيرة الجريحة والمحاصرة، كما تردّد اسم الفريق كامل كرجل المهام المستحيلة الذي لا يتردد في تحقيق رغبات صدام حسين مهما بلغ جنوحها وجنونها، كثير من المشاريع التي نُفذت تباعا كان خارجا عن المألوف بالفعل فقد شهدت تلك الفترة بداية هوس الرئيس بتشييد جوامع بمقاييس استثنائية وشطحات تصميمية مثيرة للجدل كأن تكون المآذن فيها على هيئة بنادق عملاقة ذات فوهات موجهة نحو السماء، أو أن تحيط بالمصليات حدائق وبحيرات على شكل خريطة الوطن العربي، سبق ذلك وتزامن معه بناء المزيد من القصور الرئاسية مفرطة المساحات والبذخ وإن عدمت الذوق والفكر التصميمي السليم.

ما كان الأمر ليستوقف أحدا لو أنه حدث في دولة ثرية يرفل شعبها بالاستقرار والرخاء وسائر الخدمات الأساسية، لكن العراق كان في وضع مختلف

تماما، فالوفيات والتشوهات بين الأطفال حديثي الولادة بلغت أرقاما غير مسبوقة في تاريخه، كان الناس يموتون في أروقة المستشفيات الحكومية من شُح الدواء وفي أحيان كثيرة بسبب تلوث المياه والهواء أو حتى بسبب الجوع... صورة الطفل العراقي منتفخ البطن، المحتضر على الأرض بجوار أم تنتحب حزنا عليه وهي تهش الذباب عن وجهه وجسده حلت محل صور أطفال أفريقيا كرمز للمعاناة البشرية في وسائل الإعلام العالمية.

ردّد الناس في تلك الفترة قصة فتاتين غضتين يتيمتين عجزتا عن إعالة نفسيهما بعد أن تعرّضتا للتحرش والغواية في كل مكان عملتا فيه فقررتا في لحظة يأس أن تقوما بسكب ما وجدتاه من نفط في غرفتهما البائسة على جسديهما وإضرام النيران فيهما حتى تفحّمتا معا في كتلة واحدة تعذر فصلها في اليوم التالي... دُفِنت الشقيقتان متحاضنتين في ذات التربة التي ضمّت في أعماقها واحدا من أضخم احتياطيات النفط في العالم بينما تعالت قباب القصور الباذخة المشيّدة على سطحها.

استدعاني الضابط المسئول إلى مكتبه ذات ظهيرة لبحث تفاصيل مشروع بناء مسجد في أحد المعسكرات، قال لي إن تعليمات من الجهات العليا قد بلغته بتزيين تيجان الأعمدة الأربعة التي تسند قبة المصلى بحرفي (ص) (ح)... بقيت صامتا للحظات، استرجعت خلالها سور القرآن والحروف التي تبدأ بها علّي أعثر على مرجع للحرفين المذكورين دون جدوى.

"ما بالك تقف واجما، ألم تسمع ما قلته لك؟".

"بلى، لكنني لا أستطيع تذكّر السورة التي تبدأ بهذين الحرفين،" أجبت بكل سذاجة... ندت عن الضابط ضحكة وأدها بسرعة ثم قال موضّحا:

"إنها الحروف الأول لاسم السيد الرئيس حفظه الله ورعاه"

ضربت رأسي بباطن كفي بلا وعي، يا لحماقتي التي كادت أن توقعني في مأزق لا يُحمد عقباه... حملت أوراقي وخرائطي خارجا، نسيت أن أؤدي التحية العسكرية للضابط من شدة ارتباكي.

خلع الرئيس رداء العلمانية الذي رافقه منذ ولوجه الأول لعالم السياسة ونبذ أيديولوجيات حزب البعث العربي الاشتراكي العتيدة مستعيضا عنهما بعباءة التديّن، فجأة، صار صدام حسين سليلا للرسول وأطلق على نفسه ألقابا جديدة كـ "القائد

المؤمن" و"قائد الحملة الإيمانية"... تم أيضا توزيع نشرات وملصقات على الدوائر الرسمية حملت صفات الرئيس (التسعة وتسعين) مع شجرة نسبه التي قام بفبركتها عدد من المؤرخين الأفاقين كي تُعلّق على جدران المداخل والمخارج، أُعلن بعدها عن المباشرة بكتابة مصحف ضخم بدم القائد.

أثارت الفكرة حفيظة الكثيرين الذين رأوا فيها إهانة للقرآن وتدنيسا له، لكن الرئيس ظهر على شاشة التلفزيون مجتمعا بجوقة منتقاة من الشيوخ تباروا في الثناء على عظمة إيمانه وباركوا خطوته ومشروعه الميمون... تلا ذلك تشكيل لجنة لمتابعة تنفيذ المصحف المثير للجدل الذي تم تكليف أحد الخطاطين المهرة بكتابته وعُرض في نهاية التسعينات في متحف ضخم رغما عن أنوف المعترضين.

تغطية الشعر بين النساء وإطالة اللحى بين الرجال باتت هي الأخرى مشاهد مألوفة بعد أن كانت حتى زمن قريب تهما تستوجب المساءلة والسجن أحيانا، زوجة الرئيس الأولى ارتدت الحجاب وكذلك فعلت رئيسة الاتحاد العام لنساء العراق ثم حذت حذوهما آلاف من الرفيقات البعثيات... على أعتاب الألفية الثانية، كانت بغداد في طور التحول إلى صورة مستنسخة عن مدن التزمت بعد أن كانت تعتبر أيقونة للمعاصرة والتحرر والفنون في محيطها العربي المحافظ.

الدفق الإيماني المفاجئ ترك أثرا واضحا على نمط حياتنا، لكنه لم يكن (وحده) المسئول عن اندلاع الحزازات العرقية والعقائدية بين مكونات الشعب المختلفة فقد كان من إفرازات عقد التسعينات الأخرى النكوص إلى العشائرية ومحو هوية الفرد لصالح القبيلة، وهو ما شكّل تربة خصبة لاحتضان بذور الفتن... قرر صدام حسين فجأة أن يعيد لشيوخ العشائر سلطاتهم المنزوعة لصالح قانون مدني موحد يحكم الجميع على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وعقائدهم، تم تنصيب شخص على رأس كل قبيلة، أجزلت له العطايا مقابل أن يتعهد بالولاء المطلق للرئيس أصالة عن نفسه ونيابة عن باقي أفراد عشيرته.

استحوذت لقاءات صدام حسين مع الشيوخ (المزعومين) على نشرات أخبارنا المسائية، تخللها إلقاء الرجال المتلفّعين بعباءاتهم وأغطية رؤوسهم المميزة لقصائد بالعامية عن استعداد العشيرة لفداء أبي عدي بدمائها وأهازيج جماعية شاهدنا الرئيس وهو يتجاوب معها استحسانا بتحريك رأسه، وأحيانا يده أيضا... السلطة الجديدة

الممنوحة لزعماء القبائل تزامنت مع فساد سلك القضاء وتفشي الرشاوى بين منتسبيه، ما أسفر عن عزوف معظم المواطنين عن اللجوء إلى المحاكم لحل النزاعات فيما بينهم والاستعاضة عنها بعقد المجالس العشائرية التي باتت أحكامها ملزمة للجميع (بصرف النظر عن عدالتها)

كمثال بسيط على الوضع الجديد، كان قيام رب أسرة بمهاجمة لص اقتحم منزله بهدف السرقة يتيح لعشيرة اللص أن تطلب دية عن الضرر المُلحق بابنها (السارق) خصوصا لو كانت من العشائر الكبيرة ذات الحظوة لدى الرئيس، والتي ازدادت طلبات الانتساب لها بازدياد معدل الجرائم المرتكبة في البلد... من جهة أخرى، عندما قام عدد من الضباط المنتمين لعشيرة الجبور بالتمرّد على القيادة والسعي للانقلاب عليها، جاء عقاب الرئيس عسيرا وجماعيا، لم يستثن فردا من أبناء القبيلة التي أقصي رجالاتها عن كافة المناصب الرسمية وتم الزج بعدد كبير منهم في السجون بعد إعدام المتآمرين.

رصدت مظاهر التغيير التي طرأت على مجتمعي وعودته إلى عصور البداوة الغابرة بصمت وحسرة فقد بات على الفرد منا التعريف عن نفسه بذكر اسم القبيلة التي ينتمي إليها وشيخها وفروعها وأفخاذها... تذكرت سنوات دراستي في المرحلة الابتدائية في السبعينيات عندما صدرت الأوامر بإلغاء الألقاب وحظر التعامل بها وفق النهج الاشتراكي التقدمي الذي ادّعاه حزب البعث لنفسه في تلك الحقبة، عدت إلى بيتنا يومها وسألت أبي عن أسمي الرباعي الذي طلبته المعلمة مني فلم أكن أعرف سوى اسمي ولقبنا الذي قمت بمحوه من على أغلفة الكتب والدفاتر حسب التعليمات الجديدة فصار اسمي المتداول بين رفاقي هو علي شاكر، فقط، بلا لقب.

استراتيجية صدام حسين تلك تسببت بدمار هائل للبنية المجتمعية في العراق على المدى الطويل، لكنها أحكمت قبضته على السلطة في وقت حرج دقيق، وجعلته ينال تعاطف السُذّج من شعوب العالمين العربي والإسلامي فتدفقت سيول من المساعدات الإنسانية على البلد المحاصر الجريح، لم تكن القيادة مستعدة للتخلي عن ورقتها الرابحة في المواجهة فكان يتم حجب الأدوية والأغذية والتجهيزات الطبية عن مستحقيها وبيعها سرا في السوق السوداء لحساب أبناء الرئيس وعشيرته الأقربين، أو حتى تركها حتى تنتهي فترة صلاحيتها وتفسد في المخازن... ترويج صورة المواطن

الجائع والمريض بفعل الحصار الظالم المفروض من قبل الولايات المتحدة وحلفها الامبريالي المجرم المعادي للعراق وقائده بسبب تبني الأخير الدفاع عن قضية فلسطين العادلة ونضال شعبها ضد الكيان الصهيوني الغاصب كان من أمضى أسلحة الرئيس في الحرب التي استهدفته.

في المقابل، لم يكن القائد "المؤمن والمجاهد" مستعدا للتخلي عن مظاهر الرفاهية والعز التي رفل بها في قصوره الكثيرة التي ضمّت بين أسوارها العملاقة حيوانات نادرة، أليفة ومتوحشة كان يتم استيراد الطعام الخاص بها من الخارج ويشرف على صحتها طاقم متخصص من الأطباء البيطريين... أستمر صدام حسين بالاحتفال بذكرى عيد ميلاده (المزعوم) في نهاية شهر نيسان/ أبريل من كل عام فيطل علينا بطقم أبيض اللون، متوسّدا كرسيا مذهب ومزخرف الأطراف كي يرقب جموع من المنشدين والمنشدات والراقصين والراقصات من كافة الأعمار وهم يؤدون لوحاتهم على أنغام وكلمات تم تأليفها خصيصا للمناسبة، يتوجه بعدها لقطع كعكة عملاقة وسط زخات من أوراق الزهور التي ينثرها الحضور عليه من كل جانب.

احتفالات "الميلاد الميمون" كانت تعم العراق بأكمله في كل عام فتقوم المدارس والجامعات وسائر دوائر الدولة بتقطيع كعكات متعددة الطبقات، مخبوزة استثناءً للحدث رغم شُح السكر والدقيق والبيض في الأسواق، صور وتسجيلات الابتهاج الشعبي العارم بالمناسبة كانت تستحوّذ على كامل صفحات الجرائد وساعات بث الإذاعة والتلفزة لأسابيع بعدها... هوس القائد بعيده بلغ مدى غير مسبوق في أحد الأعوام، إذ تم صنع عربة من الذهب الخالص جرّتها الخيول، فيما راح صدام حسين يلوح بيده من داخلها محييا حشود المواطنين على امتداد الطريق، كما اعتادت ملكة بريطانيا أن تفعل في يوم عيد ميلادها.

مرّت شهور خدمتي في الجيش ببطء، توسطت الحائط في غرفتي ورقة كنت أشطب عليها كل يوم يمر، تماما كما يفعل المسجونون في زنازينهم... الوضع كان مزريا لدرجة أن الضباط كانوا يرسلون مناديا بيننا كي يعلن عن حاجتهم لإيصال أوراق ما إلى وحدة ما، عارضين منح المتبرعين إجازة مقابل كل مشوار يقومون به، حصتي من تلك الخدمات اقتصرت على حدود بغداد فالمسافات الطويلة كانت تستهلك

سيارتي التي أصبحت كلفة تصليحها وصيانتها عبئا ثقيلا مع ارتفاع أسعار المواد الاحتياطية وشحتها.

استبشرت خيرا عندما شارفت فترة الخدمة على نهايتها، لكن مفاجأة غير سارة كانت بانتظاري عندما دخلت الوحدة ذات صباح لأجد اسمي ضمن قائمة تصدّرت لوحة الإعلانات مع أمر بالمثول فورا أمام ضابط الأمن المسئول... ذكر ضابط الأمن كان كفيلا لوحده ببث الرعب بيننا فقد كان معروفا بالشراسة والغطرسة حتى بين أقرانه من الضباط الآخرين الذين حرصوا على مسايرته وتجنّب الاحتكاك به لكونه من أبناء عشيرة الرئيس.

جاء باص صغير كي يقل أصحاب الأسماء المطلوبة إلى مقر الرجل المخيف، بقينا صامتين متوجّسين طوال الطريق، عندما وصلنا أخيرا، أبلغنا مساعدوه بأنه قد خرج في مهمة عاجلة وعلينا انتظار رجوعه... أمضينا الساعات واقفين أمام بابه حتى بلغ منا التعب غايته، اقترحنا العودة في اليوم التالي، لكن الأوامر الصادرة كانت تمنع مغادرتنا دون تصريح خطي من السيد الضابط حتى لو اضطررنا للمبيت، الأمر الذي زاد من اضطرابنا.

ما الذي فعلناه كي تتم معاملتنا بتلك الطريقة؟ هل سيتم حبسنا، لكن بأية تهمة؟ ما السبيل إلى طمأنة أهلنا عنا؟

قبل حلول المساء بقليل لاح الموكب من بعيد فاصطففنا استعدادا للقاء،ترجّل ضابط الأمن من سيارته المكيفة المسروقة من الكويت ونظر لنا شزرا فسرت رعشة رعب في أجسادنا المنهكة من الانتظار والجوع والعطش، مضى إلى غرفته دون أن ينبس بحرف فجلسنا على الأرض نرقب دخول أطباق الطعام الساخن والشراب المثلّج إليه، أطل علينا أحد المرافقين أخيرا كي يبلغنا بأن نلزم الصمت فالسيد الضابط سيأخذ قيلولة قد تطول أو تقصر ولا يريد أن نزعجه بأصواتنا... انفتح الباب بعد مضي قرابة ساعتين وظهر الرجل وقد ارتدى طقم تمرين هذه المرة (مسروقا من أحد محلات بيع التجهيزات والملابس الرياضية في الكويت أيضا) انتفضنا وقوفا، لكنه لم يكترث بالنظر إلينا وراح يهرول أمامنا فيما لحق به جنديان يحملان قناني الماء البارد والمناشف كي يجفف بها عرقه.

غابت الشمس وحلّت الظلمة ونحن على حالنا ننتظر، انتصف الليل فتأكد لنا بأننا محتجزون، توقعنا وصول سيارات تقلنا إلى غياهب السجون عقابا على جرم لم نرتكبه بل لم نكن ندري ما هو، قبل بزوغ الفجر بقليل تم استدعاؤنا تباعا إلى الداخل، كان الضابط قد غادر المقر منذ ساعات وعهد إلى مساعديه بمهمة استجوابنا، سألونا أسئلة كثيرة عن أهلنا وأقاربنا، استفسروا أيضا عن ضباط وحدتنا وأكّدوا علينا بان نقوم بالإخبار عن أي تصرفات مريبة قد تبدر منهم... صدرت أخيرا الأوامر بإخلاء سبيلنا، لم نصدق أنفسنا عندما اجتزنا البوابة المحاطة بالأسلاك الشائكة، كان علينا المشي لمسافة طويلة قطعناها برفقة الكلاب السائبة التي حاولت مهاجمتنا أكثر من مرة، لكن سيرنا في مجموعات وقيامنا برمي الحصى باتجاهها دفعا أذاها عنا حتى بلغنا الشارع العام، كل من كان معي في تلك الليلة العصيبة أقسم بأن يهاجر من العراق في أقرب فرصة ممكنة.

... جاء الفرج أخيرا!

قطعت الدرب الترابي سعيدا ومستبشرا بوثيقة تسريحي من الجيش التي صدرت بعد طول انتظار، ممهورة بختم وتوقيع ضابط الأمن المخيف... حملتها بيدي وأنا أكاد أطير فرحا، مررت بعدد من الجنود المتوجهين نحو البوابة بوجوه بائسة، قرأوا مظاهر البشر والسرور بادية على ملامحي فقاموا بتهنئتي رغم أني لم أكن أعرف أيا منهم، ردّدت أصواتهم:

"مبروك، يوم اللي النا... آمين يا رب!"

باشرت في اليوم التالي رحلة الحصول على موافقة للسفر، وهي عملية معقّدة تطلّبت مخاطبة كافة الوحدات التي سبق لي الخدمة فيها... كنت منغمسا في مراجعاتي للدوائر الرسمية عندما طلعت علينا نشرات الأخبار بخبر عاجل عن فرار الفريق حسين كامل وشقيقه صدام وزوجتيهما (ابنتي الرئيس) وأبنائهم من العراق وطلب الجميع الحصول على اللجوء السياسي في الأردن وإعلانهم الانقلاب على النظام والانضمام إلى فصائل معارضيه في الخارج.

أمضينا النهار في حالة ذهول تام، لم نكن نعلم شيئا عن سر التغير المفاجئ في ولاءات أقطاب العائلة الرئاسية الذي تزامن مع قيام عدي بإطلاق النار على عمه وطبان وهو مخمور فأصابه في رجله بجرح عميق... قبل أن تنطلق إشارة نشرة

الأخبار المسائية الخاصة بإذاعة مونتي كارلو كنت قد أعددت العدة لتسجيل الموجز على شريط خاص بي، أردت توثيق ما حدث وسماعه المرة تلو الأخرى علّ ذلك يجعلني أستوعب ما بدا خيالا وهلوسات، كبست الزر بمجرد أن راح المذيع يقرأ العناوين بلكنة ثقيلة، أعقب الموجز تسجيل لصوت الصهر الهارب وهو يجيب على أسئلة طُرحت عليه في مؤتمر صحفي تعهد فيه بكشف المعلومات المتعلقة بترسانة العراق من الأسلحة المحرّمة وأعلن رسميا دعوته لإسقاط حكم صدام حسين.

أعقب وصول حسين كامل إلى عمّان خضوعه لجلسات استجواب طويلة ومكثفة مع مندوبي أجهزة الاستخبارات الأمريكية الذين استدرّوا كل ما في جعبته من معلومات، لم يلق صهر الرئيس الحفاوة التي كان يتوقعها من المعارضة العراقية التي ارتابت لفراره المفاجئ ورفضت التعاطي معه خشية أن يكون الأمر برمته خطة أعدها صدام حسين لاختراق صفوفها... انحسرت الأضواء تدريجيا عن الرجل الذي كان طامحا لاعتلاء سدة السلطة في بغداد وانتهى المطاف به لاجئا دون امتيازات تذكر، بدأت حالته النفسية بالتدهور أكثر بعد شجاره مع أحد الصحفيين الأردنيين الذي هدّد بمقاضاته بسبب تعدّيه عليه.

لم يرق الأمر لكبرياء كامل الذي اعتبر ما حدث إهانة شخصية له وإشارة بأن وجوده في عمّان لم يعد مرغوبا فيه... استمر توافد رسل النظام إلى العاصمة الأردنية خلال تلك الفترة لإقناع الفريق العاق بالعدول عن موقفه والعودة مع شقيقه وابنتي الرئيس وأحفاده إلى العراق مقابل تعهد القيادة بالصفح عنه وعدم التعرض له بسوء بل وحتى إعادة سلطانه المفقود له.

في تلك الفترة كان مشروع الهجرة الذي حملني إلى عمّان ثم اسطنبول قد باء بالفشل الذريع وضاع معه كل الجهد والوقت والمال الذي استثمرته فيه، قطعت الطريق البري الطويل بين العاصمة العراقية والأردنية جارا أذيال الخيبة وممنيا النفس بمستقبل أفضل لي ولأهل بلدي عندما يرحل صدام ذات يوم، لم يدر بخلدي قط أن حسين كامل سيبتلع الطعم المسموم ويسلك ذات الطريق الذي سلكته إلى بغداد بعد شهور قليلة من وصولي إليها... أخرجت الشريط من مخبأه في الدرج وكبست زر التسجيل للمرة الثانية وأنا غير مصدّق ما تلاه المذيع في راديو مونتي كارلو عن إعلان الفريق اللاجئ ندمه على فعلته وقراره الصادم بالرجوع إلى حظيرة الرئيس.

هل جُنّ حسين كامل أم أنه ساذج إلى درجة أن تقنعه الوعود المقطوعة له بالغفران؟ ألا يدرك هول فعلته التي مرّغت أنف الرئيس وعشيرته في وحل المهانة؟ أليس هو تلميذ صدام النجيب الذي ما كان لينال ثقته لولا قيامه بمهام تصفية خصومه تباعا، بمن فيهم رجال من أبناء عشيرته ومدينته؟ هل توهّم بأن العفو مفردة موجودة في قاموس الرئيس؟ هل تعرّض لعملية غسل دماغ؟

على عكس رحلة الفرار السرية، رصدت وسائل الإعلام عبر مراسليها ومصوريها عبور قافلة التائبين خط الحدود بين العراق والأردن، نقل بعض المراقبين أن عدي صدام حسين كان باستقبال الركب عند وصوله وأنه قد أوعز على الفور بتفريق الرجلين عن ابنتي الرئيس وأحفاده الذين حملتهم طائرة مروحية إلى أحد القصور الرئاسية... في مساء الجمعة، أطل مذيع نشرة الأخبار كي يتلو علينا قرار قاضي محكمة الأحوال الشخصية بتطليق حسين كامل وصدام كامل من رغد ورنا صدام حسين بموجب الطلب الذي تقدّمتا به، التمثيلية لم تنطل على أحد فأية محكمة تلك التي تفتح أبوابها في يوم العطلة الرسمية وأية قضية طلاق تلك التي يصدر الحكم فيها خلال ساعات؟

تواترت الأنباء عن محاصرة الحي الذي أقام فيه حسين وصدام كامل مع أقاربهما وتوافد سيارات صبية ورجال العشيرة عليه، حرص عدي وقصي على التواجد والمشاركة في عملية غسل العار بعد اتخاذ كافة الترتيبات التي تضمن سلامتهما الشخصية... انهمرت الطلقات النارية على المنزل فقابلها المتمترسون في داخله بالمثل، اندلعت معركة دامية بين الطرفين استمرت لفترة ليست بالقصيرة وأسفرت عن مقتل حسين وصدام كامل بأيدي أبناء الأعمام الغيارى، قال الشهود أن علي حسن المجيد (الكيمياوي) قد سار نحو جسد ابن أخيه المضمخ بالدماء وسحق جمجمته تحت قدمه قبل أن يطلق عليها رصاصة نثرت أشلاءها على الإسفلت.

انتهى فصل تسرد صهري الرئيس بقتلهما حسب العرف العشائري فخلت بذلك الساحة لعدي صدام حسين الذي امتد نشاطه ليشمل قطاع الإعلام أيضا فجريدة "بابل" التابعة له أمست أكثر الصحف مبيعا لنشرها أولا بأول الأخبار المتعلقة بمعيشة الناس مع حوارات ومقالات هاجمت المسئولين بشراسة ما كانت أية مطبوعة أخرى لتجرؤ على مجاراتها، أطلق ابن الرئيس كذلك قناة تلفزيونية دشنت عهدها بعرض فيلم أجنبي

تضمن مشاهد جنسية وعريا صادما ضمن للمحطة على الفور نسب متابعة ضخمة بين صفوف المراهقين والشباب وسواهم في وقت قاتم كان العراقيون فيه بأمس حاجة إلى وسيلة ترويح عن النفس... لم يعد أحد يتابع بث قناتي التلفزيون الرسميتين مع سيل المواد المُنوّعة المعروضة على شاشة تلفزيون "الشباب" التي ملأت ساعات بثها بأفلام وبرامج ومسلسلات وحفلات مقرصنة من القنوات الفضائية (عربية وأجنبية) المحظورة بحكم القانون على باقي المواطنين.

١٩٩٦ كانت ستكون سنة عدي صدام حسين بلا منازع لولا أنها أبت أن تنتهي دون أن تصدمنا وتصدمه بحدث فاق كل ما سبقه فقد قطع تلفزيون الشباب برامجه الغنائية المنوّعة ذات مساء شتوي بارد كي يعلن عن تعرّض صاحب القناة لمحاولة اغتيال آثمة تم نقله على أثرها إلى المستشفى وهو بحالة حرجة... كنت في غرفتي عندما دخلت والدتي عليّ وهي ممتقعة الوجه وراحت تشير بيدها وتحرك شفتيها بمهمهات لم أفهمها في بادئ الأمر، أومأت لي بأن أتبعها إلى غرفة المعيشة حيث كان المذيع لا يزال يقرأ بيانه الصدمة، وقفنا ننظر لبعضنا البعض غير مصدقين.

من يجرؤ على فعلة كهذه؟

عقولنا المبرمجة لتقبّل طروحات المؤامرة شطحت نحو احتمالية أن يكون صدام حسين وراء العملية بعد أن فاض الكيل به من تصرفات ابنه الأكبر وتطاوله المستمر على سلطانه، كان الرئيس قد أوعز قبلها بحرق أسطول السيارات الثمينة الرابضة في مرآب اللجنة الأولمبية والتي كان عدي رئيسا لها عقابا له على تماديه في مجونه وشططه، ربما كان قصي الذي عرف بهدوء مظهره ودموية أفعاله هو من دبّر للاغتيال وخطّط له فالغيرة والتنافس بين الشقيقين لم يكونا خافيين على المحيطين بهما، أو لعل للفاعل كان واحدا من أقارب الشقيقين كامل أراد الثأر للمجزرة التي تسببت بمقتلهما قبل شهور، أو حتى أبناء وطبان التكريتي الذي بات معاقا بعد أن أطلق ابن أخيه الرصاص على رجله، أو ربما أحد الأحزاب المعارضة للنظام ... دائرة الاتهامات اتسعت لتشمل كل من طاله أذى ابن الرئيس، وما أكثرهم!

روايات شهود العيان أكدت بأن سيلا من الطلقات النارية انهمر على سيارة عدي عند ظهورها المعتاد في ليلة الخميس حين تكون محلات حي المنصور وشوارعه مكتظة بالمارة فيقوم ابن الرئيس بمراقبة الفتيات عن بعد وتوجيه دعوة (عن طريق

أحد المرافقين) لمن يروق جمالها له من بينهن للصعود مع "الأستاذ" وتمضية "السهرة" بمعيته... العوائل المحافظة كانت تتجنّب التواجد في تلك المنطقة في ذلك التوقيت بالتحديد درءا للخطر والشبهات، الأمر ذاته شهدته النوادي الاجتماعية التي كان الأعضاء والعضوات فيها يتسلّلون لواذا بمجرد ظهور عدي تجنبا لاحتكاك محتمل مع أحد من رجال حمايته الشرسين والذين كان يعهد إليهم باصطياد الصبايا الجميلات، كثر قاموا بهجر النوادي وإلغاء عضويتهم فيها نهائيا بعد تكرار وقوع المشاكل.

بقي ابن الرئيس طريح فراشه في المستشفى لفترة طويلة، أجريت عليه خلالها سلسلة من العمليات الجراحية المعقدة بالاستعانة بعدد من الجراحين العالميين أسفرت في مجملها عن تمكينه من المشي مرة أخرى (ولو ببطء ملحوظ) كما تردّدت أقاويل عن استحالة معاشرته للنساء مرة أخرى... أعلنت وسائل الإعلام قيام الأجهزة الأمنية بإلقاء القبض على منفذي العملية وتم تنفيذ أحكام الإعدام الصادرة بحقهم سريعا، لكن الغموض بقي يلف الأمر ومن وقف وراءه ودبّر له، خصوصا مع تواتر ظهور أفراد وجماعات، نسبت كل منها تنفيذ المهمة لنفسها ومن أجل قضيتها.

تركت الحادثة أثرا جليا على شخصية عدي التي باتت أكثر عدوانية من قبل وأكثر نهما إلى السلطة والمال اللذين راح يعب منهما عبا بعد توقيع العراق لمذكرة تفاهم مع الأمم المتحدة حول ما عُرِف ببرنامج النفط مقابل الغذاء والذي سمح ببيع كميات إضافية من النفط الخام (تحت مراقبة دولية) لتمويل استيراد مواد غذائية وأدوية وسواها من الاحتياجات الإنسانية الأساسية للشعب المحاصر منذ سنوات... الاتفاقية التي بالكاد شعرت الغالبية المطحونة من المواطنين بأثر لها على حياتها اليومية، أفرزت شريحة مجتمعية فاحشة الثراء من الوسطاء الذين قاموا بعقد صفقات بعشرات بل مئات الملايين من الدولارات لحساب ابن الرئيس، كانت عوائدهم من فتاتها كفيلة بتوفير حياة باذخة لهم ولأجيال قادمة من أهلهم.

شهدت أحياؤنا موجة تشييد غير مسبوقة لقصور فارهة كانت تدير أعناق كل من مر بجوارها كما اجتاح بغداد المحاصرة سيل من المطاعم الفخمة ومحال بيع الألبسة باهظة الأثمان ووكالات السيارات العالمية وغيرها من بضائع الرفاهية، جميعها مملوكة لسماسرة الحرب الجدد بشراكة غير معلنة مع عدي صدام حسين، لكن الاستثمارات الضخمة لم تقتصر على السوق المحلية بل تعدتها إلى أسواق العقارات

والأسهم في الدول المجاورة أولا ثم توسّعت في كافة الاتجاهات بعد ذلك لتشمل مدن أوروبا وآسيا وسواها من حواضر العالم... عقدت الدهشة ألسنة زائري العراق خلال تلك الفترة بسبب البون الشاسع الذي فصل بين أفراد المجتمع الواحد فشطر من العاصمة كان متخما يمضي لياليه في حفلات اليخوت والنوادي بحضور أبرز نجوم الفن العربي، وشطر آخر معدم كان يتسوّل المال ويعتاش على ما يعثر عليه من فتات في أكوام الزبالة، بين هذا وذاك، عاش من بقي في البلد من أصحاب الشهادات دون الكفاف بانتظار مرتب شهري ضئيل لم يكن يسمن من جوع أو يشفي من مرض.

الشريحة المُستحدثة فرضت معايير مجتمعية وقيما خاصة بها عكست طبيعة رحلة صعودها السريع نحو الثروة ونهم رغباتها واجبة الإرضاء بأي ثمن، مبتلعة في طريقها الإرث الليبرالي للطبقة المتوسطة المتعلمة الذي كان قد أعطى العراق دوره الطليعي بين الأمم النامية في أواسط القرن العشرين... أطلق العوام تسمية "رئاسي" على كل مبتذل ومتكلف من البضائع فشهدنا ظهور الجاكيت الجلدي الرئاسي لشبهه بما ارتداه الرئيس وابنه وحاشيتهما، كذلك الدور القميئة ذات التصميم الرئاسي الزاعق المنفر، حتى النعال الرئاسية راجت تجارتها فغمرت أسواقنا نسخا رخيصة عنها (صينية المنشأ) تهافت البسطاء على شرائها كرمز للأناقة والوجاهة.

مع اقتراب نهاية الألفية الثانية، كان ابن الرئيس الأكبر يترأس جمهورية ظل في العراق فالرياضة والإعلام والتجارة والصحة والتعليم وسواها من القطاعات الخدمية الحيوية كانت كلها خاضعة لنفوذ عدي صدام حسين الذي بات نقيبا للصحفيين بالإضافة لرئاسته الممتدة للجنة الأولمبية سيئة الصيت وإدارته لسوق هائلة لتجارة العملة الصعبة عن طريق شبكة مختارة من الباعة والوكلاء في مختلف أحياء العاصمة والمحافظات... الدينار كان لا يزال عملتنا الرسمية المتداولة، لكن على أرض الواقع، عمليات البيع والشراء على اختلاف أنواعها (بما في ذلك الرشاوى) كانت مرتبطة بالدولار الأمريكي الذي بلغ ثمنه آلافا عدة من الدنانير.

مؤسسات ابن الرئيس، شأنها شأن أي كيان سياسي أو اقتصادي ضخم وطموح، كانت بحاجة لقوة لتأمينها وتكريس سيادتها على الأرض... في تلك الفترة كان عدي يمنح أموالا لضباط الجيش المتقاعدين الذين يقومون بتسجيل أسمائهم في ديوان مقره فالمعاناة تحت وطأة غلاء الأسعار وضعف الرواتب التقاعدية لم تكن خافية

على أحد ولم تستثن العسكريين السابقين، أثار الأمر حفيظة البعض في بادئ الأمر وتردّدهم خشية أن يُعد فعلهم تمردا على سلطة الرئيس وانقلابا عليه، لكن غياب رد الفعل من القيادة اعتُبر موافقة ضمنية منها شجعت الآلاف على التوافد على ديوان عدي صدام حسين لإعلان الولاء له ونيل رضاه ودعمه.

عرضت القناة الخاصة بابن الرئيس أفلاما لتدريبات ميليشياته التي ارتدى أفرادها السواد ولثموا وجوههم به وهم يصارعون الأفاعي والكلاب الشرسة ويمزقونها إربا قبل أن يفترسونها نيئة مضمخة بدمائها، الفصائل الجديدة كانت توازيها عدة وتدريبا القوات الخاصة التي تشكّلت عقب الحرب وكان لقصي صدام حسين إشراف مباشر عليها بالإضافة لمهامه الأمنية الأخرى... بين هذه وتلك، عانت مؤسسة الجيش التقليدية من نقص حاد وخطير في التمويل كما ذكرت في البداية، فتم تدارك الأمر باستدعاء دفعات المواليد المُسرحة تباعا لأداء خدمة الاحتياط.

الخبر الذي كان لصحيفة "بابل" سبق نشره أثار عاصفة من الاستياء في الشارع العراقي فالناس جياع والفقر مستشري كالوباء، المُسرحون الذين تم استدعاء مواليدهم كانوا مستنزفين نفسيا وماديا، يعملون في أكثر من مهنة في اليوم مقابل مبالغ زهيدة كانت بالكاد تكفي لسد رمق أسرهم في ظل وضع اقتصادي خانق، أنى لهم نبذ التزاماتهم لشهور بغية التفرغ لأداء خدمة الاحتياط تلك؟ وما الذي يضمن لهم أن الأعمال التي سينقطعون عنها ستبقى بانتظار عودتهم عند انتهاء مدة السوق؟ من سيتكفّل بإطعام أهلهم خلال شهور غيبتهم، وما الداعي لخطوة كهذه والجميع يعلم ضعف إمكانيات الجيش وعدم قدرته على إطعام منتسبيه الأصليين من ضباط وجنود؟

تجلّت الغاية من الاستدعاء عندما التحقت أولى المواليد بوحدات التدريب لتجد عروضا جاهزة بانتظارها، شبيهة بعروض المحال التجارية في مواسم التنزيلات:

إن كنت لا تطيق الخدمة العسكرية فلا تبتئس، ادفع المال مقابل حصولك على كتاب التسريح عند نهاية المدة المقررة!

تفاوتت قيمة الإتاوات المفروضة تبعا للوضع المادي للمُجنّدين، الأكثر ثراءً كان عليهم الدفع بالدولار الأمريكي، أما أصحاب الحرف فكان يطلب منهم تقديم مواد تموينية أو أثاث أو أجهزة كهربائية أو حتى علب سجائر مستوردة، يقوم الضابط المعني باستلامها في داره دون خجل من جار أو وجل من رقيب... القرار كان ذا بعد

أمني أيضا فقد ترك الجميع مهمومين، يترقّبون جداول المواليد المُرشّحة للخدمة والتي أصبحت حديث الناس وشغلهم الشاغل، كانت تلك وسيلة خبيثة (لكنها فعّالة جدا) لتدجين الشعب وإلهائه عن تفاقم سوء الأوضاع المعيشية.

نزل الخبر علي وعلى رفاقي كالصاعقة،هرعنا جميعا لشراء نسخ من جريدة "بابل" كي نتأكد من استدعاء مواليدنا، ظننا في البدء أن الجداول ستستثني المواليد المُسرحة حديثا من الخدمة ونحن من بينها، لكن الخطة كانت أن يتم الاختيار بشكل عشوائي لا يترك هامشا لالتقاط الأنفاس لأي كان... في الموعد والمكان المحدّدين وقفت مع صديق لي في طابور طويل أمام بوابة الوحدة بانتظار أن يقوم الضابط المسئول بتوزيعنا على الفصائل كما في المرات السابقة، كنا قد عقدنا العزم على دفع المبلغ الذي سيطلبونه منّا حتما في أقرب فرصة، والتي جاءت أسرع مما توقعنا.

خرج الضابط لتفحّص الصف المترامي دون أن ينبس بكلمة، أشار لرفيقي الذي كان قد اعتزل الهندسة وافتتح له محلا تجاريا لبيع الأغذية المستوردة أن يتبعه، وزن صديقي كان قد ازداد بشكل ملحوظ مؤخرا بسبب عمله الذي أتاح له تذوق شتى الأطايب على مدار الساعة دون بذل مجهود بدني يذكر، قوامه الممتلئ أغرى الضابط على انتقائه كصيده الأول... أشار المتفاوضان لي أن أنضم إليهما بعد فترة وجيزة، لم أصدق أذني عندما سمعت رفيقي وهو يفاصل الضابط على مبلغ الصفقة كما اعتاد أن يفعل مع رواد محله، بدا لي ذلك طفرة في أسلوب التعاطي مع الضباط بالمقارنة مع تجاربنا السابقة في معسكرات تدريب الطلبة ثم خدمة الجيش الإلزامية التي خرجنا منها قبل شهور.

أُبرِم العقد شفهيا وأعطانا الضابط بطاقة صغيرة تحمل رقم هاتفه وعنوان مكتبه في وسط بغداد كي نراجعه لتسديد نصف القيمة المتفق عليها، حملنا المال في المساء وتوجهنا إلى الموقع المحدد فوجدنا الضابط جالسا خلف مكتب خشبي، يحيط به عدد من أقاربه والأصدقاء والمراجعين... قام باستلام المبلغ منا ودسّه في أحد الأدراج ثم زودنا بما يشبه الإيصال بقيمة المال المستلم والمتبقي بعد أن تعهد أمامنا وأقسم بأغلظ الأيمان بالا يكون كتاب التسريح الذي سنحصل عليه مزوّرا في سوق "مريدي".

شهرة السوق سيء السمعة كانت قد بلغت الآفاق وأمسى قبلة للراغبين في الحصول على وثائق رسمية وشهادات مدرسية وجامعية ودفاتر خدمة عسكرية

وجوازات مزوّرة، كثير من العراقيين المهاجرين إلى ليبيا واليمن مثلا مروا بسوق "مريدي" لشراء شهادات عليا وأطروحات أعانتهم في الحصول على فرص عمل في البلاد الغريبة، جودة التزوير كانت تختلف من محل لآخر وميزانية لأخرى فكل شيء بسعره... كثير من وثائق "مريدي" كانت صادرة بالفعل عن الدوائر المعنية وتحمل أختامها الرسمية وتواقيع موظفيها بمضمون يلبي رغبة الزبون، لكن البضائع المعروضة لم تكن مقتصرة على الكتب والهويات بل شملت أيضا المخدرات والحبوب المهدئة المطلوبة بشكل متزايد من فئة الفقراء المعدمين الذين كنا نراهم وهم يجوبون الشوارع والميادين بأسمالهم المُقطّعة ونظراتهم الزائغة، يتسولون الطعام من المارة والمال لابتياع المزيد من "الكبسولات" حتى أطلق الناس عليهم تسمية "المُكبسلين".

عند نهاية فترة خدمة الاحتياط المقررة، حملنا وثائقنا مدفوعة الأثمان إلى مركز التجنيد وسلّمناها إلى الموظف المسئول بأيدي مرتجفة، مضت ساعات قليلة قبل أن يخرج أحد الجنود لينادي أسماءنا ويقذف نحونا دفاتر الخدمة الخاصة بنا، تأمّلت الأختام والتواقيع على صفحة التسريح في دفتري وأنا غير مصدق أن كل شيء قد تم على خير ما يرام... المال كان كلمة السر القادرة على فتح أعتى الأبواب وحل أعصى المشاكل في نهايات التسعينيات، كل من مرّ بمثل تلك التجارب من أبناء جيلي خرج منها بيقين مفاده أن أسطورة الجيش العراقي القوي الباسل قد ولّت إلى غير رجعة.

أمسى بلدنا كيانا هشا نخره الفقر والفساد، كان يكفي أن تهب ريح عابرة كي تجعله يتهاوى على رؤوس من فيه، فكيف لو كان القادم إعصارا عاتيا مدمرا؟

الفصل الأخير

جلست في السيارة لألتقط أنفاسي قليلا ريثما أراجع فقرات القائمة الطويلة، لا يزال أمامي كثير من المهام كي أنجزها، حملت في الأمس كيسا من الطحين الأسمر إلى امرأة قروية اتخذت لها من حديقة مبنى منتدى ثقافي مهجور مقرا لممارسة نشاطها في تجهيز وشي أقراص الخبز الرقيق اليابس الذي يبقى صالحا للاستخدام على مدى أسابيع ولا يحتاج إلى تخزين في المجمدة كنظيره الطري... كما في كل مرة، محطات توليد الكهرباء ستكون على رأس قائمة المنشآت المستهدفة.

أعباء التحضير للحرب القادمة وقعت على كاهلي بالكامل هذه المرة فقد هاجر أخي من العراق قبل سنوات، كان عليّ تهيئة خزين ضخم من النفط والبنزين ودفن حاوياتهما في أركان حديقتنا وتجميع المزيد من اسطوانات الغاز وربطها بالسلاسل والأقفال منعا للسرقة، الوقود سيشح خلال فترة القصف وما سيليها، لا شك في ذلك... كنا قد ابتعنا مولدة صغيرة بعد أن امتد انقطاع التيار اليومي إلى ساعات وأحيانا أيام متصلة، قمنا بتركيب عجلات لها وكنا نسحبها إلى داخل البيت بعد انتهاء مهامها في الليل، أما في النهار فكانت تربض مزمجرة إلى جوار الباب الرئيس، مربوطة بسلسلة ملتفّة حول قضبان أحد النوافذ خشية أن يسرقوها هي الأخرى.

... كل شيء عرضة للسرقة في عراق الألفية الثالثة.

رسمت دائرة حول مهمتي التالية على القائمة، سأتوجه إلى المستشفى الأولمبي العائد إلى ابن الرئيس كي أشتري منه خزينا من أدوية الأمراض المزمنة الخاصة بوالدي ووالدتي يسد حاجتهما خلال الأسابيع والشهور القادمة فلا أحد يعلم كم ستستمر الحرب هذه المرة وما الذي ستسفر عنه... المبنى الذي احتلته المؤسسة سيئة الذكر والصيدلية الملحقة بها (التي احتكرت بيع معظم الأدوية الواردة عن طريق المنظمات الإنسانية لإغاثة مرضى العراق بأثمان باهظة للموسرين) كان في الأصل مستشفى للولادة مملوكة لطبيب شهير قبل أن يستحوذ عليها عدي صدام حسين، المفارقة أني أبصرت النور في تلك المستشفى خلال أيام مجدها، قبل أربع وثلاثين عاما بالتحديد.

... يا لسنوات العمر التي مضت سريعا بين حروب وخوف وبؤس، وأمل.

نعم... يجب أن أتمسك بالأمل، فلا خيار آخر أمامي!

الحفاظ على عائلتي والوصول بمركبها إلى أقرب شاطئ آمن خلال العاصفة الهادرة القادمة كانا على رأس أولوياتي... *من يدري، ألا يمكن أن تحمل الأيام القادمة لنا الفرج الذي انتظرناه طويلا؟ ألا يمكن أن تطيح بالرئيس وعشيرته ورفاقه الفاسدين من السلطة؟ أليس هذا ما كنا نهفو له؟ ما بالي الآن وقد بتنا أقرب ما نكون إلى تحقيق الهدف المنشود أحس بخوف عارم واضطراب؟ لكن، هل حقا أريده أن يذهب، وهل أنا مستعد للتعاطي مع غيابه؟ كيف يمكن أن يكون وجه العراق بلا صدام وأسرته؟*

تنبّهت فجأة لحقيقة مريعة مفادها أن صدام حسين لا يمثل لي ولجيلي واقعنا اليومي وكوابيس ليلنا فحسب، بل هو أيضا تاريخنا وثقافتنا التي تمحورت حوله عبر العقود... في عالم الطب، يتردّد الجراحون ألف مرة قبل اتخاذ قرار استئصال ورم خبيث استوطن جسد مريض لسنوات، كثر منهم يرفضون التورط في مغامرة مثل تلك فالجسم المصاب يعتاد على الورم بعد فترة، يخضع له ويذعن لافتراسه لأعضائه الواحد تلو الآخر، بل انه يقاوم بشراسة أية محاولة لانتزاعه منه فقد صار مكونا وهوية له.

... تُرى، كيف يمكن أن يكون شكل عراق ما بعد صدام؟

مجرد ذكر مفردة "ما بعد" أصابني بالتوتر، لكن أين هو الرئيس الآن؟ لقد قلّ ظهوره الإعلامي بشكل ملحوظ وباتت خطبه الأخيرة أقرب إلى النذُر والهلاوس، ضمّن أشهرها تهديدا صريحا بأنه لن يترك منصبه إلا وقد تحوّل البلد إلى خراب يباب... تداول الناس أخبار مزيد من زيجاته السرية، تارة من قريبة أحد الوزراء وأخرى من سيدة فاتنة التقاها بالصدفة، لكن هاجسا جديدا كان قد استحوذ على صدام حسين وصيّره أديبا، يؤلّف الروايات التي صدرت تباعا وحملت عبارة "رواية لمؤلفها" دون ذكر لاسمه الصريح، خجلا أو ترفّعا ربما.

رغم اختلاف عناوينها وأغلفتها، تشابهات حبكات الروايات الرئاسية بل كادت أن تتطابق: الملك أو الحاكم الهمام الذي تقع في غرامه صبية حسناء ويتربّص به الأعداء، لكنه (حتما!) يخرج من الصراع ظافرا منتصرا، الأسلوب الشعري المتكلّف وشى بكتّاب النصوص الحقيقيين الذين عهد إليهم "القائد" بصياغة أفكاره الملحمية فمضوا يزخرفون ويمجّدون حتى نالوا الرضا وجزيل العطاء المتمثّل بدور وسيارات جديدة تم منحها لهم... على أرض الواقع، كان صدام قد أمسى صورة وشبحا

الحاكمان الفعليان للعراق كانا عدي وقصي ومن بعدهما أبناء العمومة وأفراد القبيلة، الرفاق الحزبيون القدامى من أمثال طارق عزيز وطه رمضان والدوري وسواهم باتوا دمى من القش، يتلقّون أوامر الشبلين الرئاسيين وهم صاغرون

ضربات يد صانعة الخبز القروية على سيارتي انتشلتني من استغراقي في تأملاتي، قمت بفتح الصندوق كي تضع فيه تلال الأقراص التي حملتها ثم مددت يدي بالأجر الذي اتفقنا عليه مع نزر يسير من البقشيش، فلا مجال للسخاء وسعر الدولار الواحد في السوق السوداء قد قارب بلوغ حاجز آلاف خمس من الدنانير... أسرعت للحاق بعملي في قاعة العرض الصغيرة التي افتتحتها قبل سنوات مع رفيق خدمتي العسكرية، مهندس السيطرة والنظم العائد من الولايات المتحدة، اختصاص شريك عملي الأكاديمي لم يعد موضع طلب في سوق العمل (الرصين) هو الآخر، كل من بقي من زملاء دراستنا في العراق ولم يهاجر افتتح له محلا هنا أو دكانا هناك، البعض كان يبيع السجاد والآخر الملابس أو الطعام، أو حتى يضارب في سوق العملة الصعبة، بضاعة محلنا كانت الفن.

بعد تسريحي من الجيش وفشل محاولتي الأولى للهجرة، واجهتني صورة قاتمة لممارسة العمارة في العراق حتّمت علي اتخاذ قرار صعب: إما أن أتخلى عن فكر وأخلاقيات المهنة التي تعلمتها وشغفت بها فأجني المال الوفير من تصميم قصور محدثي الثروات من عشيرة الرئيس وسماسرة النفط وتجّار المساعدات الإنسانية التي غزت العاصمة وعكست ذوقا منحطا وبذخا منفرا في كل تفاصيلها، أو أن أطوي صفحة العمارة تماما وأبحث لي عن مصدر رزق آخر... القرار الذي اتخذته بدا ساذجا للمحيطين بي، لكنه حقق لي قدرا أدنى من احترام الذات كنت بحاجة إليه.

في سنوات عجاف كتلك التي كنا نمر بها، قيم الذوق السليم كانت توشك على الاندثار أمام سيل السوقية الجارف، ولذلك فقد سعينا إلى إيجاد منفذا لأنفسنا ولسوانا من أصحاب المواهب الشابة لعرض وبيع الأعمال الفنية والحرفية مقابل هامش بسيط من الربح كنا نضيفه على السعر الذي يحدده كل فنان لقطعه، استوحينا فكرتنا من تجارب أوروبية رومانسية في بدايات وأواسط القرن العشرين وسعينا لتطبيقها في عراق التسعينيات المُحاصر... بعد سنوات قليلة، بات لمشروعنا صيتا حميدا بين أوساط الفنانين والذواقة في العاصمة على الرغم من مردوده المادي الزهيد، كنا نبتهج

لاستقبال الزوار في قاعتنا الصغيرة وتعريفهم على الأعمال وأسماء مبدعيها، كثير من معروضاتنا وجد طريقه إلى خارج العراق كهدايا من صنع فناني بلدنا.

كنت في غرفتي ذات مساء، ارتدي ملابسي استعدادا للتوجه إلى القاعة عندما استوقفتني مشاهد متتابعة بثها التلفزيون الصغير لبرجي التجارة العالمية الشهيرين في نيويورك وقد انبعث من أحدهما دخان كثيف أسود.

خبر عاجل: اصطدام طائرة ركاب ببرج التجارة العالمية في نيويورك.

ما أن انتهيت من قراءة السطر حتى شاهدت طائرة ثانية وهي تتوجه نحو المبنى وترتطم ببرجه الثاني، مصدرة كرة ضخمة من اللهيب، اتسعت حدقتا عيني، مستحيل أن يكون ذلك حادثا غير مدبّر، ابتلعت ريقي بصعوبة ثم تركت الغرفة مسرعا كي أتابع تطورات وتبعات الانفجارين مع عائلتي في الطابق السفلي، أردت أن أثبت لنفسي بأن ما حدث للتو لم يكن حلما، الجميع كانوا في حالة ذهول مثلي، حتى زائري المعرض الذين علّق أحدهم بأن الولايات المتحدة تعيش رعب فيلم خيال علمي شبيه بتلك التي اعتادت ستوديوهاتها الضخمة في هوليوود على إنتاجها... أمضيت تلك الليلة بلا نوم، أتنقل بين محطات الإذاعة وتقارير مراسليها ومحلليها.

اسم صدام ذُكِر المرة تلو الأخرى كمشتبه به، البيت الأبيض لم يؤكد أو ينفي تورّطه، لكنه توعّد برد صارم على مدبّري العمل الإرهابي فيما راح الخبراء يرسمون سيناريوهات مخيفة لانتقام القوة العظمى الجريحة لم تستثن احتمالية اللجوء إلى أسلحة فتاكة غير تقليدية، أمضيت اليوم التالي في دوامة من التوجس والرعب والخوف على مصير أهلي، خفّ توتري قليلا بعدما أعلنت القاعدة مسئوليتها عن الجريمة فتأكّد لنا بأن أفغانستان ستكون هدفا لهجوم كاسح تشنّه عليها الولايات المتحدة قريبا... لمّح عدد من التقارير إلى أن صدام والعراق لن يكونا في مأمن من الغضب العارم في ظل الحرب التي أعلنها الرئيس الأمريكي ضد الإرهاب.

... لكن، ما ذنبنا نحن؟ ألا يكفي البؤس الذي نكابده تحت حصار قاس وظالم؟ هل سنحيا ونموت ونحن نسدد فواتير هوج وحماقة رئيسنا؟

ماجت الأسئلة في رأسي وأنا أطلب على الهاتف موعدا مع صاحب شركة لحفر الآبار المنزلية، اللجوء إلى المياه الجوفية اختراع استدعاه تكرار انقطاع ضخ مياه الشرب بالتزامن مع الحروب السابقة ولاقى رواجا هائلا بين أهل بغداد خ

تحضيراتهم للحرب الوشيكة، السكرتيرة التي ردّت على مكالمتي أبلغتني بأن جدول العمل لديهم مكتظ بشدة ولا يسمح بإضافة مزيد من الطلبات، لكنها وعدت بوضع اسمي على قائمة الانتظار والاتصال بي حالما تسنح الفرصة لذلك... الخطة البديلة كانت شراء وتخزين مزيد من قناني المياه المعدنية التي تجمّعت صناديقها في مخزن بيتنا حتى احتلت جدارا كاملا فيه.

تمحور حديثنا في المساء حول توقعات الأحداث في الأسابيع القادمة، هل ستكون هناك حرب أم أن صدام حسين سيرضى بالتخلي عن منصبه في اللحظة الأخيرة كما اشترطت الولايات المتحدة عليه فيحقن دماء الملايين من العراقيين؟ تواترت لقاءات الرئيس بالوفود الزائرة لبغداد، عربية وأجنبية، سعيا لإيجاد حل يجنّب المنطقة والعالم بأسره حربا لا يعلم أحد ما قد تسفر عنه... تابعنا المقابلات بلهفة علّها تحمل لنا بشائر السلام.

بدا وفد الإمارات العربية المتحدة أقرب ما يكون لتحقيق المهمة المستحيلة، لكنه ما لبث أن غادر هو الآخر كي يعلن رفض الرئيس العراقي القاطع للعرض المقدم له باستضافته وأهله لتجنيب شعبه ويلات مواجهة محسومة النتيجة سلفا... صوت مذيع الأخبار في راديو مونتي كارلو شكّل خلفية لنقاشاتنا المحتدمة في قاعة العرض فقد ركنا جانبا شرائط الموسيقى الكلاسيكية التي اعتاد زائرونا سماعها خلال تأملهم للمعروضات، مزاجنا المضطرب لم يترك لنا هامشا ولو ضئيلا لتذوّق الألحان، كنا بأمس الحاجة إلى معرفة مزيد من المعلومات.

"هل يدرك المعتوه حجم الدمار المتربص بنا؟ لو كان احتلاله الأحمق للكويت وتهديده لمصالح الغرب عن بعد قد أسفرا عن حرب ماحقة تلتها سنوات عجاف من الحصار أجهزت على بنيان العراق كدولة ومجتمع، فأي جحيم بانتظارنا هذه المرة والولايات المتحدة تتخبّط كوحش مهتاج يتضوّر عطشا للدماء بعد هجوم نيويورك الذي لطّخ بالوحل صورتها كقوة عظمى وحيدة في عالم ما بعد الحرب الباردة؟ هل يظن صدام حقا أن لديه فرصة في النجاة؟"... تساءلنا بعلو أصواتنا فلم يعد أحد يكترث بالهمس.

زرت في الصباح مركز الانترنت الذي فتح أبوابه حديثا في حيّنا وتصدّرته طاولة للرقيب الأمني، كثير من المواقع السياسية كانت محجوبة، لكنني لم أعدم الحيل

في الوصول إلى بعض التقارير بالإنكليزية عن حياة الرئيس وتاريخ عائلته، قمت بتحميلها خلسة على قرص مدمج ثم طبعتها لدى مركز استنساخ قريب كي يقرأها والدي الذي قام بإغلاق عيادته وجلب كل معداتها وأجهزتها إلى منزلنا ريثما يتضح مسار الأحداث... ارتجفت الأوراق بين يدي الرجل العجوز وكاد فنجان القهوة الذي حمله بيده الأخرى أن يسقط على عشب الحديقة عندما اطلع على مضمونها، أخفى الأوراق في شق الروب الذي كان يرتديه ثم قام بتمزيقها عندما أقفلنا عائدين إلى الداخل.

"هل جننت؟ كيف تأتي بفعل كهذا، هل تريدهم أن يذبحوننا؟ ألا تعلم المصير المفزع لمن جرؤ على الحديث عن الموضوع ولو بالهمس؟"... وقفت أمام أبي صامتا مطأطأ الرأس كطفل ينال التوبيخ على حماقة اقترفها، لا أعرف حقا ما الذي حدث لي، ربما هو اليأس وفيض الغضب في داخلي، أردت أن أقول له بأن النظرات في عيون الرقيب في المقهى والرجل في محل الاستنساخ بدت على غير عادتها غير مكترثة بشيء ، كلاهما كان مهموما بتدبير شئونه وأمور عائلته قبل بدء القصف، خطر لي أن أجرب ملمحا من الحرية التي ولدت وعشت محروما منها وأتشارك مذاقها معه، حرية القراءة، حرية المعرفة، لم أنطق بشيء مما جال في ذهني فما مر على والدي وجيله والأحداث التي كانوا شهودا عليها يكفي لمحو أي أثر لمفردة "الحرية" من قواميسهم.

أمضيت الساعة الأخيرة مع شريكي ونحن ننقل موجودات المعرض إلى صندوقي سيارتينا بمساعدة من بعض الأصدقاء فلا أحد يعلم متى يبدأ القصف... أطفأنا المصابيح وهممنا بإغلاق الستار الحديدي المُشبّك الذي تخلله عدد من الأقفال الضخمة عندما رن جرس الهاتف في الداخل، ظننت المتصل واحد من أفراد أسرتينا فعدت كي أبلغهم بقرب عودتنا، تفاجأت بأن صاحب شركة حفر الآبار كان على الطرف الآخر من الخط، قام بتحديد موعد لزيارته المرتقبة إلى بيتنا في صباح اليوم التالي، أعطيته العنوان وفي الساعة المحددة كنت واقفا عند البوابة الخارجية بانتظار قدومه مع معداته والعاملين معه.

سخرت من نفسي عندما اتضح بأن البئر المنشود لن يكون مثل ذاك الذي أمضى فيه يوسف بن يعقوب ليلته الشهيرة أو الذي استوحته كثرة من حكايات قبل النوم للأطفال، لا جدار حجري ولا دلو معلق بحبل، بئرنا سيكون مجرد حفرة بعمق

مترين أو ثلاثة يتم تثبيت ماسورة بلاستيكية فيها كي تمنع انسدادها، ويكون استخراج الماء منها عن طريق خرطوم متصل بمضخة صغيرة مجاورة، نوّه صاحب الشركة إلى أمر مهم تعيّن أخذه في نظر الاعتبار قبل استهلاك ماء البئر وهو أن شبكة المجاري في عاصمتنا المجيدة قد أصابها كثير من الضرر على مر الحروب المتعاقبة فكانت مياه الصرف الصحي تتسرب منها باستمرار إلى التربة وتلوّث ما استقر فيها من مياه جوفية، أي أن الماء المستخرج لن يكون صالحا للشرب ما لم تتم معالجته.

... لا بأس، بوسعنا استخدامه لأغراض أخرى.

فاجأتني الطريقة البدائية التي تم بها الحفر، كنت متوقعا قدوم آليات خاصة لانجاز المهمة، لكن ما حدث هو أن العاملين جاءوا بعصا طويلة قاموا بغرسها في التربة وبرمها حتى توغلت في داخلها، ذكّرني المشهد بما اعتدنا مشاهدته في الأفلام المصرية عن الريف، مع فرق بأن الدواب التي كانت تؤدي المهمة في السينما قد حل محلها رجلان غطى الوحل أقدامهما وملابسهما وأجزاء من وجهيهما، وقفت جانبا أرقب سير العمل عندما لمحت بين الطمي المستخرج شيئا لامعا، تدفق الماء بعد قليل فتوسّد الحفّارون المتعبون الأرض وراحوا يدخنون سجائرهم الرخيصة ويشربون الشاي فيما قامت المضخة بسحب الماء الذي بدا متعكرا في البداية ثم راق شيئا فشيئا... مضيت نحو كومة الطين والتقطت القطعة اللامعة.

"كثيرا ما نجد مثلها، لن تصدق كم الكسر الفخارية التي تخرج خلال عملية الحفر،" قال لي صاحب الشركة وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء.

مشيت إلى صنبور الماء القريب لغسل القطعة مما علق بها، رفعتها بين يدي فتلألأت تحت وهج الشمس طبقة مزججة ذات لون فيروزي أخاذ كست أحد جانبيها، تأملتها مسحورا وأنا أفكر بأنها ربما كانت جزءا من إناء أو إبريق أو كأس من عصر هارون الرشيد.

... أيمكن أن يكون قصره الأسطوري راقدا تحت بيتنا دون أن ندري؟ ترى، كم من كنوز أخرى لعصور غابرة تختبئ تحت الأرض التي نطأ أديمها ذهابا وإيابا ونحن لا هون عنها؟

حملت لقياي الثمينة إلى الداخل بعد أن انصرف العاملون وأنا أخطط للطريقة الأمثل لحفظها، قمت بتغليفها بلفائف عديدة من النايلون ذي الفقاعات الهوائية الذي

أحاط بالمزهريات الفخارية والزجاجية ووضعتها إلى جوارهم تحت طاولة الطعام الكبيرة... تعرّت غرفة استقبالنا من كامل اكسسواراتها، لا لوحات ولا تحف تتوسط الطاولات، حتى الرفوف خلت من معروضاتها التي تجمّعت على الأرض وتحت الطاولات

كان والداي قد عادا من رحلة الحج مؤخرا وكنا لا نزال نستقبل وفود المهنئين بسلامة الرجوع من الأقارب والأصدقاء، طلب آخر الزائرين من أبي الدعاء للعراقيين بأن يعبروا هذه المحنة بسلام فالمستقبل غامض مجهول، تمتم والدي ببعض الكلمات المطمئنة فيما قمت بجمع الأكواب الفارغة وإغلاق الستائر على زجاج النوافذ الذي أكملت لصق الشرائط المتقاطعة عليه منعا للتشظي... ألقيت نظرة فاحصة على الغرفة قبل أن أطفئ نور المصابيح، ذكّرت نفسي بأن أبواب الغرف يجب أن تبقى مفتوحة ولو قليلا خشية أن تخلعها قوة العصف القادم من أماكنها.

خبرات الحروب السابقة التي عشناها لم تذهب سدى، تعلّمنا الكثير من أخطائنا السابقة... لا خزين لدينا هذه المرة من اللحوم والخضر المجمدة فهي عرضة للتلف السريع عندما ينقطع التيار الكهربائي، ابتعنا صناديق من علب لحم الدجاج المقدّد عوضا عنها، فيما توسدت أكياس الرز أركان غرفة المخزن مع نظيراتها من الدقيق والبقول الجافة والشاي وكثير من المعلبات، خصوصا الأجبان، أما أكوام الخبز اليابس فقد احتلت سطح مائدة الطعام مع طبقات البيض، بالإضافة إلى خزيننا الوفير من قناني مياه الشرب، امتلأ عدد من الأحواض البلاستيكية بمياه الحنفية كي نستخدمها لأغراض الاستحمام والتنظيف، صيدلية المنزل اكتظت هي الأخرى بالعلب والزجاجات وعدد الإسعافات الأولية التي ابتعناها بأسعار باهظة من السوق السوداء.

كجمهور حبس أنفاسه بانتظار لحظة بدء العرض، توقفت معظم فعاليات أيامنا المعهودة، تعطلت الدراسة وتغيّب معظم الموظفين عن الدوام، الكل كان يتابع نشرات الأخبار (الخارجية) ويترقب ساعة الصفر التي لم تتأخّر كثيرا... عوت صفارات الإنذار بالتزامن مع زلزلة ورعد الانفجارات واصطكاك زجاج النوافذ، تردّد صوت الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن هذه المرة) وهو يلقي خطابا يعلن فيه بدء العمليات العسكرية ثم صوت صدام حسين المضطرب وهو يجتر ذات المفردات

المستهلكة عن النصر الموعود في خطاب ركيك متلفز، لكن شيئا ما بدا مختلفا، كنت بائسا مُتبلّدا إلى الحد الذي لم تفزعني معه فكرة الموت.

... ليت الفناء يأتي كي يوقف ضجيج الأصوات في رأسي.

لم تعد تشغلني الأسئلة عن العدل والظلم والمنطق في كل ما كان يحدث من حولي، لم يعد يعنيني ما يقرّر صدام فعله فقد عشت معه وفي ظله عقودا تكفي لأدرك مدى حماقته وإجرامه، الرئيس الأمريكي على الجانب الآخر لم يكن أقل عُتها إذ اشترط خروج صدام حسين من السلطة لدرء خطر الحرب، وعندما رفض الأخير الامتثال، كان الرد بقتل المزيد من الأبرياء وتدمير ما بقي من بنانا التحتية... تمثيلية أسلحة الدمار الشامل التي امتلكها العراق ورفض تسليمها لم تكن لتتطلي على طفل غر، نعم، بالتأكيد كان لصدام برامجه التي أضاع عليها موارد شعبه واستخدم بعض ثمارها السامة في قتل مناهضيه، لكن بعد سنوات الحصار الطويلة، لم يعد سرا أن تلك البرامج إن لم تكن قد انهارت تماما فقد تضرّرت لدرجة لم تعد تشكل معها خطرا أو تهديدا لأي من دول الإقليم.

... فماذا إذًا ولم الحرب والى أين؟

شعرت كما شعر كثير من العراقيين سواي بأننا نُساق إلى حتفنا بلا حول أو قوة... لم يكن أمامنا سوى التسليم والانتظار.

مضى سيناريو الحرب السابقة يكرّر نفسه، القصف الليلي المكثف، تقارير المراسلين المُتضاربة، جعجعة وزير الإعلام عن إحراز النصر قريبا، شُح الوقود وارتفاع أثمان كل شيء، غياب الكهرباء والماء، حرق إطارات السيارات لتضليل الطائرات المغيرة وصفارات الإنذار التي تهدر عبثا في الصباح والمساء... رمى بي قصف مبنى الاتصالات المجاور على الأرض فنهضت وقمت بوضع القطن في أذني كي لا أسمع المزيد من الدوي ثم حاولت الإغفاء بلا جدوى، أحاطت هالات داكنة بعيني وركنت إلى الصمت، الظلام في داخلي كان يبتلعني فنشرات الأخبار تؤكد تقدم القوات المهاجمة نحو العاصمة والمسئولون العراقيون مصرّون على الإنكار، بثت مشاهد لصدام وهو يزور أحياء بغداد وحشود ضئيلة ترحّب به وتلتف حوله، تمثيليات ركيكة لم يعد أحد يصدقها حتى بطلها الذي بدا مذعورا ومرتبكا.

ري الحديقة من ماء البئر الجديد صار هاجسي ووسيلتي للهروب من جنون الواقع، انغمست فيه حتى لاحظت أمرا أفزعني ذات نهار فقد غزت مجاميع من الفطر لم أر لها مثيلا من قبل تربتنا.

... هل الري المستمر سبب ظهورها المفاجئ، أم الإشعاعات المنبعثة من التفجيرات المحيطة المتعاقبة؟

كنت قد سمعت وقرأت عن استخدام قنابل اليورانيوم المُنضّب خلال الحرب السابقة وما نتج عنه من ارتفاع ملحوظ في معدلات التشوهات بين الأطفال حديثي الولادة، خصوصا في المحافظات الجنوبية... ازداد خوفي على أهلي، لكنني امتنعت عن ذكر الموضوع أمامهم، توقّفت عن الرش تماما.

لاحظنا ذات مساء نشاطا وحركة غير مألوفين في المدرسة المجاورة لنا، أبناء الحي كانوا مرعوبين من احتمالية استهداف المبنى الذي أحاطت به المساكن إحاطة السوار بالمعصم، لو حدث ذلك فخسائر الأرواح ستكون مريعة... خرجنا إلى الشارع نرقب الشاحنات العسكرية وهي تفرغ حمولتها من الأسلحة والذخائر في قاعات الصفوف المهجورة، اقتربت سيارة ذات زجاج مظلّل من دارنا ثم توقفت أمامه، ترجّل منها شخص أسمر ذو شارب كث، تجمّع الناس حوله يسألونه عن سير المعارك فقد بدا واضحا بأنه أحد المسئولين، حاول طمأنتهم بمقولات وكليشيهات الإعلام وابتسامة مصطنعة أثارت قلق الحاضرين، تسلل طفل صغير نحو باب السيارة الخلفي كي يفتحه فلما لمحه الرجل صرخ به ناهرا ومُتوعّدا، الأمر الذي أثار فزع المسكين فراح يبكي.

... ما سر رد فعله العنيف؟ أيكمن أن يكون صدام جالسا في المقعد الخلفي؟

عدد من الأقاويل المتداولة مؤخرا زعمت لجوء الرئيس إلى قضاء لياليه في بيوت بعينها في حينا.

مجرد احتمالية أن بضعة أمتار فقط كانت تفصلني عن الطاغية أثارت قشعريرة في جسدي، غادرت السيارة الغريبة مسرعة ودخل الجيران كل إلى بيته بانتظار ما ستسفر الأحداث عنه مع أنباء متواترة عن معركة ضروس خسرها الجيش العراقي أمام القوات الغازية في محيط مطار "صدام" الدولي... شعرت بتوتر وخوف أهلي فحاولت ممازحتهم، قرّرت أن اترك غرفتي في الطابق العلوي وتمضية الساعات

الحرجة القادمة معهم في غرفة النوم الرئيسية في الطابق الأرضي، خلدنا إلى النوم ونحن نتساءل:

... أيّة ليلة ليلاء بانتظارنا؟

سمعت أصوات كثيرة لإطلاق الأعيرة النارية خلال سنوات عمري، خبرت دوي التفجيرات وزمجرة الطائرات المغيرة والصواريخ المختلفة في حروب ثلاث حتى بت قادرا على تخمين صنوفها من أصواتها، الرعد وزلزلة الأرض تحت الأقدام واصطكاك زجاج النوافذ بإطاراتها وصوت انفلاق الألواح جميعها كانت أمورا مألوفة، لكن الهدير الذي واكب دخول جحافل القوات الأمريكية إلى منطقتنا بدا مختلفا عن كل ما سبقه، لا أعتقد بأني قادر على نسيانه ما حييت... كتدفق شلالات هائلة عند المصب، دوى سكون الليل بمزيج مرعب من ضجيج نيران الأسلحة المختلفة، ركض الجميع عبر الممر الضيق باتجاه المخزن الذي بدا لنا أكثر أمنا من باقي الغرف بسبب ضيق نافذته.

الفزع والذعر تسببا بفقدان ابنة أختي وعيها بمجرد وصولنا إلى مخبئنا وسقوطها على الأرض، ركضت نحو الحمام مستهديا بوميض الانفجارات وعدت منه سريعا بكأس ماء بارد مسحنا بها وجهها الشاحب، الطفلة الرضيعة التي كانت تبكي تحت القصف في الحرب السابقة صارت صبية في الثالثة عشر من العمر، تنفّسنا الصعداء عندما أفاقت من إغماءتها، لكن الضجيج بلغ حدا بدا موتنا معه أمرا قادما لا محالة... كلاعبي الكرة قبل بدء شوط مباراة مصيرية التففنا في حلقة ونحن نحتضن بعضنا البعض، كنا نسمع صفير ألقذائف العابرة فوق رؤوسنا فلا ندري إن كانت ستصيبنا أم تستهدف منزلا آخرا تأتي على من فيه، همهمات والدي ووالدتي بالدعاء بالنجاة كانت تعلو وتنخفض على وقع القتال الضاري المندلع في الخارج، المنزل المبني بالآجر الثقيل كان يهتز بنا ويموج كسعفة نخلة تقاذفتها رياح عاصفة هوجاء

خفتت حدة الأصوات قليلا ثم عادت أعلى وأعنف مما كانت، مرّت الساعات علينا ثقيلة كأنها قرون حتى تسلل ضياء الفجر عبر النافذة الصغيرة، مشيت بخطوات مضطربة نحو الراديو... أعلن المذيع بصوت متهدّج نبأ دخول القوات الأمريكية إلى بغداد وسقوط نظام صدام حسين.

مشهد النهاية

صباح الثلاثين من كانون الأول، ٢٠٠٦

أول أيام عيد الأضحى... شهور عشرة قد مضت منذ مغادرتي العراق، نهضت من سريري في الصباح الباكر، البرد قارس على نحو استثنائي، مضيت نحو غرفة المعيشة في الشقة التي استأجرناها في عمّان كي أوقد المدفئ قبل استيقاظ والديّ فقد تقدما في السن ولم يعودا قادرين على احتمال انخفاض درجات الحرارة الحاد كما في السابق، أهوال السنوات التي تلت الحرب الأخيرة تركت أثرها على وجوهنا وأجسادنا معا، كسرتنا وأطفأت آخر جذوة أمل تبقّت في نفوسنا.

اندلعت نيران الصراع الطائفي بعد مغادرتنا بغداد بقليل وتحولّت سريعا إلى حريق هائل التهم كل ما صادفه... عدد من فقدتهم من الأهل والأصدقاء في الأحداث التي تلت ما صار يعرف بالسقوط فاق كل ما سبقها، بما في ذلك الحروب الثلاث التي عاصرتها.

... أي مذاق بقي للعيد وأية بهجة؟

وضعت الماء في الغلاية لصنع الشاي وجلست على الأريكة كي أتابع موجز الأخبار الصباحي، أول ما طالعني على شاشة التلفزيون كان خبرا عاجلا عن إعدام صدام حسين قبل ساعات... فجأة، صمتت الأشياء من حولي، لم أعد أسمع سوى صوت تهدج أنفاسي ونبضات قلبي المتسارعة، البخار المتصاعد من فمي بفعل البرد صنع شاشة بيضاء حجبت عني نشرة الأخبار وراحت ذاكرتي تعرض عليها مشاهد أثيرية من سنوات ماضية.

استرجعت في لحظات وقائع سقوط تمثال ساحة الفردوس ونعال العوام التي انهالت ضربا على الجسد المعدني الطريح، رعب أصحاب محال البقالة وهم يغلقون أبوابها أمام طوفان النهب الزاحف من شرق العاصمة حيث الجياع والمتمرّدون، منظر أبناء الحي وهم يتبارون للفوز بمخزون الأسلحة والعتاد المتروك في بناية المدرسة المجاورة بغية بيعه وجني الأرباح من ورائه، حظي جارنا الرفيق البعثي وأبناؤه بحصة الأسد من الغنائم فقد كانوا سبّاقين في النهب.

تذكّرت زيارتي الأولى لعيادة والدي لتفقّد حجم الضرر الذي حلّ بها ومحاولتي إغلاق النوافذ التي تهشّم زجاجها بما عثرت عليه من ألواح خشب وكارتون، نزلت على الدرج مسرعا يومها، كدت أصطدم برجل مار كان يرتدي اللباس الكاكي، سمعته يقول معتذرا "سوري!"... عقدت الصدمة لساني عندما أدركت بأنه مجند أمريكي، تأمّلته كمخلوق فضائي.

... هل هذا حلم أم حقيقة؟

عندما عدت إلى البيت لمحت دبابة أمريكية تربض في نهاية شارعنا، أحد الجنود صوّب فوهة بندقيته نحوي، توقعت أن أسمع صوت الطلقة يليها ألم يمزّق أحشائي، لكنه أشاح ببصره عني ومضى يرصد هدفا متحركا آخر فقد أحاط جمع من المنافقين بالدبابة وطاقمها، أحدهم كان يعمل في جهاز أمني لكنه انقلب على صدام في اليوم التالي للسقوط وراح يسبّ عهده بلا حياء أمام الجميع زاعما بأنه كان من مناوئيه... علت نظرات السخرية والاشمئزاز الوجوه ونحن نراه يخرج من بيته محملا بأكواب الشاي الساخن والكعك والحلويات التي مضى يوزعها على سادته الجدد.

أمضينا لياليا على وقع الطلقات النارية وصرخات الرجال المُلثّمين الذين جابوا شوارعنا مُهدّدين ومتوعدين، قيل لنا بأنهم مجاهدون عبروا حدودنا المفتوحة مع دول الجوار لقتال الأمريكان، لكن على أرض الواقع، كنا نحن هدفهم المفضل... تدهورت الأوضاع الأمنية، شاعت عمليات الخطف وطلب الفديات الهائلة من أسر الرهائن، أحد المخطوفين كان صديق طفولتي الذي خرج بعد أسابيع من الاحتجاز زائغ النظرات شاحب الوجه، أسرّ لي بأنه كان يسمع في محبسه أصوات خاطفيه وهم يدربون الصبية على استعمال السلاح على وقع ذات الهتافات والأناشيد التي خبرناها عبر العقود.

ظهرت رسائل صوتية لصدام من مخبئه حضّ فيها أتباعه على ارتكاب المزيد من القتل، تصاعدت وتيرة التفجيرات وحدتها في الوقت الذي فاحت فيه روائح فساد من تولوا زمام الحكم من أقطاب المعارضة السابقين، قرأنا وسمعنا عن صفقات لأسلحة فاسدة وعقود وهمية لإعمار البنى التحتية المدمرة بمليارات عدة من الدولارات وجدت طريقها سريعا إلى حسابات سرية في البنوك الغربية.

"أيها السيدات والسادة، لقد أوقعنا به!" مقولة بول بريمر التي أعلنت إلقاء القبض على صدام حسين مختبئا في حفرة، تلاها بث لصور الجنود وهم يعبثون به كفأر تجارب مذعور.

ملأت الطلقات النارية سماء العاصمة وباقي محافظات العراق ابتهاجا بالحدث العظيم، الرفيق الحزبي ومسئول الأمن السابقين في حيّنا كانا أول المحتفلين وأكثرهم إطلاقا للرصاص الذي سرقاه من مخازن العتاد... أنهرت باكيا على الأرض يومها، لم أكن فرحا أو حزينا، لا أدري ما كان شعوري بالضبط، لكنني خبرت فورة من الأحاسيس فاقت قدرتي على احتوائها ففاضت مني دموعا ونشيجا.

توقعنا أن تهدأ الأوضاع قليلا وأن ننعم بشيء من السلام والسكينة بعد شهور من العواصف العاتية، لكن هيهات... ازدادت ضراوة القتل والخطف قبل أن يطلع الأمريكان علينا بتمثيلية محاكمة رئيسنا السابق بحجة إحقاق الحق وسيادة القانون، شاهدنا المتهم وهو يستأسد أمام القضاة، يسب هذا ويهدد ذاك، أدرك صدام حسين بأن هذا هو عرضه الأخير فراح يصول ويجول على خشبة المسرح، تابع العراقيون الأداء مذهولين، إفادات الشهود وأصواتهم المذعورة المموّهة، نظرات صدام المتوعّدة وإهاناته التي طالت الجميع بلا استثناء.

أين كانت العدالة عندما أصدرت القوى العظمى حكم الإعدام ضد الآلاف من العراقيين؟ من يأتي بحق من سُحِقوا تحت الأنقاض خلال القصف الذي سبق الاجتياح وتزامن معه بلا ذنب سوى أن الرئيس الأمريكي قد قرّر فجأة الإطاحة بنظام الحكم في بلدنا؟ من يسمع إفاداتهم ومن يترافع عنهم وأمام من؟ لو كانت جرائم صدام موضع شك وبحاجة لإثباتات، فأية شرعية إذًا لقرار الغزو الذي صدر بتوافق أممي وأعطى رخصة لقتل المدنيين العُزّل والجنود البؤساء؟ أية قوانين عمياء صماء عرجاء تلك التي تسمح بكل هذا الجور، وأية قيمة لحكم الإدانة الذي صدر بعد شهور من الإسفاف والاستخفاف بدماء الأبرياء؟

... يا للمأساة، بل يا للمهزلة!

في غمرة تساؤلاتي وغضبي، سمعت حوارا إذاعيا مع عروبي تباكى فيه على مقتنيات المتحف العراقي وكنوزه الضائعة، قال الرجل لمحدثه بأنه كان يتمنى لو أن السارقين قد سلبوه أولاده وتركوا آثار بلاد الرافدين بلا أذى، وددت لو أني صرخت

في وجه المتباكي أن فلتذهب كل آثار العراق إلى الجحيم لو كان ذلك سيعيد نبيحا مظلوما إلى الحياة... مضيت مسرعا إلى حيث كنت أخبئ كسر الخزف التي عثرت عليها خلال حفر بئر الماء في حديقة دارنا، فضضت لفافات النايلون ذي الفقاعات الهوائية المحيطة بها، أمسكت بالطين اليابس في يدي وتأمّلته للمرة الأخيرة، كم بارد ومبتذل بدا لي تزجيجه الفيروزي العتيق.

خرجت إلى الحديقة التي علا عشبها وغابت عنها زهورها الفوّاحة وامتنعت نخلاتها السبع عن إنتاج التمر المسكّر، رميت القطعة بكل ما أوتيت من قوة فاصطدمت بالسور العالي وتشظّت إلى هشيم

... اللعنة على تاريخ يصم أذنيه عن بكاء اليتامى ونواح الثكالى ويمجّد الحجر والطين!

تلاشى البخار الذي حجبني لدقائق عن شاشة التلفزيون أمامي، عدت إلى واقعي الذي انتشلتني استرجاعاتي منه، لم أكن أحلم، إنهم يقتادون صدام حسين للموت بالفعل.

... لماذا تنفيذ الإعدام؟ لماذا يهدون الناس موتا في فجر يوم العيد؟ لماذا التصوير؟ لماذا الهتافات؟

أوشكت على كبس زر إطفاء الجهاز عندما شرع الجلاد بلف حبل المشنقة حول عنق صدام، لكنني تراجعت عندما خطر لي بأنه، ربما، وفي صحوة متأخرة للضمير (أو حتى كجزء من ارث العراقيين الديني والثقافي بطلب براءة الذمة قبل التوجه للحج أو لسفر طويل) قد يتفوّه بما يشبه الاعتذار من عوائل ضحاياه وهم بالآلاف المؤلفة، أو حتى أن يستغفر ربه علنا، أو ينوّه (ولو كذبا) بأنه قد أتى ما أتى بحسن نية، كنت بحاجة لخاتمة ذات معنى لعقود عمري التي عشتها في ظل واحد من أطغى جبابرة العصر تكون عظة وعبرة للأجيال القادمة بأن الظلم يورث الندم والخيبة لا الفخر والخيلاء... كم كنت ساذجا!

ردّد صدام حسين شعاراته المعهودة بذات الصوت المنفر، ابتلعته أوهام أسطورته الشخصية وهلاوسها قبل الحفرة التي تدلّت منها جثته... كلما طالعتني صورة المنظر المنفر على الانترنت أو خلال نشرات الأخبار التي أعادت الشريط المرة تلو الأخرى أشحت بنظري عن الشاشة، بحثت وقرأت وسمعت الكثير من

الروايات عما حدث في ذلك النهار العجيب، لكنني حتى اللحظة لم أشاهد الجزء المقيت من العملية، لا أستطيع ولا أسمح لنفسي بمشاهدة قتل إنسان، فكيف لو كان المعدوم جثة ناطقة؟

... نعم، لقد قتلوا ميتا.

الجزء الثاني

... ومتلازمة ستوكهولم

خطوات أخيرة، إرهاصات أولى

"أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله"

تردِيد صدام حسين لشطري الشهادة صيّره ضحية في عيون ملايين العرب والمسلمين حول العالم فالعقيدة تنص على أن كل من تشهّد قبل موته يُكتب مسلما وينجو بذلك من الخلود في عذاب الآخرة وإن أتاها محمّلا بذنوب أهل الأرض جميعا... في أصقاع ماليزيا وإندونيسيا البعيدة، وبين الجاليات المسلمة في أوروبا وأفريقيا وآسيا والأمريكتين وأستراليا، وفي أنظار القرويين والبسطاء من العرب كان شريط تنفيذ حكم الإعدام الذي عرضته شاشات قنوات التلفزة المختلفة وتناقلته آلاف من مواقع الانترنت بعدها دليلا على جريمة دنيئة أقدم المحتل الأمريكي فيها على إذلال وشنق رمز عربي مسلم حامل للمصحف في فجر واحد من أكثر الأيام قدسية بأيدي آثمة متواطئة من بني جلدته.

رباطة جأش الرئيس السابق وهو يساق إلى حتفه كانت أكثر ما أثار دهشة المشاهدين وعدّها كثر مثالا ساطعا لشجاعة الرجل وبطولته الاستثنائيتين... السلوك الغريب استوقفني أنا أيضا ودفعني للبحث عن تفسير مقنع له فقد سبق لنا أن رأينا صداما وهو فزِع مضطرب عشية إلقاء القبض عليه وإن حاول البعض تبرير ذلك بتعرّضه إلى تخدير تركه شبه مشلول، فيما ذهب آخرون بعيدا في زعمهم أن من اعتُقِل لم يكن الرئيس بل شبيهه، لكن لو كان ذلك صحيحا ما كانت هيئة المحامين التي أوكِلت إليها مهمة الدفاع عنه لتسكت عن الموضوع أو تتجاهله في مرافعاتها وهي التي ملأت وسائل الإعلام صخبا واحتجاجا على كل صغيرة وكبيرة في مسار المحاكمة، الأمر ذاته ينطبق على ممثلي المنظمات الدولية الذين زاروه في سجنه ولم ينقلوا عنه أية شكوى تتعلق بطريقة الإيقاع به.

... فماذا إذًا؟

لو كان رعب صدام حسين وانقياده لأوامر آسريه هي ملامح شخصيته الحقيقية، فما الذي جدّ عليه كي يظهر بشخصية أخرى مختلفة تماما، شرسة ومستأسدة خلال جلسات محاكمته، وشخصية ثالثة جامدة خلال إعدامه؟

سبيلي الوحيد لفهم تصرّف الرئيس الراحل في ساعته الأخيرة كان من خلال مقاربته لسلوك منفذي العمليات الانتحارية التي تزايدت وتيرتها بشكل مريع أثار اهتمام علماء النفس فظهرت عشرات الأبحاث والمقالات عن سيكولوجية القتلة ودوافعهم، ما كنت أبحث عنه بالتحديد هو الآلية التي تجعل القاتل يمضي بثبات ودم بارد للقاء حتفه، أكّدت بعض الروايات بأن التفجيريين يتعاطون المخدرات والأدوية المهدئة قبل تنفيذ جرائمهم، ربما يكون ذلك قد حدث في بعض الحالات، لكن التعميم يتعارض مع اليقظة المطلوبة منهم لبلوغ الأهداف المنشودة دون إثارة الشكوك من حولهم... لفتني تحليل بعينه اقترح بأن التفجيري يلجأ إلى التوحّد مع صورة يقوم برسمها في الخيال عما سيلي تنفيذه العملية حيث لا شعور بالألم، بل سكينة ونعيم مقيم يُحمل إليه في موكب مهيب يحف به النور وتحيطه الملائكة.

حاولت تحرير عقلي من تأثير فرضيات المؤامرة، وما أكثرها، فوجدت بأن خوف صدام الظاهر وهو يساق خارج الحفرة الشهيرة كان مُبرّرا لطريد أُخِذ على حين غرة، لم يكن يدري ما سيحل به واي مصير ينتظره، ارتعب وتساءل مع نفسه: هل ستفتك به الكلاب المفترسة؟ أم يخضع لصعقات الكهرباء؟ أم يتم تسليمه للعوام كي يبطشوا به ويقطّعوا أوصاله كما فعلوا سابقا مع تمثاله البرونزي الشهير؟ على الطرف الآخر، طالعني تودّده الملفت لسجّانيه من الأمريكان كما ظهر لاحقا من خلال شهاداتهم المنشورة عنه وعن وحواراته الحميمة معهم وتناقض ذلك مع شراسته وعدوانيته في جلسات المحكمة... بمجرد أن توقفت عدسات المصوّرين عن الدوران، كان الأسد الجسور ينزع عنه مخالبه ويتحول إلى قط وديع هادئ ومطيع للأوامر.

سعيت لفهم تلك التناقضات السلوكية عن طريق قراءتها ضمن سياقها الزماني والمكاني... بعد هدوء الزوبعة المرافقة لإلقاء القبض عليه اطمئن صدام بأنه في مأمن من الأذى والتنكيل، بل ولمس حرصا من آسريه على إظهار طريقة تعامل "مُتحضّرة" معه أمام المراقبين، خصوصا بعد تسريب ونشر صور الفظائع المُرتكبة بحق السجناء في "أبي غريب" والفضيحة المدوّية التي أثارتها القضية والغضب العالمي للانتهاكات السافرة لحقوق المُعتقلين الموثقة فيها، آخر شيء كان الأمريكان بحاجة إليه أن توجه إليهم تهما بالإساءة إلى الرئيس المحبوس أيضا.

أدرك صدام ذلك جيدا فركن إلى المناورة والهجوم بتشجيع من هيئة دفاعه التي حضّته على صنع رأي عام ضاغط عبر ظهوره وأدائه في جلسات المحاكمة علّه يكون سبيله إلى النجاة، كل المؤشرات كانت تشير إلى نجاح الخطة على الرغم من صدور حكم الإعدام الذي لم يكن أحد يتوقع تنفيذه بذلك التوقيت وتلك الطريقة، فلما حانت لحظة الحقيقة وأيقن الرئيس السابق بأنه ميت لا محالة، لجأ إلى ما يشبه عملية تنويم مغناطيسي ذاتي أقنع نفسه فيها بأنه ماض إلى ارتقاء عرش آخر، أعظم وأكثر بهاءً، وراح يتصرّف وفق تلك المشهدية الملحمية... تماما كما يفعل الانتحاريون.

"هل هذه هي المرجلة؟"

السؤال الإدانة الذي تفوّه به عندما شرع جلّادوه بلف حبل المشنقة حول رقبته بينما تعالت هتافات الانتقام واللعنات من أفواه الحاضرين كان تفصيلة أخرى استوقفتني، قصد صدام من خلاله التذكير بمبادئ الفروسية التي تقتضي بأن يتبارز المتحاربون وجها لوجه في سوح القتال، لا أن يساق الأسير إلى موته مكبّل اليدين... كنت منهمكا في بحثي على الانترنت عن روايات لما حدث قبل وخلال تنفيذ الإعدام عندما عثرت على مشهد قصير وقديم للرئيس السابق وهو يرقص الدبكة العراقية المعروفة بالجوبي وقرأت تعليقات آلاف المشاهدين من العرب عن إتقانه للحركات برشاقة ورجولة أثارتا إعجاب الكثيرين منهم.

قدح المشهد في ذاكرتي تفاصيل تلك الواقعة التي كاد النسيان أن يطويها، أعادني إلى الليلة التي ظهر صدام فيها على شاشة التلفزيون وهو يزور مضارب واحدة من العشائر المعروفة، ما كان الأمر ليستوقف أحدا لولا أنه شرع بالرقص وهو ينفث دخان سيجار كوبي تدلى من فمه... معالم الحنق المرسومة على وجهه العبوس أعادت إلى ذهني توتر الرئيس وتدخينه الشره خلال الاجتماع الحزبي سيئ الذكر الذي أعلن فيه الكشف عن خيوط مؤامرة كان يتم تدبيرها ضده وانتهى بمجزرة مريعة.

لم تطل حيرتي كثيرا، تواترت الأنباء عن السر وراء الرقصة المفاجئة في مضارب العشيرة التي أُجبِر شيوخها على الظهور مع صدام إمعانا في إهانتهم وإذلالهم، الزيارة أعقبت إعدام ضابط مرموق من أبناء القبيلة بتهمة تخطيطه لقلب نظام الحكم، لكن القتل لوحده وإن تم بطريقة وحشية وشمل عددا من أقارب الضابط الثائر لم يكن كافيا لإطفاء نيران غضب الرئيس المتأجّجة ونهمه للثأر فطلع بفكرة

الرقص على أرض عشيرة الذبيح وأمام أهله... انتقام صدام حسين لم يكن يعرف حدودا أو رادعا من أخلاق أو عرف أو دين، أو "مرجلة".

... أفلا يستحق إذًا ما تعرّض له من تنكيل خلال الدقائق التي استغرقها تنفيذ حكم الإعدام به وهو الذي ما ترك بيتًا في العراق إلا ونكب أهله بقريب شهيد حرب أو معاق أو أسير أو مفقود أو معدوم تحت ذريعة هذه المؤامرة أو تلك؟

ألا يجب أن تقر أعين الناس بإنزال العقاب بالمجرم؟

لا أعرف من كان وراء الإيعاز بتصوير الإعدام ومن قام بجمع الحشد الصاخب الذي صنع المشهد المُقزّز، ردّد البعض بأن التسرّع في شنق الرئيس السابق كان لمواجهة ضغوط مارسها الأمريكان (مع جهات أخرى) على الحكومة العراقية لإلغاء إعدامه، بل وتهريبه إلى مكان مجهول ريثما تهدأ الأمور قليلا ثم يبدأ التخطيط لإعادته إلى السلطة من جديد... لم تقنع الحجة أحدا، لو كان الرئيس السابق أثيرا على قلب الولايات المتحدة إلى تلك الدرجة ما كانت لتخوض حربا ماحقة باهظة التكاليف كي تطيح به وبنظامه وما كانت لتُسلّمه إلى السلطات المحلية كي تفتك به من الأساس.

وجودي في تلك الفترة في العاصمة الأردنية، التي ضمّت أحياؤها المختلفة آلافا كثيرة من العراقيين من شتى الأديان والمذاهب والملل، أتاح لي لمس ردود أفعالهم عن قرب... صدقا أقول إني لم أجد من بينهم فردا مبتهجا بخبر ومشهد الإعدام، ولا حتى الذين نالهم من صدام حسين ظلم مباشر، لم نتبادل رسائل التهنئة ولم نفرح أو نشمت، بل أمضينا أيام "العيد" في وجوم وذهول.

ستوكهولم في الشرق الأوسط

لا أعتقد أني أجافي الحقيقة لو قلت بأن أولى بوادر التعاطف مع الرجل الذي سامنا صنوف الألم والمهانة طوال عقود، قد وُلِدت في الأيام القليلة التي تلت موته... نعم، حدث ذلك وعلى نطاق واسع، كان محض رد فعل عفوي إنساني ونبيل لمشهد غابت عنه الإنسانية، لكنه بقي كالجمر تحت الرماد وسرعان ما انشغل الناس عنه بهموم أيامهم من إرهاب وفساد وغياب خدمات، إلى آخر القائمة المعروفة للجميع

تماسي الحقيقي مع أعراض متلازمة ستوكهولم، كما ورد توصيفها في الكتب جاء بعد مرور أكثر من عشر سنوات على بث تلك اللقطات الشنيعة، جدّت خلالها معطيات عدة وشهدت اندلاع ثورات وسقوط عروش وهبوب رياح فتن... كنت في زيارة للعاصمة الأردنية لمتابعة بعض شئون أسرتي عندما تلاقفتني الأدلة على تغيرات صادمة في الأهواء والقناعات عن شخص وعهد الرئيس السابق، حتى أني كنت أعود مذهولا إلى غرفتي الفندقية في آخر كل يوم وأحاول جاهدا استيعاب وتحليل ما مرّ عليّ خلاله من مشاهدات وحوارات.

المشهد الأول

"أعلم أنكم لا تريدون سماعي أو تصديقي، ذلك شأنكم، لكن صدام حسين كان رجلا جيدا!"

عقدت الصدمة ألسنة الحاضرين... كنا قد انتهينا من تناول وجبة الغداء في بيت زوج من أصدقاء الطفولة، واتخذنا مقاعدنا في غرفة الجلوس حيث رحنا نتبادل أطراف الحديث عن بغداد وحالها المزري وحنيننا الجارف لها، ونحن نرتشف الشاي "المُخدّر" من "الاستكانات" البلورية على الطريقة التقليدية.

الرأي الذي تفوّه به عبد الله، ابن السنوات العشر، الذي عاد للتو من مدرسته الخاصة في عمّان وأمضى جلّ وقته بيننا منهمكا في الألعاب الإلكترونية على هاتفه الجوّال، أعقبه صمت ثقيل. لمحت والدته وهي تسدد نظرات معاتبة له على إقحام نفسه في أحاديث الكبار، والتعبير عما جال في خاطره بطريقة فجّة. راقبته وهو ينظر إلى وميض الشاشة بين يديه، ويوشك على الانغماس في عوالمها الافتراضية المثيرة من

جديد... وضعت "استكان" الشاي على الطاولة المجاورة، وطلبت من عبد الله أن نتحاور قليلا، فوافق بعد تردد. قلت له بأن ما ذكره للتو قد أثار اهتمامي، وأني اريد سماع المزيد عن الأسباب التي جعلته يصدر حكمه ذاك.

امتد الحديث بيننا لدقائق معدودة فقط، فذلك أقصى ما يمضيه أبناء هذا الجيل في حوار غير افتراضي، لكنها كانت زمنا كافيا لفتح عينيّ على وقائع تبلورت على غفلة منا... لم يخف "عبّودي" تأثره بآراء زملائه الأردنيين والفلسطينيين في المدرسة، وإعجابهم بالرئيس العراقي السابق وبطولته. باح لي بأنه حاول فهم سبب مقت والديه للرجل بالبحث على معلومات عنه على صفحات الانترنت، فوجد كما هائلا من الأفلام والصفحات. شاهد بأم عينه كيف كان رئيس دولته خصما وندا لزعماء أعظم الأمم وأعتاها، تابع لقطات من معارك الحرب مع إيران وانفجارات قذائفها الشبيهة بمشاهد الألعاب على موبايله، قرأ عن حرق الأكراد بالأسلحة الكيمياوية وغزو الكويت وضمها إلى العراق وإضرام النيران في آبارها النفطية واستهداف إسرائيل بالصواريخ التي أرعبت ساكنيها وقضت مضاجعهم.

... كيف يمكن لصبي في عمره ألّا يعجب بصدام حسين الذي صنع كل تلك الإثارة وكل ذلك التشويق؟ تساءلت مع نفسي.

كان والدا عبد الله محظوظين، إذ تمكنا من بيع عقارات لهما في بغداد واشتريا بثمنها شقة واسعة في حي عمّاني مترف، كما أمّنا له ولأشقائه تعليما ممتازا وحياة مرفهة. على الرغم من ذلك، كان على عبّودي الصغير أن يرافق عائلته في سعيها السنوي لتجديد إقامتها في الأردن، وزياراتها الدورية إلى المفوضية السامية للاجئين بغية إعادة توطينها في بلد غربي يمنح أفرادها مستقبلا أكثر استقرارا بعد تدهور الأوضاع في الوطن الأم واستحالة العودة إليه... في كل مرة، كان عبد الله يرقب تذلل أبيه لهذا الموظف وذاك المسئول ويسمع بأذنه صرخات الالتزام بالصف النسائي الطويل، حيث تقف والدته وهي تحمل أوراقها بانتظار ختم يمنحها سنة أو شهورا من الهدنة قبل مواصلة محاولاتها من جديد.

عقد عبد الله في ذهنه مقارنة بين انكسار أهله الراهن وما وجده على الانترنت من قصص عن عراق صدام المحارب الشرس، فرجحت كفة الأخير بفارق شاسع من النقاط كما في نزالات المعارك الإلكترونية... ما باح عبّودي به لي ذكّرني بنفسي

عندما كنت طفلا يملؤه الحماس لاندلاع القتال مع الفرس، والإعلان عن استهداف دفاعاتنا للطائرات والدبابات المعادية وإحراقها، واستيلاء جيشنا على المزيد من القرى والمدن الحدودية، ونشوة النصر التي استحوذت على مشاعري وتفكيري قبل أن أدرك أي مستنقع مميت أسقطتنا الحرب فيه.

ضحايا معارك صدام المتتالية، من أقارب عبد الله ومعارف أسرته، كانوا قد استقروا في خلفية المشهد. مجرد أسماء راحلة من أزمان خلت، لا دماء لهم ولا أحلام ولا قصص حب، لا صرخات لأمهات ثكالى ولا نحيب زوجات مفجوعات، وأبناء صغار كتب عليهم اليتم ظلما وعبثا... الموت الذي لمسه جيل عبد الله عن قرب وشاهد آثاره كان نتاج لما تلى سقوط النظام السابق واجتياح الأمريكان للعراق، الفساد والطائفية وتفتت البلد وتهجير أهله ما كانت لتحدث لو أن الرئيس قد بقي على رأس السلطة في العراق. ذلك ما قرأه عبّودي على النت، فاستقر في وعيه وشكّل قناعته التي نزلت كصفعة على وجوهنا.

المشهد الثاني

"دعك مما يجاهرن به عن العروبة والنضال ضد الغزاة وتحرير الأرض السليبة، تلك مجرد ذرائع لتبرير إعجابهن بشخص الرجل وشكله، القصة وما فيها أنهن كن مغرومات به!" .

أصغيت باهتمام للسيدة الوقور وهي تدلي برأيها في شعبية الزعيم المصري الراحل جمال عبد الناصر بين صفوف قريناتها من العراقيات، إبان ذروة المد القومي في خمسينيات وستينيات القرن المنصرم... دُهِشت لأني أعرف شخصيا عددا لا بأس به من أولئك السيدات، ولطالما سمعتهن وهن يتحسّرن على أيام ناصر وعهده الذهبي ويردّدن شعاراته الرنّانة، حتى بعد بلوغهن مراحل متقدمة من العمر ومرور عقود على وفاة الرجل.

على الرغم من اطلاعي على نظريات فرويد، التي تعزو معظم سلوكيات البشر إلى غريزتهم الجنسية، كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها شهادة لشخص عاصر تلك الأزمان وخبر خباياها تؤكد ما ذهب إليه سيغموند فرويد قبل قرابة قرن من الزمن وعدّ في حينه هرطقة وعبثا... أمضيت الأيام التالية متأملا لمدلولات ما

قالته السيدة الثمانينية دون استبعاد احتمالية أن تكون متحاملة على جمال عبد الناصر وعصره بسبب خلافات أيديولوجية لها معهما. كذلك فان إطلاق الأحكام عموما، بالاستناد إلى منظور وحيد للمسألة، هو بالتأكيد نهج غير منطقي ومغلوط، لكن ما سمعته أعاد إلى ذهني تفاصيل مقالات وتقارير كنت قد قرأتها عقب أحداث سبتمبر في نيويورك عندما تنامت ظاهرة الإعجاب بأسامة بن لادن بين الفتيات الأمريكيات والغربيات، أو ما أطلق عليه البعض تسمية "اضطراب الانجذاب إلى الشخصية الشريرة".

كثيرة هي التفسيرات التي حاولت سبر أغوار ميلنا إلى الأشرار في أعمال الأدب والفن وتفضيلهم على النماذج الطيبة المحبة للخير فيها، رأى قسم من الباحثين أن الشر المتجسّد على صفحات الكتب أو شاشات السينما أو نشرات الأخبار المتلفزة ينفّس شيئا من الغضب المكتوم في دواخلنا، فيما حاول البعض الآخر أن يربط غواية الأشرار وانجذابنا إليهم مع جذور دفينة في سيكولوجيتنا البشرية تعود إلى عصور تشكّلها وتطورها وصراعاتها الأولى... كما في متلازمة ستوكهولم، الأمر لا يزال في طور البحث والتحليل ولم يرق بعد إلى مرتبة النظرية المثبتة، لكنه بدأ يستقطب مزيدا من الاهتمام والبحث مع تواتر النماذج الدالة عليه، لعل من أبرزها انتخاب دونالد ترمب رئيسا للولايات المتحدة على الرغم من نهجه الاستفزازي وتصريحاته العدائية ضد أقليات عرقية ودينية، وتسريبات مشينة عن سلوكه مع النساء.

صراخ صدام حسين في وجه القضاة والمُدعين عليه خلال محاكمته وصراعه الممتد قبل ذلك مع القوى العظمى والإقليمية وصواريخه المنهمرة بكل الاتجاهات عوامل ربما تكون قد ساهمت في صنع هالة له في أعين البعض من الذين يملكون استعدادا للإعجاب بالنماذج السلبية، لكن حصر مسببات تنامي شعبيته على الجاذبية الشخصية سيكون تسطيحا للبحث وسذاجة في الطرح، فالأمر أعقد من ذلك بكثير.

المشهد الثالث

حساسيتي المفرطة لنبرات الأصوات، أمر اكتسبته عبر تعاقب السنين ومرارة التجارب. في كل مرة تهاتف والدتي واحدة من معارفها في بغداد وبعد سماعي كلمات قليلة فقط من المحادثة، أستطيع تخمين الأنباء التي يحملها الأثير إلينا عن أ ل

وأصحاب يعيشون ويموتون على مبعدة آلاف الأميال. في تلك المكالمة تحديدا كانت الرجفة في صوت أمي إثر سماعها النبأ الأليم ملفتة، لدرجة أني تركت كل شيء واتجهت نحوها كي أستفهم عما جرى. لمحت ترقرق الدموع في عينيها فأطرقت صامتا... زوج فتاة شابة من أقاربها ذُبح على أيدي الإرهابيين وهو يتجه إلى عمله في الصباح، اقتاد القتلة خارجاً كل من كان في الباص وقاموا بتصفية أسماء بعينها بطريقة وحشية، حتى أن أهل الفقيد وجدوا صعوبة في التعرّف على ملامح جثته المشوّهة.

حاولت تجنّب الخوض في وحول الطائفية طيلة كتابتي للصفحات السابقة، لكن إنكار وجودها وأثرها في نشوء ظاهرة التعاطف مع الرئيس السابق سيجعل مني نعامة تهرب من مواجهة خطر داهم بدفن رأسها في الرمال، وأنا لا أريد أن أكون كذلك... نعم، شاع في عراق ما بعد صدام حسين القتل على الهوية، لا مجال للتحايل على الواقع وإن كان بشعا فالعراق مجموع غير متجانس طائفيا ولا عرقيا، أمر معروف للجميع منذ أن قرر ساسة بريطانيا العظمى رسم حدود بلدنا عقب الحرب العالمية الأولى، تنوّعنا وتعدّد مشاربنا كان يمكن أن يكون عامل إثراء لا فرقة كما هو حاصل في أمم عديدة في الغرب، وكما حدث فعليا (وإن إلى حدود دنيا) خلال عقود الحكم الملكي وحتى في بدايات العهد الجمهوري.

... فهل كان صدام حسين طائفيا؟

إجابتي على السؤال الشائك ستغضب الكثيرين... كلا، الرئيس السابق أبعد ما كان عن الطائفية لسبب بسيط هو أنه ظل إلى زمن قريب نسبيا معاديا للتديّن بكل أشكاله وعلى اختلاف ممارساته وطقوسه. لو ألقينا نظرة سريعة على قائمة ضحاياه الممتدة، سنجد عدد أهل السنة فيها مساويا لعدد الشيعة إن لم يزد عليه، ذبح أقاربه من أبناء تكريت، أباد قرى لعشائر سنية تمرّدت عليه وآلاف عديدة من الأكراد، قطع لسان قائد عسكري سني ذكره في مجلس خاص مازحا وجرف منزله وذبح أبناءه من الذكور وشرّد نساءه في واقعة تناقل أهل بغداد تفاصيلها المريعة لسنوات، قتل وزير دفاعه وابن خاله وصهره، أعدم أزواج بناته بدم بارد ويتّم أطفالهم، سجونه كانت ملأى إلى وقت قريب بآلاف الأصوليين والسلفيين وكثر ممن أخذوا بجريرتهم لمجرد إطالتهم اللحى أو مواظبتهم على الصلاة في المساجد، كل هؤلاء كانوا من المسلمين السنة، لكنهم جرأوا على التمرّد على سلطان القائد، أو هكذا ظن، فاستحقوا عقابه الأليم.

الرجل كان يصنّف البشر إلى قسمين: عدو وولي، فأما الأول فهو قاتله لا محالة، أيا كان دينه أو مذهبه، وأما الآخر فهو مُنجيه حتى تبدر منه علامات غدر أو تحوم حوله شبهة ما فيجهز عليه وعلى أهله وإن كانوا من ذوي القربى... فهل ينكر ذلك استهداف صدام حسين للحركات والأحزاب الإسلامية الشيعية خلال حربه مع إيران وإجهازه الشنيع على تمرد الجنوبيين عليه في التسعينيات وسفكه دماءهم أنهارا ودكّه ديارهم وأضرحتهم دكّا؟ ألم يرم بعوائل بأكملها على الحدود مع إيران ويشرّدها ويستبيح أملاكها وأموالها لا لجرم اقترفوه أو تهمة سوى تبعية أسلافهم؟ كل ما سبق ذكره صحيح، لكن الدافع وراءه لم يكن مذهبيا بدليل أنه قرّب إليه العديد من أبناء الشيعة الذين بايعوه على الطاعة العمياء والعبودية المطلقة.

"فصدام بريء إذًا من جرم تأجيج الطائفية بين أبناء شعبه واندلاع نيرانها الهوجاء التي أتت على الأخضر واليابس في عراق ما بعد "السقوط" أليس كذلك؟"... سؤال، بل ظن يكاد يرقى إلى مرتبة اليقين في أذهان كثير من العرب والمسلمين الذين التقيت بهم أو حاورتهم عن بعد.

مرة أخرى، جوابي سيخيب آمال البعض، لكن الخراب الذي شهدناه ولا يزال يعيشه أبناء العراق حتى الساعة هو بالضبط ما هدّد به الرئيس السابق علنا قبل الإطاحة به وأعد له العدة بإطلاق سراح كافة القتلة والمجرمين المحكومين عشية قيام الحرب الأخيرة كي يعيثوا قتلا وفسادا بين البشر، كما تعمّد قبل ذلك بسنوات عديدة (ضمن استراتيجية خبيثة لتأمين استمراره في الحكم) أن يحيي في أبناء شعبه العصبية القبلية ويغلّفها بغلالة من تديّن زائف ساهمتا مع الضغوط الهائلة الواقعة على الناس من جوع ومرض وفقر وجهل ورشاوى خلال حصار جائر لا يرحم في تفتيت مجتمع مدني إلى فصائل صغيرة وعشائر تأتمر بأمر شيوخها الذين قام باختيارهم بنفسه ومنحهم صلاحيات فاقت سلطة القانون بمراحل، فكان من البديهي أن تلوذ كل فرقة بزعيمها القبلي والطائفي وتتمترس حولهما على أهبة الاستعداد لقتال الفرق الأخرى، تماما كما هو الحال في مجتمعات البادية... ربما لم يكن الرئيس السابق متمذهبا بالمعنى العقائدي للكلمة، لكنه هيأ للطائفية تربة مثلى وغرس فيها أولى شتلات الشقاق في عهده، فكيف يكون بريئا مما تلاه؟

"فأين مسئولية الغزاة الأمريكان فيما حصل في العراق؟ أين دور إيران وتركيا وسواهما من دول الجوار والقوى الإقليمية؟ هل يعقل أن نلقي باللوم كله للمأساة التي يعيشها العراقيون اليوم على شخص أُعدِم منذ أكثر من عشر سنوات؟" سؤال آخر شاع بين الناس وتفاوتت الإجابات عليه... الجميع مسئولون بنظري، أمريكا بسوء إدارتها والدول والقوى الأخرى التي سعت كل منها وراء تحقيق مصالحها على جثث وأشلاء الأبرياء؛ لكن ينبغي التوقّف قليلا عند إيران تحديدا ودورها الذي لعبته ولا تزال تلعبه في المشهد العراقي المعاصر.

لم يعد خافيا على أحد أن اندلاع الحرب الضروس بين البلدين الجارين في مطلع الثمانينات قد تم بأمر من صدام حسين، العراق هو من بادر بالهجوم، أمر أثبتته الدلائل على الأرض، لكن هل يعني ذلك أن إيران ضحية بريئة من كل ما هو منسوب لها من مطامع ومساع لتصدير ثورتها إلى دول الجوار؟ يؤكد ساستنا في أحاديثهم الإعلامية أن سيادة بلدنا مصانة من كل عبث، إيراني أو سواه، لكن الوقائع على الأرض تروي قصصا مخالفة.

"صدام حسين كان محقا إذًا إذ ناصبهم العداء وحاربهم، كان يقوم بحماية البوابة الشرقية للأمة العربية من شرور المجوس،" قناعة سائدة أخرى تردّدت بكثرة خلال السنوات الماضية دون أن يكترث متبنوها بمراجعة فصول التاريخ القريب أو تأمّل مسار العلاقات بين الدول المتجاورة ذات المصالح المتضاربة... تأثير بلاد فارس على العراق ليس جديدا، حتى قبل وصول الملالي إلى الحكم، وتيرة الاحتكاكات والتوترات بين البلدين لم تنقطع طوال عصر الشاه ذي التوجه العلماني، لكن الأزمات كان يتم احتواؤها دبلوماسيا في كل مرة فتكون الغلبة لهذا الجانب مرة، ولذاك مرة أخرى، وهكذا دواليك.

الخلافات لا تُحل بالحروب دائما، لو كان الأمر كذلك ما بقي على وجه الأرض بشر... ثمة واقعة شهيرة رواها السياسي الراحل عدنان الباجه جي عن تفاقم الخلافات بين العراق وإيران على حصص المياه في شط العرب في منتصف الستينات حتى أوشك القتال أن يندلع بين البلدين، قام الرئيس العراقي حينها عبد الرحمن عارف بجمع وفد من مرافقيه والتوجه بطائرة خاصة إلى إيران للقاء الشاه الذي فوجئ بالزيارة، لكنه استقبل الوفد العراقي في مقره وأصغى لعرضه بحل الأمور وديا

فالحرب لن تجر سوى الخراب على الشعبين الجارين وستمتد لسنوات عديدة تتدخل فيها مصالح واستراتيجيات القوى العظمى والإقليمية ويكون العراق وإيران أكبر الخاسرين فيها، يقول الباجه جي إن الإمبراطور نهض من مقعده كي يعانق الرئيس العراقي وغادر الوفد إيران وقد نزع فتيل الأزمة.

عبد الرحمن عارف لم يكن زعيما خارقا للعادة، لكنه كان خريج الكلية العسكرية، تمرس في صفوف الجيش العراقي لسنوات طويلة قبل أن يصبح رئيسا لأركانه ثم رئيسا للجمهورية، بالإضافة إلى ذلك، أحاط عارف نفسه برجالات أكفّاء ذوي خبرات مهمة في شتى المجالات كان يطلب مشورتهم باستمرار فيدرسها ويأخذ قراراته وفقا لها... على الجانب الآخر نجد صدام الذي لم يتم أية دراسة جامعية، لا عسكرية ولا مدنية (استصدر لنفسه شهادة حقوق صورية بعدما صار نائبا للرئيس) حمله انقلاب من أوكار العصابات إلى مقعد المسئولية ثم شق طريقه إلى القمة بسلسلة من الدسائس والتصفيات، كانت تحركه غرائزه البدائية وشهوات وثارات طفولته ماضي أليم، أجهز على كل من خالفه الرأي وصمّ أذنيه عن النصح فكانت النتيجة انهيار بنى العراق على يديه وسقوط البلد غنيمة سهلة في يدي الجار اللدود.

... لكن، *كيف أجرؤ على مطالبة ابن قريب والدتي القتيل بالصفح والترفّع عن الحقد والرغبة بالثأر من قتلة أبيه؟ كيف أثنيه عن رفع صورة صدام بوجه من نكبه، وأقنعه بأن الرئيس السابق كان المسئول عن حالنا المزري اليوم؟ كيف أجعله يصغي لما أقوله، وبأي حق أنظّر عليه من موقعي الآمن البعيد وأزايد على مشاعره المتلظية كحمم البراكين؟ هل أضمن لو كنت مكانه بأني لن أنجر إلى هاوية الانتقام مثله؟ لكن مم أنتقم؟*

اتسعت دائرة القتل لتشمل كل الأعراق والأديان والملل، شاع الاستهداف على الاسم والهوية وطال مُصلّين في جوامع وكنائس وصوامع، رفع المتحاربون رايات شيوخهم ومراجعهم... بذرة صدام المسمومة التي دسّها في تربتنا قبل مماته كبرت وصارت شجرة هائلة، طعم ثمرها الموت ورائحته الدم، أعمتنا شهوة الثأر عن رؤية أننا بانتقامنا نصنع قتلة أبنائنا وأحفادنا.

اسمه لم يكن غريبا عن مسمعي، تداولته نشرات الأخبار منذ عقود عقب واقعة هروبه الشهيرة من الأردن وإعلان مسئوليته عن إفلاس بنك البتراء وضياع أموال مودعيه، مرورا بنشاطه الملفت ضمن صفوف المعارضة العراقية لنظام صدام حسين ونفوذه المدهش بين صنّاع القرار في الولايات المتحدة حتى قيل بإنه تمكّن من خداعهم بمزاعمه عن امتلاك العراق وتطويره لأسلحة دمار شامل واستدراجهم لإعلان الحرب ضده، أسوأ من ذلك كله كان دوره في تأسيس "البيت الشيعي" الذي كرّس المذهبية سياسيا وأطلق يدها كي تعيث في الأرض ظلما وفسادا عقب الإطاحة بخصمه اللدود... لم يكن سجل الرجل المثير للجدل خافيا على أحد، لو أجرينا بحثا سريعا عنه ستطالعنا آلاف مؤلفة من النتائج على مواقع أبرز وكالات الأنباء ومراكز الأبحاث حول العالم.

... فمن كان أحمد الجلبي ذاك الذي دوّخ الجميع قبل أن يتوفّى فجأة في داره وحيدا وحسيرا على كرسي سلطة لم يُسمح له بالجلوس عليه أكثر من ثلاثين يوما ضمن عضويته في مجلس الحكم الانتقالي؟

مدخلي لفهم شخصية الجلبي وخلفيته الاجتماعية كان الكتاب الذي ألّفته ابنته تمارا، باللغة الإنكليزية، عن تاريخ أسرتها ورحلة صعودها نحو النفوذ والثراء حتى غطّت عقاراتها واستثماراتها بغداد ومحافظات العراق قبل أن تمتد إلى الخارج أيضا... حمل نص تمارا الجلبي عنوان "التأخّر عن موعد الشاي في قصر الأيل".

كان أحمد أصغر أفراد أسرته، أبصر النور في بغداد وعاش حياة مرفهة في كنف والديه وأشقائه حتى سن الرابعة عشر عندما اندلعت ثورة دموية وضعت نهاية لحكم الهاشميين في العراق الذي أصبح جمهورية منذ ذلك التاريخ، سمع الجلبي وشاهد هياج الدغماء وتمزيقهم الوحشي لجثث رموز العهد السابق وسحلها في الشوارع، لمس الرعب والخوف وواجه إهانة الجنود لوالدته وسجن أهله ومصادرة أموالهم وأملاكهم وتشرّد والده في المنافي التي مات فيها غريبا وحسيرا بعد استقر في وعيّه أن كل ما حل به من جور كان بسبب مذهبه، إذ استكثر عليه الثائرون أن يكون شيعيا ويحظى بكل تلك الأموال وذاك النفوذ، وهي قناعة تبنّاها ابنه الأصغر من بعده فقطع عهدا على نفسه بإعادة مجد أسرته والثأر ممن تسبّبوا بظلمها.

ما تبقى لآل الجلبي من مال بعد الثورة كان فتاتا من ثروتهم السابقة، لكنه كان كافيا كي يحصل أحمد على تعليم ممتاز ويشق طريقه نحو الثراء والقوة من جديد (بطرق مستقيمة ومشروعة حينا، وملتوية في أحيان كثيرة) فأمسى الرقم الصعب في صفوف معارضي صدام حسين في الثمانينات والتسعينات، وتعرّض بسبب ذلك لمحاولات اغتيال عدة حتى قامت قوات التحالف بإسقاط نظام الحكم في العراق في مطلع الألفية الثالثة... عاد أحمد الجلبي محمولا على ظهر دبابات الغزاة إلى أرض أجداده التي غادرها كسيرا قبل عقود، عاد وهو يحمل على كتفيه إرثا ثقيلا من الكراهية ونهما للانتقام والاستيلاء على السلطة والمال، لم يعد كي يبني بلدا أو يصلح أحوال شعب جريح.

توهّم الجلبي بأن الطائفية قادرة على حمايته وتحصينه من تكرار مظالم الماضي فسعى لتكريسها وتسييسها، كانت النتيجة أن اندلعت الفرقة والعداوة بين أطياف المذهب الواحد طمعا بالظفر بالحصة الأكبر من المغانم، استنسخ اللصوص الجدد طغيان صدام وجبروته فأدرك كثير من العراقيين أن حريتنا التي بشّرونا بها ليست سوى خدعة ووهم... تابعنا سجالات قادتنا الجدد على شاشات التلفزة وهم يتبادلون تهم العمالة لهذه الجهة أو تلك، ردّدوا جميعا اسم صدام حسين وزعم كل منهم لنفسه الفضل بالإطاحة به والحق في الاستحواذ على المكاسب الهائلة لما بعد "السقوط".

وجد رموز المعارضة من أهل السنة أنفسهم في موضع المنبوذ وكأنهم لم يحاربوا صدام حسين ولم يسقط آلاف القتلى في صفوفهم خلال معاركهم معه، فجأة بات عليهم أن يدفعوا ثمن جرائم عهد كانوا هم من أول ضحاياه، تراجع دورهم إلى خلفية المشهد واضطروا في خضم دفاعهم عن أنفسهم أن يذكّروا الخصوم الجدد بما كان خلال سنوات النضال الماضية، فعُد ذلك نكوصا إلى أيام الديكتاتورية ودليلا على ما أضمرته النفوس من ضغينة، بات واضحا أن الطاغية قد حلّ محله طغاة كثر... صار ذكر صدام حسين في نقاش أو مناظرة ضمانة لاستفزاز المشاركين فيها فيعلو الصراخ وتلوّح الأيدي مهددة بالويل والثبور، أمسى خنجرا لجأ إليه المتحاربين كي يطعنوا به "الأعداء".

أحمد الجلبي نموذج فقط لطيف من المعارضين السابقين الذين تسنّموا مقاليد الحكم بعد الحرب الأخيرة، اهتمامي بسيرته كان ضمن محاولة لفهم سيكولوجية رفاقه

الباقين من خلاله واستقراء مصير العراق القادم على أيديهم، أكملت قراءة الكتاب الذي ألّفته تمارا الجلبي عن سيرة عائلتها وتجنّبت فيه الخوض عميقا في الشأن السياسي الذي وسم والدها فلم يكن أمامي سوى اللجوء إلى مصادر أخرى كتبها محللون مختصون وشهود عيان عن دور وتأثير الرجل الذي أطلق عليه أعداؤه لقب "الثعلب"... "سهام الليل" للمؤلف ريتشارد بونن كان الكتاب الذي قادني بحثي إليه وعثرت بين ضفتيه على إجابات لكثير من التساؤلات.

قرأت باهتمام المعلومات التي تضمنها نص بونن عن الأحداث السياسية، لكن أبرز ما لفت انتباهي كان شهادات الساسة الأمريكان عن قدرات أحمد الجلبي ومهاراته الذاتية كمتحدث ومفاوض... الانبهار بثقافته الواسعة ولباقته ولياقته كان الانطباع الأول الذي تركه لقاء الجلبي على كل من عرفه، كان قادرا على الاستحواذ على اهتمام الجميع بمجرد أن يبدأ في الحديث كما امتاز بقابلية فريدة على صياغة أفكاره وإقناع الحاضرين بطروحاته فيخرجون من الاجتماع معه وهم يتبنون وجهة نظره من حيث لا يشعرون.

... ماذا لو كان دهاء الرجل وذكاؤه الخارق قد سُخرا لخدمة ورخاء شعبه بدل تصفية حسابات الماضي؟ ماذا لو كان صدام قد استمال إليه رجالا وكفاءات كالجلبي عوضا عن معاداتهم والسعي لتصفيتهم واضطهاد أهليهم؟ ماذا كان سيكون مصير العراق لو أن مقاليد الأمور فيه كانت بيد من يجيدون إدارة دفتها بدلا من دوائر المجرمين والأميين التي أحاطت بالرئيس السابق فأفضت به وبالعراق إلى التهلكة؟

المشهد الخامس

"استخدام السلاح الكيمياوي في حلبجة لم يكن بقصد إبادة ساكنيها من الأكراد، كان لغرض سد ثغرة تسللت منها القوات الإيرانية خلال الحرب وهدّدت سلامة قطاعات الجيش العراقي المتمركزة في المنطقة، قامت الطائرات العراقية بإلقاء المناشير على الأهالي لتحذيرهم وحضّهم على الجلاء قبل الضربة، لكن معظمهم لم يكونوا يجيدون القراءة والكتابة فاستغل الإعلام الغربي الأمر واستخدمه سلاحا في حربه مع النظام".

"غزو الكويت كان مؤامرة خارجية دنيئة سقط صدام في شركها بعد أن تلقى ضمانات من سفيرة الولايات المتحدة في بغداد بدعمه في مسعاه لضم الإمارة الجنوبية ذات الثروات الهائلة إلى حدوده عندما أدار حكام الخليج ظهورهم له، بل مارسوا عليه ضغوطا خانقة وهو الذي خاض حربا ضروسا ضد إيران دفاعا عنهم وعن شعوبهم، لم يكن أمام الرجل سبيلا للخروج من أزمته سوى الهجوم".

... هذه نماذج فقط للحجج والذرائع التي تردّدها منابر كثيرة مؤيدة للرئيس السابق ومدافعة عن سقطاته وسياساته الكارثية وتبناها عدد لا بأس به من العراقيين الذين وجدوا فيها تبرئة لساحته وساحتهم معه، خصوصا من الذين كانوا في مواقع وظيفية حساسة خلال عهد صدام حسين.

أنا، وكل من تواجد في بغداد خلال وبعد اجتياح القوات الأمريكية لها، شهد مراحل التحول التي مرّ بها الأعوان السابقون... المرحلة الأولى كان عنوانها العريض الانقلاب على صدام حسين والتبرؤ تماما من جرائم عهده، بل وارتداء لبوس الضحية وادعاء محاولات وهمية للتمرّد على سلطانه ونكران كل المكاسب التي تراكمت جراء الاقتراب من دوائر النفوذ وخدمتها. كان هؤلاء الأعلى صوتا، ملأوا الشوارع ووسائل الإعلام بضجيج تهليلهم لإشراقة شمس التحرّر من الطغيان، شعراء الرئيس وجوقات المنشدين انقلبوا عليه، الرفاق الحزبيون وكبار منتسبي الأجهزة الأمنية انقلبوا عليه، حتى أقاربه وبني عشيرته انقلبوا عليه وانهمكوا في سباق محموم لحجز مقاعد لهم في دوائر وحاشيات السادة الجدد تضمن حصولهم على المزيد من المنافع والهبات.

من وجد له ظهيرا وشفيعا، من انتماء قبلي أو طائفي مشترك مع الأحزاب التي تسيّدت المشهد وقادتها أو تمكّن من إقناع الأمريكان بفائدته وقدرته على مد يد العون لهم، استطاع أن ينفذ بجلده فأُسدِل الستار على ماضيه... بقي الذين لفظهم الركب، لا انقلابهم على إرث صدام شفع لهم ولا عاد لهم نفوذ يلوذون به، هجرتهم الأضواء ونبذتهم المنابر فعاشوا أياما عصيبة مع أسرهم في الظل بعد أن اعتادوا حياة الأثرة والنعيم، غابوا عن المشهد لسنوات حتى تفاقمت الأزمات بين قطبي الإسلام السياسي وبات مقبولا ذكر صدام بالخير في وسائل الإعلام طالما جاء ذلك ضمن سياق مهاجمة الخصم.

عاود شعراء ومدّاحو الرئيس الظهور على السطح واستأنفوا نشاطهم الدعائي عبر قنوات فضائية ومطبوعات جاهرت بتغنّيها بعهد صدام حسين الذي عاش العراقيون من بعده الويلات... أطروحات مثل تلك تبنّتها شرائح مثل ضباط الجيش والقضاة والصحفيين وسواهم ممن أمضوا عمرا وهم يعملون ضمن ماكينة النظام، وإن لم يكن لهم تأثير فعلي على قراراته وسياساته، وجد أولئك أنفسهم بلا وظيفة أو مورد دخل، بل وطالت يد الخطف والاغتيالات عددا كبيرا منهم فلم يجدوا أمامهم سبيلا سوى الهجرة للحفاظ على سلامتهم وأهليهم، لكن الغربة لم تعفهم من مواجهة سيل من الأسئلة المحرجة عن ماض مشين تحتّم عليهم وعلى أسرهم تبريره أمام محيطهم الجديد.

حماسة أبناء وحفدة أولئك الرجال والنساء في دفاعهم عن صدام حسين وتصدّر صوره حساباتهم على مواقع التواصل الاجتماعي وهجومهم الشرس على كل صوت وقلم يدينه والزعم بأنه كان ضحية مؤامرة خسيسة استهدفته بدليل واقع الحال المزري في الوطن، يمكن فهمها جميعا في ضوء ثقافة موروثة عبر آلاف السنين تحتم على الأبناء الفخر بالآباء أيا كانوا وتجهض كل وقفة لمراجعة النفس وإبداء الندم أو التفكير في الاعتذار، فتلك علامات ضعف وهزيمة لا تليق بكبرياء العربي... عصبية الدم والعزة بالإثم عاملان مهمان ومؤثران في ظهور أعراض متلازمة ستوكهولم بين صفوف الشباب من العراقيين المغتربين، لكن هنالك عامل آخر لا يقل أهمية وتأثيرا عنهما أفرزه إعصار هائل ضرب بلاد العرب بعد مرور سنوات عدة على إعدام صدام حسين وأطلق الإعلام عليه في بداية هبوبه تسمية "الربيع العربي".

المشهد السادس

وقفت مشدوها أمام شاشة التلفزيون في بهو الفندق الذي كنت أقيم فيه في عمّان، تابعت الحشود الهادرة للمتظاهرين في ميدان التحرير في القاهرة وهي تطالب بإسقاط نظام الرئيس مبارك بعد أسابيع قليلة من الإطاحة بنظيره التونسي زين العابدين بن علي، المشهد بدا سرياليا لكل من راقبه معي من نزلاء وعاملين في الفندق.

... ما هذا الذي يحدث، وكيف يمكن أن تتهاوى عروش عتيدة حكم الجالسون عليها بلدانهم بقبضات حديدية لعقود، بل وخطّطوا لتوريث الحكم لأبنائهم من بعدهم، كبيوت هشة من ورق؟

رياح التغيير التي هبت من تونس بعد أن أقدم مواطن بائس على إحراق نفسه احتجاجا على ظلم وفساد السلطة في بلده انتقلت سريعا إلى مصر وليبيا واليمن وسوريا، حبس الشارع العربي أنفاسه ترقبا للتغيير القادم، ساد الاحتقان المشهد وتعالت أصوات غاضبة قمعها الطغيان زمنا طويلا... الحماسة الأولى والابتهاج بسقوط الديكتاتوريات أعقبهما اندلاع واسع لأعمال الفوضى والاقتتال سعيا وراء تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب في تلك اللحظات المفصلية، نشطت الأحزاب والحركات والجماعات المحظورة في القفز على الفرصة الثمينة لملء الفراغ السياسي والاستحواذ على السلطة، تعالت الأصوات المطالبة بالانتقام من رموز العهود الفاسدة وطبولها.

جحافل بأكملها من إعلاميين وشعراء ومطربين وممثلين وجدت أنفسها موضع اتهام وإدانة من قبل الرأي العام في أوطانها بعد أن كانت واجهة براقة للأنظمة الحاكمة فيها، كما حدث في عراق ما بعد صدام حسين حاول كثيرون التبرؤ من الماضي وإرثه، لكن الدلائل الدامغة على تورطهم كانت لهم بالمرصاد... تسجيلات ووثائق ورقية وسمعية وبصرية ردّدت عهود ولائهم للحاكمين وأنظمتهم، لا مجال هناك للنكران!

أطلق الثوّار على رموز العهود السابقة تسمية "الفلول" وباتوا مهمّشين ومنبوذين، حلّت محلهم وجوه وأصوات وأقلام شابة مثّلت إرادة التغيير والأمل بمستقبل من الرخاء والاستقرار والعدالة، لكن تراكمات عصور طويلة من الطغيان والفساد ما كانت لتزول بلا أثمان باهظة تدفعها الشعوب.

فكرت في ذلك وأنا أرقب الأحداث المتسارعة على الأرض، خبرتي التي اكتسبتها عن التبعات المريعة للتغييرات المفاجئة في أنظمة الحكم الشمولية جعلتني أشفق على الأشقاء مما كان بانتظارهم، وددت لو أنهم قد ركنوا إلى التعقّل والحكمة والسعي للضغط على السلطات لإجراء إصلاحات تدريجية بدلا من الانقلاب الجذري عليها، عقد ذهني مقارنة بين حالهم وحالنا في العراق حيث عشنا في عزلة تامة عن العالم الخارجي، لكن الزمن كان غير الزمن والظروف غير الظروف... لم تكن ا ١٠

شبكات تواصل اجتماعي تراقب النظام وتردعه عن النيل ممن شاء والتمثيل به، كل من فكّر بالإصلاح وخطّط له أو حتى اشتبه به في التدبير للتغيير كان يتم ذبحه بأبشع الطرق هو وأهله وجعلهم عبرة لكل من يعتبر.

للأسف، حدث ما كنت أخشاه وساد العنف والتعصّب والشقاق في الديمقراطيات الوليدة، امتلأت الشوارع العربية بالدماء حتى ترحّم المواطنون على الطغاة وأيامهم، هبّت ثورات مضادة عادت بأبواق العهود السابقة إلى الواجهة من جديد، ظهرت قنوات وصحف تحدثت عن مؤامرة دُبّرت بليل كان أول فصولها إسقاط نظام الرئيس العراقي السابق الذي بات ذكره مقرونا بالترحّم والحسرة على مآل الأمور من بعده... لم يكترث المنظّرون بالتمييز بين صدام حسين وسواه من الحكام المخلوعين كمبارك أو بن علي أو صالح أو حتى القذافي، أصدر إعلام ما بعد الثورات صكوك غفران لكل الطغاة بلا استثناء ومنح منابره لرموز عهد الرئيس العراقي السابق الذين سارعوا لتبييض وجوههم.

مليارات من الدولارات استثمرت في حرب الإعلام الموجّه، كان من بينها أموال أعوان صدام حسين السابقين الذين بنوا لأنفسهم مراكز ومؤسسات تجارية وإعلامية في دول الجوار والمهجر... تابع عراقيو الداخل والخارج فقرات السيرك المثير وسجالاته الصاخبة، تفاعلوا معها وتأثروا بها كل حسب موقعه وعمره وتجاربه، جاهر البعض بتأييده لصدام وأبدى الأسف على ضياع أمجاد عصره بينما كال البعض الآخر السباب والشتائم للخونة المتخاذلين، فيما ركنت الأغلبية إلى الصمت والحسرة على عمر ضاع هباءً وغد أفضل طال انتظاره.

نيران شقيقة

خطأ شائع يقع فيه كثير من الناس، إذ يعتبرون تعاطف الجماهير العربية مع صدام حسين وتنامي شعبيته بين صفوفها نموذجا لمتلازمة ستوكهولم... باستثناء الكويت والسعودية اللتين تعرّضتا لعدوان مباشر عن طريق الاجتياح البري والقصف الصاروخي قبل وخلال حرب الخليج الثانية، ولو استبعدنا مشاركة قوات عسكرية من مصر وسوريا والخليج ضمن قوات التحالف الدولي التي قامت بتحرير الكويت من الغزو في مطلع التسعينات، لو وضعنا ذلك جانبا، سنجد بأن العرب لم يكونوا يوما ضحايا لطغيان الرجل وجبروته مثلما كان العراقيون، بل أن كثرة منهم قد استفادت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من سياساته الهوجاء ونتائج حروبه المتعاقبة.

لذلك، فترحّم المواطن المغاربي مثلا على أيام الرئيس العراقي السابق الذي كان (وفق اعتقاده) شوكة في خاصرة إيران وسدا أمام تغلغلها في بلاد العرب وسعيها لنشر التشيّع فيها لا يمكن اعتباره عارضا لمتلازمة ستوكهولم قدر ما هو رد فعل لخطر كامن يهدد وطنه وطائفته، كذلك الأمر مع المصري البسيط الذي عاش في عراق صدام حسين وأعال أسرته وأقاربه ممّا جناه من مال خلال سنوات عمله هناك فساءه مشهد الإعدام البربري للرجل الذي لم ير منه شرا، لا نستطيع أن نعدّه ضحية تتعاطف مع من أساء إليها بل هو شخص وفي يردّ جميلا طوّق عنقه... أيضا، العربي الذي تلقى تعليما مجانيا في مدارس وجامعات بغداد وحصل على سكن ورعاية صحية وامتيازات أخرى كثيرة كان المواطن العراقي محروما منها لا يملك سببا لكره صدام ومن المنطقي أن يدين له بالولاء ويتعاطف معه.

أولئك ليسوا حالات يصح قياس المتلازمة وأعراضها عليها، لكنهم صنعوا أرضية وواقعا مؤثّرا على آلاف مؤلفة من العراقيين الذين اضطرهم سوء الأحوال في بلدهم إلى الهجرة والبحث عن ملاذ آمن على أرض شقيقة... لا أزال أتذكّر تفاصيل جدال احتدم بيني وبين سائق تاكسي في عمّان بعد أيام قليلة من وصولي إليها، ما أن عرف الرجل الملتحي بأني عراقي حتى صرخ في وجهي موبّخا على خيانتنا للقائد البطل وتخاذلنا عن نجدته في وقت الشدة وتسليمنا إياه إلى المحتل الغاصب، حاولت أن أشرح له حقيقة ما حدث ووهم البطولة التي أغدقها على حاكم سام شعبه صنو

العذاب والمهانة ثم تسبب بانهيار شامل لبنى بلده التحتية والأمنية وحتى الاجتماعية بعد رحيله، لكن سعيي اصطدم بجدار أصم فقد رفض الرجل أن يصغي لأيّ مما قلته، صدام بالنسبة له كان في مصاف الأولياء. اقتنعت يومها بعدم جدوى النقاش وترجّلت من السيارة صامتا.

تجربتي مع سائق التاكسي فتحت عيني على منظور مغلوط لكنه سائد للأحداث في بلدي، تلاها سيل من الأسئلة عن صدام حسين وعهده انهمر عليّ طيلة إقامتي في العاصمة الأردنية ثم خلال زياراتي اللاحقة لها وأيضا عبر مراسلاتي مع العديد من المثقفين العرب حتى بت قادرا على قراءة توجّهات السائلين وميولهم عبر صياغتهم للأسئلة التي جاءت في جزء كبير منها محاولات لتقرير وترسيخ قناعات مسبقة أكثر من كونها سعيا للاستفهام وطلبا لمعرفة الحقائق... فيما يلي نماذج لأكثر "الأسئلة" شيوعا وردودي عليها:

"لماذا أنت متحامل إلى هذا الحد على صدام؟ صدقني، إن أمريكا كانت ستدمر العراق حتى لو كان رئيسه ملاكا من السماء وحتى لو كان رب الديمقراطية والعدالة... ما يحدث هو تنفيذ لأجندة حكى عنها بن غوريون منذ ما قبل إعلان الكيان الصهيوني دولته: "عظمة إسرائيل تكمن في انهيار ثلاث دول، مصر والعراق وسورية" وهذا يعني ببساطة أن القضية كانت أكبر بكثير من صدام حسين"

صديقتي الأديبة الفلسطينية وأنا مختلفان سياسيا على طول الخط، لكننا نجحنا في الإبقاء على هامش من الإصغاء للرأي المعارض دون اشتراط قبوله أو الاقتناع به، ورد سؤالها ضمن رسالة بعثتها لي عقب نشري مراجعة لرواية "فئران أمي حصة" للكاتب سعود السنعوسي والتي تطرّقت ضمن أحداثها لغزو الكويت وتأثيره اللاحق على بنية المجتمع هناك ومسارات فئاته المختلفة، لم تكن أول مرة أطّلع فيها على مزاعم وجود مخطط قديم سري رسم مصيرا مظلما للشرق الأوسط وشعوبه... ككل عربي معاصر، يكاد صندوق بريدي الإلكتروني لا يخلو يوما من رسالة من هذا الصديق أو ذاك تحمل في طياتها خارطة مزعومة للمنطقة خطتها أنامل الاستعمار والصهيونية قبل عشرات السنين لتفتيت الدول إلى دويلات تسهل قيادتها والسيطرة عليها، أو صور لعملاء الاستخبارات الغربية في مناطق النزاعات والثورات قبل وخلال وبعد اندلاعها.

كثير من المؤشرات تُرجّح كفة الرأي القائل بوجود مؤامرة تستهدف بلاد العرب، لا أستطيع لوم من يتبنّى مثل تلك الطروحات ويروّج لها، فقط أختلف معه ومعها في قراءة المشهد والموقف المطلوب اتخاذه إزاءه، ثم أسأل من يحاول إقناعي بصحة النظرية:

هل وجود مؤامرة ما يُبرّئ ساحة صدام وسواه من الحكام الذين ارتكبوا أبشع الجرائم بحق شعوبهم؟ ألا يكونون هم في هذه الحالة أدوات الغرب لتنفيذ مخططه الدنيء؟ أليس ذلك دليل إضافي على تواطئهم وخيانتهم لنا أو في أحسن الأحوال عدم كفاءتهم وسوء تدبيرهم؟ كيف يمكن لإسباغ ألقاب وهالات البطولة والمجد والشهادة على زعماء قادونا إلى التهلكة أن يساعدنا على التصدي لتلك المؤامرة المزعومة؟ ألن يكون ذلك مسوغا لظهور المزيد من الطغاة وإعفائهم من المسئولية والمحاسبة بحجة وجود مخطط أكبر منا ومنهم؟ أليس من الواجب أن تكون خطوتنا الأولى للمواجهة بأن ندين الظلم والقتل والفساد والهوج المتمثّل بسير وشخوص أولئك الحكام؟.

"يكفي الرئيس الراحل فخرا أنه قد جعل من بلده دولة عصرية تزخر بالعلم والثقافة والعمران، هل تنكر بأن العراق قد حصل في عهد البعث على جائزة اليونسكو لحملة محو الأمية؟ انظر ما الذي حل بشعبك بعد السقوط! أين جامعات العراق ذات السمعة المرموقة اليوم؟ ما حال مستشفياته التي كانت تقدم أفضل الخدمات الصحية على مستوى الشرق الأوسط؟"

قابلت وأقابل العديد من العرب الذين زاروا بغداد خلال حكم صدام حسين وانبهروا بطرق العاصمة الحديثة وفنادقها الفخمة وكرم الضيافة الذي وجدوه فيها، حتى عندما كنا نعاني الأمرّين تحت وطأة الحصار الدولي المفروض علينا في التسعينات... أصغي لحسراتهم على الأيام الخوالي ثم أسألهم إن كان يجوز لي كغريب أن أصدر أحكاما مماثلة عن أوضاع بلدانهم وشعوبهم من خلال المنظور الضيق لإقامتي مدفوعة الثمن في فندق باذخ وتسكّعي في المولات والمطاعم الراقية لأيام معدودة؟ الجواب يأتي دائما بكلا، فتلك مجرّد واجهات مزيفة لا تعكس واقع الناس ومرارة حياتهم اليومية.

بالفعل كانت لنا جامعات ذات مستوى مشرّف خلال السبعينات وبدايات الثمانينات، ولا نكران بأن صدام حسين قد أوعز ببناء مستشفيات حديثة حملت اسمه

في كل محافظة، كما شق الطرق الواسعة وأنشأ المدارس والمسارح، كذلك فإن جائزة اليونسكو الممنوحة للعراق عن حملته الواسعة للقضاء على الأمية عندما كان صدام نائبا للرئيس واقعة موثّقة لا مجال للتشكيك فيها، لكن ذلك وجه واحد للحقيقة وليس الحقيقة كلها، وبالتالي فاعتماده مرجعا لتقييم عهد ممتد سينتج رؤى مبتورة وقاصرة، تماما كمن تبهره بضاعة معروضة على ورق مجلة صقيل حتى إذا ما تلمّسها بيده وتفحّصها جيدا، خاب أمله لرخص خامتها ورداءة صنعتها.

يجب التوضيح في البداية أن جُلّ المشاريع التي أُنجزت في عهد البعث (قبل وبعد وصول صدام إلى سدة الرئاسة) كانت ثمرة بحوث ودراسات مجلس الإعمار الذي تأسس في مطلع الخمسينات عندما كان العراق مملكة ذات غد واعد بفعل تراكم واردات ثرواتها الطبيعية المكتشفة حديثا ومناخ اجتماعي متفتح صنعته أفواج الشباب العائدة من رحلات تحصيل العلم في الغرب وجامعاته المرموقة... الباحث في ملفات مجلس الإعمار سيُفاجئ بعمق وجودة تخطيطه للمستقبل وتقاعس نظام البعث عن تنفيذ كثير من توصياته ومشاريعه الأخرى بسبب استنزاف ميزانية البلد في الحروب والدعاية لها.

خطأ شائع آخر يقع فيه كثر إذ ينسبون الفضل في ازدهار عهد ما لرموزه الظاهرة ويسقطون عنهم المسئولية عن كل تدهور لاحق، بينما منطق الأشياء يقتضي بأن يستند التقييم على الإرث الذي يتركه الحاكم لمن يخلفه لا ما استلمه جاهزا من سابقيه... نظام التعليم والرعاية الصحية المتميّزين في السبعينات والثمانينات كانا ثمرة لنهضة عاشها العراق قبل ذلك بعقود عديدة ونتاج عقول وكفاءات تلقّت تعليما وتدريبا رفيعين في داخل البلد وخارجه، فأثبتت جدارتها وتدرّجت في السلم الوظيفي وأخلصت في البذل والعطاء، ذلك كان إرث العهد الملكي وطلائع العهد الجمهوري قبل أن تلوّثه الولاءات الحزبية والقبلية، ولاحقا الطائفية.

فما هو إرث البعث وصدام حسين إذاً؟ نظرة سريعة على حال العراق في التسعينات تكفي لتقييم أداء الرئيس السابق والانهيار المريع لمؤسسات الدولة والكيان المجتمعي الذي تسبّب به بعد مرور عشر سنوات ونيف على تسنّمه لمنصبه... حربان ضروستان أتتا على ميزانية البلد وتركتاها شبه خاوية، بل مثقلة بديون وأعباء كافية لقصم ظهور أجيال عديدة قادمة، بنى تحتية مدمّرة ومشلولة ومقاطعة وحصار خانق

من الدول العربية والغربية على حد سواء، ملايين من القتلى والجرحى والأسرى والمفقودين والمعاقين جسديا ونفسيا، مستشفيات يملأ ردهاتها أطفال يموتون جوعا ومرضى لا يجدون دواءً، رشاوى متفشية في كافة المرافق وحشود غير مسبوقة من المهاجرين الباحثين عن مورد رزق في أي بلد يرضى باستقبالهم، معظمهم من خريجي الجامعات العراقية المرموقة التي سحبت المؤسسات البحثية العالمية اعترافها بالشهادات الممنوحة من قبلها بعد أن تفشى الفساد والتزوير في أروقتها، حلت العشائرية محل القانون وأحكامه واستحوذت القبيلة الرئاسية المتصارعة فيما بينها على مقدرات شعب بأكمله واستعبدته.

تلك كانت بعض ملامح عراق صدام حسين في أوسطه، وللباحث أن يتخيّل الوضع الكارثي الذي جرّ إليه البلد بعد مرور عقد إضافي من حكمه والتفكك والانهيار المريع الذي تلى الحرب الأخيرة التي أطاحت به... كثير من الأشقاء يعدّ إلقاء اللوم على الرئيس السابق، في اندلاع أعمال العنف والفتنة الطائفية، سذاجة بل غباءً في الطرح والتحليل وتجن غير مقبول على شخصه ومحاولة دنيئة لتبييض صفحة المحتل الذي تسبب بخراب العراق وسعى لتقسيمه.

لا أكثر من الأسئلة التي طرحت عليّ عن الفرق بين عهد الأمريكان والحكومات الفاسدة التي جاءوا بها، وعهد صدام على مساوئه، المستفسرون يتوقعون أن يروا ترقرق الدموع في عيني حزنا على أيام العز الغابر، تعلو الابتسامة وجوههم عندما أؤكد لهم بأن ما حدث بعد رحيل صدام هو أسوأ بالفعل مما سبقه، لكن البهجة ما تلبث أن تتلاشى عندما أشير إليه بإصبع الاتهام في المسئولية عن الدمار الحالي، ثم يحل الوجوم التام عندما أطرح عليهم السؤال التالي:

"أيهما أشدّ وطأة على النفس وأكثر وجعا ومهانة: الاغتصاب على يد الغريب أم سفاح القربى؟"

" أنتم شعب متمرّد مشاغب صعب المراس، لا يمكن أن يحكمكم إلا طاغية يضرب الأعناق ويسفك الدماء كصدام حسين... ألم تقرأ ما قاله الحجاج بن يوسف الثقفي عن أهل العراق ووصفه لهم بأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق؟"

من الأمور التي استوقفتني خلال دراستنا لتاريخ العمارة في الجامعة ما ذكره أساتذتنا لنا عن الفرق بين أحوال آثار بلاد الرافدين وحوض النيل، وكيف أن وجود

العراق في مفترق الطرق بين الشرق والغرب والشمال والجنوب وتوالي الحروب والغزوات والاجتياحات عليه قد تسبب بدمار كثير من معالم الحضارات التي نشأت على أرضه، بينما كان الموقع الجغرافي الآمن نسبيا لمصر عاملا في الحفاظ على صروحها العظيمة عبر العصور... المعارك التي جرت وقائعها على أرضنا منذ فجر التاريخ وتراكماتها وتبعاتها لم تترك أثرها المدمّر على النصب والأبنية فحسب للأسف، بل طالت شخصية الفرد والمجتمع العراقي وساهمت مع عوامل أخرى في صياغة ملامحها وتطرّفها الظاهر في كثير من الأحيان.

بالفعل نحن أمة صعبة المراس، ما مررنا به من أهوال خلال نصف القرن الماضي كفيل لوحده بالإطاحة بأخلاق وقيم أي مجتمع سوي متماسك فما بالك بكيان نام ناهض متعدد الأعراق والديانات والمذاهب يحبو نحو التطور والحداثة كعراق منتصف القرن العشرين؟ ثورة تلو أخرى وانقلاب بعد انقلاب، دم مراق في الشوارع وأشلاء مقطوعة وجثث مدلاة من أعمدة الميادين العامة، هدنات قصيرة وتهدئة يعقبها اقتتال شرس، استبداد ديكتاتور وضع نصب عينيه هدف تدمير وتفكيك البنية المجتمعية لشعبه وإعادة تشكيلها بما يضمن استمراره بالحكم واستحواذه المطلق على السلطة، حصار خانق ومجاعات وانتشار أوبئة لعل أسوأها على الإطلاق العشائرية والطائفية... تاريخ أوروبا المعاصر يروي لنا قصصا فظيعة عما حدث فيها خلال وبعد الحربين العالميتين التي استمرت كل منهما لسنوات معدودة فقط، فلم الدهشة إذًا وعلام الاستغراب من أن تحمل شخصية العراقي ندوب وجروح واقعه المرير؟ أنى لأمة أفرغت من عقولها وكفاءاتها أن تتحلى بالحكمة واللياقة؟

قد يكون العراقي حادا جامحا وغضوبا، قاسيا كشمس تموز الحارقة في بلده، لكنه في ذات الوقت وفي مزيج فريد من الصفات عاطفي متدفق رقراق كمياه دجلة والفرات... الفرد منا في المحصلة صنع بيئته وظروف نشأته وتراكمات تجاربه، لا قاعدة واحدة تنطبق على الجميع، في كل مجتمع هناك الجيد والسيئ، الخيّر والشرير.

بعد شهور قليلة من اندلاع القتال والعنف في الدول العربية سمعنا وقرأنا وشاهدنا أفعالا تشمئز منها النفوس وتقشعر لها الأبدان من مضغ جثث وشيها وقطع رؤوس وشرب دماء، صدر ذلك عن شعوب لم تختبر معشار الأهوال التي مررنا بها، قالوا لنا إن مرتكبي تلك الفظائع من الغرباء المندسّين وليسوا من أهل البلد، كذلك

الحال في العراق الذي امتلأت مدنه وقراه وباديته بالمرتزقة الذين نزلوا في أرضه تخريبا وفي أهله تقتيلا... للأسف، كثر من أولئك المجرمين كانوا من جنسيات "شقيقة".

" شاهدنا بالأمس فيلما وثائقيا عن العراق في عهد صدام حسين، أكثر من عشر سنوات مرت على موت الرجل ومع ذلك لا تزالون تجترّون الروايات عن ظلمه وقسوته... ألم تكونوا تصبون إلى رحيله؟ ألم يئن الأوان أن تكفّوا عن ذكره وتحميله وزر خطاياكم؟ أي انجازات حققتموها من بعده؟"

من المؤكد أني لست الوحيد الذي يواجه مثل تلك الملاحظات والتساؤلات، بل أكاد أجزم أن لا عراقي مرّ أو عاش في دولة عربية ألا ووجد نفسه تحت مطرقتها بوتيرة تزداد أو تقل تبعا لتوجهات مواطني ذلك البلد وموقفهم من الرئيس السابق ونظامه... أحاول فهم دوافع السائلين قبل الرد على استفساراتهم، لكنني أستغرب دائما ضجر الأصدقاء الفلسطينيين تحديدا من تكرار ذكرنا مثالب صدام حسين لسنوات عشر بينما يوشك الحديث عن فلسطين واحتلالها ومعاناة أهلها أن يدخل عقده الثامن ولا يزال متصدّرا لنشرات الأخبار ومحسوسا في كثير من النتاج الثقافي والفني العربي.

عندما أثير الموضوع معهم، يكون الرد:

"فليغادر الصهاينة أرضنا وسنكف عن معاداتهم فورا!"

للأسف، لا أعتقد أن ذلك قابل للتطبيق، فلو افترضنا أن اليهود قرروا فجأة الهجرة الجماعية وتسليم الأرض للفلسطينيين، فما تراه سيحدث في اليوم التالي؟

فوضى عارمة واقتتال ضار بين أبناء الشعب الذين وحّدهم الوجع لعقود، وصراع دام على الأرض والسلطة بين فتح وحماس، وملايين اللاجئين العائدين من المخيّمات وبلاد الشتات حاملين معهم مرارة التجارب وغضبا متأججا يبحث عن متنفس... حرب أهلية مدمرة ستنشب سريعا تتدخّل فيها وتؤججها القوى الإقليمية والعالمية ويتم استخدام الدين كسلاح مضمون في المواجهة فيها، أقليات ستُسحق وحريات ستُصادر فتزحف جحافل المهجّرين والفارين نحو دول الجوار بحثا عن ملاذ آمن من جديد فيما تعلو أصوات تترحّم على إسرائيل وأيامها.

"نعم، ذلك وارد الحدوث، لكن المسئول الأول عنه هو الكيان الصهيوني الخبيث الذي زرع الفرقة والعداوة بين أطياف البلد الواحد".

"ذلك بالضبط سيناريو ما حدث في العراق الذي غادر صدام حكمه بعد أن أحال أرضه خرابا وشعبه ألغاما، أفلا ترون أن حديثنا عنه بعد مرور أكثر من عشر سنوات على إعدامه له ما يبرّره؟"

... لكن، لماذا أتوقع من الفلسطينيين وسواهم من العرب أن يشعروا بمعاناتنا وأن يشاركوننا مقتنا لصدام وعهده؟

... ماذا لو كنت فلسطينيا؟

... أما كانت شعارات الرئيس السابق التي ردّدها عن تحرير أرضي لتخدعني أنا الآخر؟ أما كان سخاؤه معي ومع أهلي ليخجلني ويجعلني أبايعه بالولاء فأثور وأغضب وأدافع عنه بشراسة بوجه كل من يذكره بسوء أمامي وإن كان من بني جلدته؟

مما لا شك فيه أن كثيرا من الفلسطينيين، أفرادا وجماعات، قد استفادوا من صدام حسين وسياسته المعلنة إزاء قضيتهم المصيرية، شأنه شأن سواه من الحكام العرب رفع الرئيس السابق راية التحرير والجهاد وأنفق أموالا باهظة على تمويل شتى فصائل المقاومة وقياداتها التي كان يستخدمها في تحقيق أغراضه وتوسيع نفوذه على امتداد البلاد العربية، خصوصا وأنه كان يخوض في تلك الفترة حربا شعواء على النظام السوري ذي الهيمنة الملموسة على الساحة اللبنانية... على الجانب الآخر، نجد أن دعم صدام للمقاتلين كان ينقلب إلى ثورة وغضب ومحاولات تصفية طالت معظم رؤوس القيادات وفي مقدمتها ياسر عرفات بمجرد ظهور بوادر تمرّد منهم أو معارضة له في الأفق.

لكن بعيدا عن استضافة العراق لآلاف عديدة من اللاجئين الفلسطينيين على أرضه طيلة سنين حكم حزب البعث وعلاقاته الإشكالية مع رموز المقاومة وفصائلها المختلفة، ولو وضعنا جانبا شعاراته الرنانة والصواريخ التي أطلقها على إسرائيل عقب غزوه الكويت، يبقى سؤال مهم يتردّد في الأذهان بلا إجابة واضحة ومحدّدة:

"هل خدم صدام حسين قضية الشعب الفلسطيني؟ أو هل كان معنيا فعلا باسترجاع الأرض ومحاربة إسرائيل؟"

يعلم العراقيون جيدا أن فلسطين ونضال شعبها كانا موضع تندّر الرفاق البعثيين متى ما أطاحت الخمر برؤوسهم في مجالس السُكر التي عُرِفوا بها قبل أن يعتصم الرئيس بحبل التظاهر بالإيمان لإنقاذه من الهلاك الوشيك في مطلع التسعينات، كما ترددت أقاويل كثيرة عن مباحثات سرية أجراها الجانب العراقي مع نظيره الإسرائيلي على أرض محايدة وعرض خلالها إيقاف دعمه للقضية مقابل استغلال نفوذ اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة للضغط على الرئاسة الأمريكية كي تبقيه في الحكم... النفي القاطع والتشكيك بصحة المعلومات كان رد فعل أصدقائي الفلسطينيين عند سماعهم لمثل تلك الروايات، بل أذكر أن أحدهم قد انتفض غاضبا وقال وهو يغادر مجلسنا:

"كل ذلك هراء، ربّما كان صدام مخبولا وظالما لشعبه، لكن لا مجال لنكران بأنه كان أكثر زعيم عربي داعم لقضية فلسطين!"

على أرض الواقع، كان استهلال صدام حسين العقد الأخير من الألفية الثانية بغزوه للكويت وما نتج عنه من طرد مئات الآلاف من الفلسطينيين العاملين في الخليج من وظائفهم والصدع غير المسبوق في الصف العربي الذي تزامن مع ذلك وانقلاب التعاطف مع محنة الأشقاء إلى نقمة ومقت وشعور مر بالخيانة بسبب اصطفاف "البعض" مع الطغاة ضد الشعوب وتدهور الأوضاع المعيشية لفلسطينيي الداخل بشكل مريع، فكانت إسرائيل هي الرابح الوحيد من استهدافها بالصواريخ العراقية إذ حصلت على دعم وتعاطف ومعونات دولية غير مسبوقة... كل تلك الأحداث أصابت فلسطين وقضيتها وشعبها في مقتل حتى أن المراقبين باتوا يؤرخون لما سبق ذلك من سنوات بأيام الرخاء.

ربما تخفى تلك الوقائع على كثير من الفلسطينيين الذين يطغى تأثير العاطفة لديهم على منطقية الأحكام التي يصدرونها ويرفضون مناقشتها ومراجعتها رفضا باتا، لكن هناك فئة أخرى، وإن كانت أقل عددا، تدرك تماما الضرر الذي تسبب به الرئيس العراقي الراحل لفلسطين عن طريق متاجرته باسمها وقضيتها على امتداد سنوات حكمه.

"هل تعلم ما هو اليوم الأسعد في حياتي؟" سألني المصرفي الشاب خفيض الصوت ذو الجنسية الأردنية والأصول الفلسطينية بعد دقائق قليلة من تعارفنا في عمّان

وعلمه بأني عراقي... من خلال تجاربي وحواراتي السابقة مع مواطنيه توقعت أن يكون يوم استهداف رئيسنا السابق لتل أبيب بالصواريخ هو المقصود، لكن ما تفوّه به عقد لساني من الدهشة:

"يوم إعدام صدام حسين كان عيدا لي ولأسرتي، فقد تسبب بتدمير حياتنا وتشريدنا بعد أن كنا ننعم بعيش كريم مطمئن في الكويت، كل شيء انقلب رأسا على عقب في أسابيع معدودة، لم نهنأ براحة البال قط منذ ذلك التاريخ".

" سألت جاري العراقي عن حقيقة عقوبة قطع آذان الفارين من الخدمة العسكرية خلال حكم الرئيس الشهيد والأقاويل التي ملأت المنتديات الإلكترونية عن الموضوع فأكّد لي بأنه لم يقابل أحدا قُطِعت أذنه... لماذا تصرّون على ترديد الأكاذيب عن الرجل بعد موته؟"

الرد الغاضب وردني من أصدقاء عرب كنت قد أرسلت لهم رابطا عن طبيب عراقي لجأ إلى استراليا بعد عجزه عن تنفيذ العقوبة الدموية التي أمر بها صدام حسين بحق كل من يتخلّف عن أداء الخدمة العسكرية أو يؤوي هاربا منها، بينما كان الإعدام رميا بالرصاص جزاء من يتكرّر هروبه أو تستّره على الفارين من القتال.

منجد المدرّس، الطبيب الهارب من جحيم صدام، بات اليوم واحدا من أشهر وأنجح الجرّاحين في العالم بعد تخصّصه في زراعة الأطراف الصناعية، فعدّ مثلا أعلى ألهم الملايين بإنسانيته وقراره الشجاع بزراعة الأمل للمرضى المعاقين عوضا عن بتر أجساد الأبرياء لإرضاء دموية طاغية معتوه... تأثري بمنجز الدكتور المدرّس وفخري به كانا وراء رغبتي بمشاركة قصته مع "الأشقاء". ظننت بأنهم سيقومون بقراءة ما كتب عنه في وسائل الإعلام، ويسعدون كما سعدت بتقديمه صورة مغايرة عما ساد فيها عن العرب كمتعصّبين وإرهابيين.

أصدر الأخوة حكمهم القاطع ببطلان وزور الرواية دون أن يُكبّدوا أنفسهم عناء تصفّح الانترنت لدقائق معدودة فقط كانت ستكفي للعثور على نص المرسوم سيئ الذكر الذي نشرته جميع الصحف الرسمية آنذاك، لكن من قال بأنهم كانوا يريدون تأكيد الخبر من الأصل؟ جلّ همهم كان العثور على دليل (وإن كان باطلا) كي يقذفوه في وجهي عن افتراءنا على "الشهيد البطل".

لا أزال أتذكر الحادثة، لغة جسد الرجل وشت باضطرابه عند مروري بجواره في جمع مزدحم في حي الكرّادة وملاحظتي لأذنه المبتورة، كم بشع ومؤلم وصادم كان وقع المنظر عليّ، التفت وراءي فالتقت نظراتنا للحظات ثم أطرق كل منا برأسه ومضى في طريقه، وددت لو أني قد تحدثت معه وطيّبت خاطره بكلمات قليلة، لكن لا هو كان سيأمن الحديث عن الأمر مع غريب مثلي ولا كانت كلماتي ستصلح ما حل به من بلاء... معظم من وقع عليهم العقاب البربري كانوا يتوارون عن الأنظار ويعتزلون الناس لشهور ريثما يألفون هيئتهم المشوّهة فيعتمرون قبعات أو يلفون رؤوسهم بكوفيات تخفيها.

محنة الأطباء الذين أوكل إليهم تنفيذ الأمر الشنيع لم تكن أقل من محنة المبتورين، أولئك الشباب الذين أقسموا عند تخرّجهم على حفظ كرامة وحياة مرضاهم والرحمة بهم وجدوا أنفسهم في موضع جزّار كان عليه تقطيع جسد إنسان حي وتشويهه أو مواجهة عقوبة تصل إلى السجن والإعدام... لم يكن للجميع شجاعة وإقدام منجد المدرّس، خصوصا مع تشديد الرقابة الأمنية عليهم وقرار منع السفر المفروض على الأطباء، فكان اختيارهم الوحيد أن يجروا عملياتهم بأكبر قدر ممكن من الرأفة وبتر أقل ما أمكن من آذان المحكومين.

عندما أرسلت نص القرار إلى "الأشقاء" كي يطّلعوا عليه وذكرت لهم مشاهدتي لعدد من ضحاياه، كان الرد:

"على كل حال، عقوبة الفرار من القتال معروفة في معظم جيوش العالم وإن اختلفت في طبيعتها وشدّتها من بلد لآخر!"

" تتفنّنون في تشويه صورة الرجل، تتحدثون عنه كما لو كان وحشا ضاريا عديم الرحمة... ألم تشاهدوا الأفلام المصوّرة له مع أبنائه وبناته؟ ألم تروا حنانه الغامر ولطفه في التعامل معهم ومع زوجته؟ ألم تشاهدوه وهو يضم إليه النساء القرويات العجائز خلال زياراته المتكررة لأكواخهن وتفقّده لأحوالهن؟ ألم ترونه وهو يصلي ويؤدي مناسك العمرة؟"

لا ألوم من يطرح أسئلة كهذه، حتى عهد ليس بالبعيد كنت مثلهم أصدر أحكاما عن شخوص التاريخ القديم والمعاصر، تزكّيهم أو تدينهم، وفق ما أسمعه أو أشاهده عن هذا الملمح أو ذاك من مفردات حياتهم أو واقعة ما رويت عنهم أو صورة أخذت

لهم... تلك كانت أدلة دامغة بنظري على وطنية البعض وخيانة وعمالة البعض الآخر فلا أحيد عما استقر في ذهني من انطباعات مهما جادلني المعارضون وقدموا لي من حجج على سوء تقديري.

تعقيد النفس البشرية وتعدد أبعادها حتى تكاد لا تخضع لمعيار وحيد في القياس كانت حقيقة غائبة عني قبل أن أبدأ بالتعمّق في قراءاتي في علم النفس فانزاحت تدريجيا الغشاوة التي حجبت عني لسنوات فهم طبيعة سلوكي ودوافعه وأيضا سلوك الآخرين من حولي، قمت بمراجعة أحكامي السابقة عن رموز السياسة والأدب والفن العربية منها والعالمية وأدركت كم كنت مخطئا إذ ركنت إلى فهم مسطّح لها... أدولف هتلر كان رسّاما، أما ماو تسي تونغ فكان يردّد بأن الرقص أكثر تأثيرا على الشعوب من القتال، قبلهم بقرون كان طغاة أوروبا وملوك عصور ظلامها يؤدون الصلوات بخشوع وتذلّل أمام الكهنة ثم يرتكبون الآثام والموبقات في مخادع العشيقات والمحظيات، تفيض أعينهم بالدموع وينخرطون في نشيج حار في جلسات الاعتراف ثم يسفكون دماء الأبرياء بنهم وضراوة وحوش البراري.

يذكر كثير من العراقيين مشهد رئيسنا السابق وهو يلقي خطاباته المتلفزة في ذكرى عيد الجيش فتدمع عيناه عندما يرد ذكر الشهداء ويسحب منديلا ورقيا كي يجففها به وهو في غاية التأثر، لكنه ما أن يخرج من حرب مهلكة حتى يشن أخرى أشد عبثا منها وأكثر دمارا وقتلا... أولئك الذين يثنون على رقة قلب صدام حسين وعاطفته الغامرة ينسون (أو يتناسون) أنه قام بتصفية معظم القيادات الحزبية والعسكرية في البلد بتهم المؤامرة والخيانة وزج بمن بقي منهم على قيد الحياة في المعتقلات أو اضطرهم إلى الفرار واللجوء إلى المنافي.

قبل الإطاحة به وبنظامه في مطلع الألفية الثالثة كان قد ذبح صهريه ورمّل بناته ويتّم أحفاده فيما هجرته زوجته بعد أن أوعز باغتيال أخيها وزير دفاعه الأسبق ورفيق مشواره، واتخذ له زوجة جديدة كانت على ذمة رجل آخر أجبره على تطليقها وهجر أبنائها منه.

هوس صدام بأمنه وخشيته من أن يكون من بين حاشيته والمحيطين به من يتربّص به أو يخطّط للانقلاب عليه كما فعل هو من قبل مع أحمد حسن البكر (الرئيس السابق، ابن تكريت وصاحب الفضل على صدام) جعلاه يوغل في القتل والتعذيب

لمجرد الشبهة بهذا الشخص أو ذاك حتى امتلأت سجونه المخيفة بالمعتقلين ونُكبت أسر كثيرة طالها شرر غضبه الحارق... الغريب في الأمر أنه، وعقب مرور سنوات، كان يستدعي زوجات بعض المذبوحين ومن بقي على قيد الحياة من أبنائهم كي يعوّضهم بمنزل أو سيارة عن نسفه حياة أسرهم ومستقبلها، لكن حتى تلك "المكرمات" اتضح لاحقا بأنها لم تكن بلا ثمن.

أذكر وجوم والدي عند علمه بنبأ اعتقال صديقه المحامي الشهير إثر وشاية مغرضة به لدى الأجهزة الأمنية أدلى بها واحد من معارفه، الرجل الوقور كان قد أظهر ميولا دينية فصار يكثر من التردّد على مسجد حيّه، كانت تلك تهمة في نظر النظام الحاكم في عراق السبعينات وبدايات الثمانينات المعروف بنبذه التام للدين والتديّن... استمر حبس رب الأسرة لسنوات قبل أن تقرّر زوجته الإسكندنافية أن تطلب مقابلة الرئيس كي تستعطفه على حال أبنائها الصغار وفق نصيحة من بعض المقرّبين منها.

استقبل صدام حسين الزوجة الحسناء بحفاوة وتم الإفراج بالفعل عن الرجل بعد مرور شهور قليلة كما أنعم القائد على الأسرة بسيارة جديدة فاخرة، لكن الصدمة الكبرى كانت بإقدام الزوجة على الانتحار، لم يفهم والدي ولم نفهم نحن ما حدث وقتها وبقي الأمر لغزا حتى اطلعت على روايات منشورة بالإنكليزية لسيدات عراقيات مررن بتجارب مماثلة... كان صدام قد أُعدِم عندما قرأت كتب "زينب سلبي" و"سلمى أبو طبيخ" عن ما حدث لهن معه، إذ كشفت الأولى وهي ابنة طيار صدام الخاص وأحد المقربين منه أن الرئيس كان يعاشر زوجات رفاقه، بل أنه حاول التحرّش بها أيضا على الرغم من كونها في عمر بناته وصديقة لهن، ما حدا بوالديها لتسفيرها إلى خارج العراق بحجة خطوبتها إلى أحد المغتربين في الولايات المتحدة. أما سلمى أبو طبيخ، فقد روت في كتابها تفاصيل لقائها مع صدام الذي أخرج زوجها المعتقل من السجن بعد أن سدّدت ثمنا غاليا لذلك من كرامتها وجسدها في لقاء حميم جمعها به.

اطلعت أيضا على كتاب ثالث يماثل سابقيه في الأهمية ويستند على رواية "ميادة العسكري" حفيدة ساطع الحصري (الشخصية التربوية المرموقة وأحد رموز الثورة العربية الكبرى في مطلع القرن العشرين والذي لا يزال أحد شوارع العاصمة الأردنية حاملا لاسمه حتى اليوم) عن فظاعة تجربتها في سجون النظام والفضائح

المقززة للدوائر الرئاسية... تلك الشهادات جعلتني أدرك أية محنة مرت بها زوجة صديق والدي المسكينة على يدي صدام وأي أثر مدمر تركته التجربة في نفسها، الأمر الذي دفعها إلى قتل نفسها.

لست في وارد الحكم على زيف أو صدق مشاعر صدام حسين وهو يداعب أطفاله أو يصلي كما ظهر في الأشرطة الكثيرة المرفوعة عنه على الانترنت، لا يعنيني أي من ذلك ولا الجدل العقيم عن مصيره في الآخرة، ذلك شأنه وشأن أهل بيته وقبلهم جميعا خالقه لا شأني أنا أو سواي من الناس، أرفض أيضا نبش قبره والتمثيل برفاته، بل كنت أود لو أن القصور الرئاسية بقيت على حالها كي تكون مزارا للأجيال الجديدة وعبرة... أفعال الرئيس السابق وجرائمه بحق شعبه هي كل ما يهمني اليوم، غايتي من الحديث عنها أن نتّعظ من أخطاء الماضي وندينها فلا نجترّها مستقبلا مع طاغية آخر، صدام جديد.

" لقد بلغ بكم الشطط والتخبّط حد اتهام أعوان ومؤيدي صدام حسين بإنشاء داعش عوضا عن الإقرار بفشلكم الذريع في مواجهتها، أي دليل تملكونه على صدق مزاعمكم؟"

لا أتبنى مثل تلك الاتهامات ولا أعوّل عليها كثيرا فهي مثال آخر لنظرية المؤامرة التي تلقي باللوم دائما على الآخر ومخططاته الخبيثة لتبرير ضعف ما أو فساد أو سوء إدارة، أو جميع ما سبق... مع ذلك، كان تلويح الرئيس السابق باللجوء إلى سياسة الأرض المحروقة قبل الإطاحة به على مرأى ومسمع من الجميع، كذلك قراره بإطلاق سراح المجرمين والقتلة وبثّهم بين الناس لإشاعة الرعب والفوضى، يضاف إلى هذا وذاك حقيقة أن عشرات الآلاف من المُدرّبين على حمل السلاح والمجرّدين من أي رادع أخلاقي أو عقائدي يمنعهم من ارتكاب المجازر بحق الأبرياء كانوا قد أصبحوا بلا عمل أو مورد رزق بسبب حماقة الولايات المتحدة التي حلّت الجيش وقوى الأمن عقب غزوها العراق، تزامن ذلك مع التسيّب الحدودي الذي أتاح دخول أعداد كبيرة من الإرهابيين والمرتزقة القادمين من شتى أصقاع العالم إلى مدننا وقرانا، كل تلك عوامل ساعدت على ولادة داعش وسواها من المنظمات الإرهابية التي شرعت بالتكاثر والفتك بشعوب المنطقة بنهم خلايا سرطانية تفترس جسدا ضعيفا منهكا.

أكذب لو زعمت بأني أفهم حقيقة ما يجري في العراق وسوريا، تملأني الظنون والشكوك مثل الجميع حول إنشاء وتمويل داعش التي غدت كيانا ضاربا في الشرق الأوسط ثم امتدت عملياتها الإرهابية لتشمل دول الغرب ومدنه الحاضنة للاجئين الهاربين من جحيمها... أتفهّم، دون الجزم بصحة أو خطأ وجهات النظر القائمة على تحليل الأحداث والوقائع مثل تشابه أساليب التدريب المُعتمدة والاستراتيجية القتالية والدعائية مع تلك التي كانت للنظام العراقي السابق، كذلك التعويل على الترهيب وبث الريبة وممارسة الذبح الوحشي والخطف والتعذيب لشل إرادة المدنيين والسيطرة عليهم.

سقوط عدد من رموز عهد صدام حسين في الأسر وروايات كثير من الشهود عن وجود مقاتليه وأزلامه ضمن صفوف مقاتلي وقيادات التنظيم كانت ذريعة البعض لتوجيه التهم لعائلة الرئيس السابق بالوقوف وراء العمليات الإرهابية في بلدها الأم بتمويل سخي من دول وقوى إقليمية، كذلك الذوبان المفاجئ والغياب المريب لنشاط "المقاومة" وبياناتها الصاخبة بالتزامن مع ولادة "تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشام"... قد تمر سنوات طويلة قبل أن تنكشف حقيقة اللعبة المدمرة ومن خطّط لها وموّلها وقد لا يحدث ذلك أبدا فيبقى الأمر لغزا يحيّر الباحثين شأنه شأن كثير من مفاصل التاريخ المؤثرة التي نجهل تفاصيلها حتى اليوم، كل الاحتمالات قائمة حتى إشعار آخر، الأمر المؤكد الوحيد أن داعش وشقيقاتها الأخرى ما كن ليظهرن ويسدن على أرض لم يفسدها الجهل والفقر والطغيان.

" أتنكر المأساة التي عاشتها وتعيشها الأقليات بعد سقوط حكم صدام حسين؟ ألا ترى ما أصاب المسيحيين من ذبح وذل وتهجير وهدم لدور العبادة من بعده؟"

أحمق من ينكر ذلك أو يشكك فيه، ربما لم تكن أحوال الأقليات العرقية والدينية مثالية خلال عهد الرئيس السابق، لكن ما أصابهم بعد رحيله كان مأساة مروعة بكل المقاييس... لا شك بأن صدام لم يشن حملات إبادة ضد المسيحيين والأزيديين كما فعل مع فئات أخرى من شعبه، لم يجبرهم على الاختيار بين اعتناق الإسلام ودفع الجزية أو ذبح الرجال وسبي النساء ونهب الدور والأملاك كما فعلت داعش معهم، أيضا كان من بين أعوانه مسيحيون كثر، لكن هل ذلك دليل كاف لتبرئة ساحته من الجرم والمسئولية عما حدث من بعده؟

تلفّع صدام بعباءة التديّن لأسباب تكتيكية في مطلع التسعينات كان المسمار الأول في نعش عيش الأقليات بسلام مع الغالبية المسلمة في العراق، تلاه سريعا إنعاشه للقبلية الذي لجأ إليه للأسباب ذاتها... روت لي صديقة حادثة كانت شاهدة عليها في تلك الفترة عندما قدّم رجل وزوجته بيان ولادة ابنتهما إلى دائرة النفوس بغرض تسجيلها فرُفِض طلبهما بحجة أن الاسم الذي وقع اختيارهما عليه كان لقديسة مسيحية، أبلغهما الموظف المعني أن قرارا رئاسيا قد صدر بمنع إطلاق الأسماء ذات الدلالات الدينية غير الإسلامية على الأطفال حديثي الولادة، فما كان من الزوجين سوى الرضوخ للتعليمات الجديدة واعتماد اسم آخر لوليدتهما لا يثير حساسية السلطة.

لا وجه لمقارنة ذلك مع الفظائع التي ارتكبت بحق المسيحيين فيما بعد بطبيعة الحال، لكنه كان خطوة أولى لعزل الأقليات واضطهادها ضمن عملية ابتزاز خبيثة للمشاعر الدينية لمسلمي الداخل والخارج... كنت موجودا في العراق في تلك السنوات العجاف التي شاع فيها سؤال لم نكن معتادين عليه من قبل عن دين الإنسان ومذهبه وعشيرته، لم نكن نكترث بمعرفة أي من ذلك خلال سنوات الدراسة الابتدائية، بل لم نكن نعلم شيئا عن الطائفية التي صارت بين ليلة وضحاها أبرز معالم هويتنا، شهدت بنفسي انهيار علاقات صداقة دامت لسنوات بين رفاقي بسبب الخطاب الديني الذي حض على نبذ الآخر المختلف وحرّم التعامل معه وتناول الطعام في بيته أو حتى تهنئته بأعياده.

عندما أوشك نظام صدام حسين على السقوط عشية الحرب الأخيرة كان المجتمع العراقي قد تقهقر قرنا أو يزيد إلى الوراء، خلع عنه لبوس المعاصرة والانفتاح واستعاض عنهما بأشواك الولاءات القبلية والطائفية... ما أن حدث الانهيار وشاعت الفوضى والنهب والقتل والخطف حتى وجدت الأقليات نفسها في موقف دقيق حرج بلا سند يحميها من بطش التكتلات الأقوى والأكثر عدة وعددا، سقط المسيحيون وسواهم من أتباع الديانات الأخرى التي سبق تاريخ سكناها أرض الرافدين وصول الإسلام إليها بقرون عديدة فريسة سهلة لمخالب وأنياب وحوش كانوا إلى زمن قريب جيرانا وأخوة وأحبة.

" الآن، وقد استشهد الرجل، صارت لكم أصوات تعلو وتجأر بالشكوى من مظالمه... رحم الله أبا عدي! كان أحدكم في أيامه يهمس عندما يذكره في وارد الحديث ثم يتلفّت حوله من الخوف وهو يرتجف."

كلمة حق أريد بها باطل، ومثال آخر لمعايير مزدوجة سائدة عند كثير من "الأشقاء"... بالفعل كان حالنا كذلك في عهد صدام حسين، كان الخوف مكونا راسخا في وجودنا، يمشي ويأكل ويصحو وينام معنا، بل يصنع أحلامنا أيضا ويحيلها إلى كوابيس مرعبة في أحيان كثيرة، أعرف عددا لا بأس به من العراقيين رافقهم هاجس التلصّص عليهم لسنوات بعد سقوط النظام، عقولهم المنهكة المبرمجة على الريبة والحذر رفضت الخروج من زنازينها الضيّقة حتى بعد رحيل السجّان، الغريب في الأمر أن الأعلى صوتا والأكثر سبا وشتما كانوا من أعوان صدام السابقين والمُقرّبين منه بما في ذلك أهل بيته قبل أن يعيدوا حساباتهم ويدركوا أن المتاجرة في إرثه استثمارا أكثر ربحا بكثير من الانقلاب عليه ومحاولة التنصّل منه.

... لكن، هل خوفنا من طغيان صدام حسين الذي شلّ إرادتنا وكمّم أفواهنا طيلة عقود حكمه دليل إدانة ضده أم ضدنا؟

... ما بال "الأشقاء" عوضا عن التعاطف معنا يستكثرون علينا مجرد الحديث عن مصيبتنا؟

... لو كان الظلم والجبروت والقمع معايير البطولة بالنسبة لهم فما وجه إصرارهم على الشكوى من إسرائيل وممارساتها التعسفية بحق الفلسطينيين إذًا؟

أسوأ من ذلك وأمَرّ، ما يمارسه البعض من تشكيك في مصداقية العراقي والمزايدة على وطنيته وعقيدته لمجرد ذكره الرئيس السابق بما لا يروق لهم.

" اسمك علي، أنت شيعي إذًا، هل هذا هو سبب كرهك للرجل؟ هل تمقته لأنه أذل أبناء طائفتك من الفرس؟"

رد فعلي الأول على سماع مثل تلك الاتهامات هو الضحك، أسخر بمرارة من جهل السائل بتركيبة النسيج المجتمعي في بلدي وبلدان عربية أخرى مثل مصر وسوريا حيث يحمل اسمي من أبناء السنة عدد لا يقل (بل ربما يزيد) عن حملته من الشيعة... أعطيهم أمثلة على ذلك من داخل عائلة صدام "حسين" فحفيده ابن ابنته رغد وزوجها "حسين" كامل اسمه "علي" كذلك ابن عمه سيئ الذكر "علي" حسن المجيد الملقب بالكيمياوي، بينما يؤكد كثيرون أن الاسم الذي اختاره الرئيس السابق لابنه من زوجته الثانية سميرة الشابندر هو "علي" أيضا.

أما موضوع أن صدام قد أذل الفرس وكسر شوكة المجوس، فقد أوضحت مرارا وتكرارا أنه بطيش سياساته وتخبطها لم يمكّن ملالي طهران من أمر العراق وثرواته الضخمة فحسب، بل قدّم لهم على طبق من ذهب فرصة وذريعة للتدخّل في شئون دول عربية أخرى وبسط نفوذهم فيها ما تسبب في حالة الاحتقان المريعة التي تعيشها المنطقة اليوم.

السؤال الأهم يبقى:

ما شأن عقيدتي ومذهبي واسمي فيما أطرحه من رأي عن مجريات الأمور السياسية في بلدي؟ وكيف تعطي نفسك "شقيقي العربي"، وأنت مسترخ على مقعدك الوثير أمام شاشة حاسوبك أو تلفازك على مبعدة مئات من الأميال، مشروعية تخويني ومصادرة حقي في الحديث عما لمسته وعرفته جيدا؟

تأملي النهج المختل الذي يتبعه كثير من العرب في إصدار أحكامهم جزافا عن أمور يكادون لا يفقهون عنها شيئا ليس وليد اليوم والساعة، بل يعود إلى سنوات عديدة خلت عندما كنت في مطلع العشرينات من العمر في بغداد، أنصت باهتمام لأحاديث الكبار من الأهل والأصدقاء وهم يدلون بدلوهم في هذا الشأن أو ذاك بمنتهى الثقة والاعتداد بالنفس فتقدح آراؤهم الجازمة في ذهني كما هائلا من الأسئلة والحيرة.

عن الناصريين في العراق

... الرؤية من داخل الدائرة وخارجها

صباح الثالث والعشرين من يوليو/ تموز من عام ١٩٥٢، كان سيكون نهارا صيفيا كسواه في حياة سكان العاصمة المصرية لولا بيانا حملته لهم أجهزة المذياع عن حدوث انقلاب عسكري خطّطت له ونفذته مجموعة من الثائرين أطلقت على نفسها اسم "الضباط الأحرار" بهدف القضاء على الفساد والإقطاع ونفوذ الاستعمار في البلد... اتخذت الحركة لها في البدء واجهة من اللواء محمد نجيب الذي حمل بيانها الأول توقيعه، لكن زعامتها الفعلية، كما اتضح سريعا للجميع، كانت في شخص بكباشي/ مقدم، أسمر السحنة جاد الملامح هو جمال عبد الناصر.

... ماذا لو لم يحالف النجاح الثائرين وقدر للملك فاروق الإمساك بزمام الأمور؟ كم كان سيبدو وجه مصر مختلفا اليوم، وكثير من الدول العربية، بل والعالم أيضا؟ كثيرا ما أفكر في الاحتمالية.

توفي جمال عبد الناصر بعد ولادتي بعام ونيف، لكن ذكره لم ينقطع حتى بعد مرور أكثر من أربعة عقود على ذلك اليوم المبلل بدموع الملايين من المفجوعين برحيله في مدن وقرى مصر والعالم العربي من المحيط إلى الخليج... في العراق (في مجالس سمر قيادات حزب البعث العربي الاشتراكي تحديدا) كان الأمر مختلفا تماما، فقد راح الرفاق يفتحون زجاجات الشمبانيا والويسكي وأمضوا الليلة ثملين يتبادلون الأنخاب ابتهاجا برحيل الخصم اللدود.

كراهية بعثيي العراق للزعيم المصري لم تكن خافية على أحد، فقد ناصبوه العداء منذ استيلائهم على مقاليد الحكم في بلدهم قبل عامين من وفاته، كانت إذاعة بغداد تحرص على بث أغان شعبية بعينها عقب كل خطاب لجمال عبد الناصر للسخرية منه ومن مهنة والده البسيطة إذ كان بوسطجيا أو ساعيا للبريد، لكن الخصومة بين الطرفين بلغت مداها قبل وفاة الرجل بقليل عندما قام المسئولون بوضع لافتة في قلب الساحة التي حملت اسمه في بغداد كُتِب عليها "ساحة أبي رغال" كناية عن صفة الخيانة والغدر المرتبطة بالشخصية المكروهة في تاريخ العرب القديم... في حقيقة

الأمر، كان ناصر بشعبيته الجارفة يشكّل تهديدا لسلطة الثورة الوليدة وقيادتها في بغداد.

يعتبر كثير من المؤرخين أن الحرب التي شنتها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر في عام ١٩٥٦، إثر تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس، نقطة مفصلية في مسيرته الشخصية والسياسية فقد كانت بمثابة المخاض العسير الذي سبق ولادة زعامته الفريدة. تحوّل ناصر بعد أزمة السويس أو "العدوان الثلاثي" كما بات يُعرف، إلى أيقونة لتحدي القوى الاستعمارية الغاشمة والتحرر من هيمنتها، فالتفت حوله قلوب الملايين من الثائرين والمناضلين في أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، لكن أثره على الشارع العربي كان غير مسبوق... لأول مرة وبعد قرون من التبعية لهذه الإمبراطورية أو تلك شعر المواطن العربي بأنه قوي وقادر على الفعل والتأثير، بل ويملك أن يقف ندا للقوى العظمى ويجبرها على أن تحسب له ولإرادته ألف حساب.

فورة من الحماس والرغبة العارمة في التغيير جرفت الجماهير العريضة، أجّجتها إذاعة "صوت العرب" من القاهرة عبر خطب مذيعيها الرنّانة وهتافاتهم برفض الخنوع والدعوة لإسقاط الأنظمة الرجعية والانضمام إلى ركب الثائرين، خصوصا بعد إعلان الوحدة بين مصر وسوريا التي أيقظت مشاعر الجموع الحالمة بإحياء مجد العرب الغابر من جديد... وجدت الصرخة صداها في العراق الذي ثار شعبه ضد الملكية فأسقطها ومثّل بجثث رموزها بطريقة بشعة ثم أعلن قيام الجمهورية في سيناريو اقتبس الكثير من ملامح "ثورة يوليو" وحركة ضباطها وأدبياتها الأولى، لكن صراعا على الزعامة ما لبث أن دبّ بين قادة الانقلاب وأسفر عن سلطة تمرّدت على رغبة جمال عبد الناصر بضم العراق ذي الثقل التاريخي والموقع الاستراتيجي والموارد الطبيعية الهائلة إلى "جمهوريته العربية المتحدة".

شهد عقد الستينات سلسلة من الاضطرابات والانقلابات والثورات في بلاد الرافدين، نجح منها ما نجح وفشل ما فشل، لكن حضور ناصر وتأثيره كانا جليين في كل ما حدث سواء بالتنسيق المباشر مع المتمردين ودعمهم سياسيا وماليا بل ومدّهم بالأسلحة التي كانت تصلهم سرا عن طريق السفارة المصرية في بغداد، أو عن طريق مهاجمتهم وتأجيج الرأي العام ضدّهم عبر الصحف وبرامج الإذاعات الموجهة... استقبلت مصر في تلك الفترة العديد من المُطاردين الذين فروا إليها هربا من حكم

صدر بحقهم أو نشاط سياسي محظور مارسوه في بلدهم الأم، كان من بين أولئك فتى من العراق يُدعى صدام حسين التكريتي.

كثير من الغموض يلف سنوات إقامة صدام في القاهرة التي أكرمت مثواه إثر ضلوعه في عملية اغتيال فاشلة أصيب خلالها بطلق ناري في ساقه... زعمت بعض الروايات أن لقاءً بين اللاجئ الشاب وجمال عبد الناصر قد تم بالصدفة في "نادي الجزيرة" الذي فتح أبوابه ومرافقه أمام لاجئي العاصمة بأمر من الرئاسة بعد أن كانت حكرا على الأعضاء من الأجانب والأرستقراطية المحلية، قيل أيضا بأن الزعيم المصري لم يبد ارتياحه للمقابلة، بل أطلق على صدام وصف "واد طايش وبلطجي" خلال حديث له مع وزير التخطيط العراقي السابق جواد هاشم الذي سرد الواقعة ضمن مذكراته المنشورة.

عداوة صدام حسين وحزبه لناصر خفّت حدتها بعد وفاة الأخير، فتمت إزالة اللافتة المسيئة بحقه من الساحة التي حملت اسمه في بغداد كما توقفت مشاكسات الإذاعة له وسخريتها منه وإن بقيت تتجاهل دوره وذكره في برامجها... يبدو بأن الرفاق البعثيين قد أدركوا بأن فرصتهم قد حانت للاستيلاء على مقعد الزعامة العربية الذي شغّر برحيل جمال عبد الناصر والاستحواذ على إرثه الضخم من المواقف والشعارات المدغدغة لعواطف وآمال الشعوب، كرفع راية تحرير فلسطين والسعي من أجل تحقيق الوحدة العربية ومناهضة الامبريالية وسواها من الأهداف العظيمة.

خلو مناهجنا وكتب التاريخ التي وزّعت علينا في المدارس من أي ذكر لجمال عبد الناصر لم يحل دون معرفة جيلي بشخصه ودوره، إذ كان حاضرا على الدوام في حوارات أهلنا ومعارفهم. سمعت في سن مبكرة عن قناة السويس والعدوان الثلاثي والنكسة وخطاب التنحي وصوت العرب ومذيعها الشهير "أحمد سعيد" دون أن أفقه كثيرا مما كان يُقال عنهم... شغف المتحدثين وحماستهم كانا كفيلين بإثارة فضولي الطفولي لمعرفة المزيد، حتى أني صنعت صواريخا ورقية ذات مرة وأطلقت عليها أسماء "الظافر و"القاهر" بعد أن سمعت الكبار يتحدثون عن برنامج الصواريخ المصري الطموح.

ما أن كبرت قليلا وولجت عالم القراءة حتى صرت ألتهم كل ما يقع بين يدي من الكتب التي تناولت تلك الحقبة المثيرة، خصوصا مؤلفات مؤرّخ ومنظّر التجربة

الناصرية محمد حسنين هيكل التي لم تكن متوفرة في المكتبات حينها، لكن دائرة أصدقاء أسرتي كانت تضم بين أفرادها عددا لا بأس به من العروبيين الذين رحبّوا بإعارتي كتبهم عندما لمسوا اهتمامي بها وحرصي على المعرفة... سماحهم لي بالإطلاع على كنزهم النفيس أشعرني بالاعتزاز والفخر بنفسي، وبأني صرت رجلا ذا رؤية سياسية وموقف مثلهم.

لذة تجاذب أطراف الحديث مع أصدقاء أهلي من القوميين كانت لا تقل عن متعة قراءة كتبهم الشيقة، استرجاعهم لذكريات النضال وتوزيع المنشورات والخروج في مظاهرات حاشدة مؤيدة لناصر ومصر كانت كفيلة بجعل خيالي يجنح إلى رسم مشهدية ملحمية أسير فيها بين جموع الثائرين وأهتف معهم بسقوط "حلف بغداد" والنظام الملكي "العميل" قبل أن أعود إلى واقعي المغلف بالصمت القسري والعجز... لا شك بأن لنشأتي في ظل رعب حزب البعث دورا أساسيا في انجذابي إلى نموذج الناصريين، خصوصا وأني لم أسمع أو ألمس عند والدي أو والدتي نشاطا مماثلا لما كان عند أصدقائهم، عندما استفسرت منهما عن دورهما خلال تلك الأيام كانت الإجابات تأتي مقتضبة ومقتصرة على إبداء الإعجاب بعبد الناصر والتعاطف مع مصر وذرف الدموع عليها عند المحن، لكن لا فعل حقيقي ولا ثورة.

" لماذا السلبية في زمن كان يتيح لكما الاحتجاج ولا يقمع التعبير عن رأيكما؟"

"يصعب عليك أن تفهم السبب في عمرك الصغير هذا، ستدرك الحقيقة عندما تكبر"... الجواب المُتحفّظ الذي يبطن أكثر مما يظهر لم يُشبع فضولي، بل زاد من إعجابي بالعروبيين حتى حدثت الطامة الكبرى عندما أعلن خليفة ناصر محمد أنور السادات عن نيته زيارة إسرائيل وعقد اتفاقية سلام معها.

الرئيس المصري الجديد لم يكن يُشكّل تهديدا لقادة البعث أو ساعيا لبسط نفوذه وإرادته عليهم مثل سلفه، ولذلك فقد شهد عهده الأول تحسنا ملحوظا للعلاقات مع عدد من الدول الشقيقة كان العراق من بينها، خصوصا عند قيام حرب أكتوبر التي شارك جيشنا فيها ومحت عن العرب بعضا من عار الهزيمة السابقة وإن لم تتكلّل بالنصر التام هي الأخرى، لكن قرار السادات الصادم بالذهاب إلى عقر دار العدو اللدود لشعبه وأمته وبسط يده إليه كانت خطوة استغلّتها قيادتنا لسحب البساط من تحت مصر وتحقيق مكاسب سياسية على حسابها.

لا أذكر وصفا مسيئا واحدا لم تلصقه أجهزة إعلامنا بالسادات، رسوم الكاريكاتير التي ملأت صفحات جرائدنا الرسمية صوّرته كثعبان وثعلب ونعال لأقدام الصهيونية والرأسمالية، فيما تكفّلت أقلام كتّاب الأعمدة بشيطنة الرجل وصب شتى صنوف اللعنات عليه. الخطوة التالية كانت السعي إلى محاصرة القاهرة وعزلها عن محيطها، فتم طلب عقد مؤتمر قمة في بغداد لإدانة فعل الرئيس المصري "الخسيس" وفرض عقوبات عليه ومقاطعته حيث تقرّر نقل مقر الجامعة العربية من مصر إلى تونس وتعليق عضويتها فيها... فتحت عاصمتنا ذراعيها لمعارضي السادات واستقبلتهم بالأحضان وأغدقت عليهم الأموال لإنتاج مشاريع فنية وثقافية منددة بالخيانة ومشيدة بوقفة العراق وزعامته مع قضية العرب المصيرية.

لا أزال أذكر دوي حناجر معلمينا ومعلماتنا بالهتاف بسقوط "العميل"، في طابور الصباح وخلال مراسم رفع العلم. لم تكن وسائل الاتصال حينها على ما هي عليه اليوم من تطوّر وسهولة استعمال وسعة انتشار، فكان حتما أن تؤثر الدعاية الرسمية علينا وتجعلنا نؤمن بأن السادات قد وجّه لأمته العربية طعنة غادرة في الظهر... مجالس والديّ كانت هي الأخرى تموج بالغضب وتترحّم على عبد الناصر وأيامه ومواقفه المجيدة، واحدة من بين تلك الاجتماعات الكثيرة التي كنت شاهدا عليها رسخت ذكراها في ذهني وبقيت تفاصيلها ماثلة فيه حتى بعد مرور أربعين سنة.

شاشة التلفزيون في غرفة معيشتنا كانت تنقل وقائع هبوط طائرة الرئيس المصري على مدرج مطار بن غوريون في تل أبيب ومصافحته لمناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي حينها وغولدا مائير وسواهما من مسئولي العدو الصهيوني الذين حضروا لاستقباله، أذكر حشرجة صوت المذيع الذي علّق بغضب على الحدث واختلاطها بهمهمة السيدات المتابعات للبث مع والدتي وهن يرتدين ملابس الحداد فيما راحت علبة المناديل الورقية تنتقل من يد إلى أخرى لتجفيف الدموع المنسكبة من مآقيهن المحمرّة، المراقب الغريب لما حدث في بيتنا في ذلك اليوم كان حتما سيعتقد بأنه أمام مجلس عزاء... تابعت المشهد صامتا وشعرت بالشفقة على حال النساء المسكينات والمزيد من النقمة تجاه ذلك الرجل "الأحمق" وفعلته الشنيعة.

رحل أنور السادات بعد سنوات معدودة عندما اغتالته ثلة من المسلحين في خضم استعراض عسكري مهيب في ذكرى النصر الذي تحقّق على يديه في حر ،

أكتوبر، مشهد القتلة وهم يقفزون من عربتهم ويسدّدون نيران أسلحتهم باتجاه المنصة الرئاسية والفوضى والجلبة التي تلت ذلك تكرّر عرضه مرارا على شاشة التلفزيون ورافقته تعليقات نارية للمذيعين عن المصير المحتوم الذي ينتظر كل خائن عميل، المفاجأة بالنسبة لي كانت في موقف السيدات العروبيات اللاتي جاهرن بشماتتهن بموت السادات، رقبتهن وهن يتابعن إعادة عملية الاغتيال بسعادة مثيرة للغثيان في ذات الغرفة التي نُحن فيها على زيارته الأولى لإسرائيل... الفجور والوضاعة في الخصومة كانا مألوفين من وسائل إعلامنا، لكنني استغربته من نساء ورجال كنت أعدهم قدوات في الخلق الرفيع والنبل، كان ذلك أول فتق في غلالة الرومانسية التي غلّفت منظوري للتيار القومي وتابعيه.

الشق، وإن كان صغيرا، لكنه كان كافيا بالنسبة لي كي أمعن النظر من خلاله في مواقفي السابقة بموضوعية أكبر وشيء من الحياد، بدأت في البحث عن كتب ومراجع مناوئة للتجربة الناصرية، أدهشني أن كثرة منها لم تكن تنقصها الحجة والمنطق في الطرح، ما قرأته عن أخطاء الزعيم الراحل وعهده كان كفيلا بجعل الثقب يتسع أكثر فأكثر حتى تهرأ النسيج وتهاوى كبيت عنكبوت واهن... مراجعتي لم تقتصر على الرمز بل امتدت لتشمل سلوك الناصريين عموما، بدأت ألحظ تناقضات كثيرة بين ما يقولونه وما يفعلونه على أرض الواقع، كانوا يهلّلون لناصر ونظامه الاشتراكي ثم يحرصون على الحفاظ على مفردات العيش المرفّه الباذخ، يدعون للتحرّر وسعة الأفق وهم أشد الناس انغلاقا وعصبية.

"عندما تصغي لحديثهم الحماسي عن النضال من أجل تحرير فلسطين وتحقيق الوحدة العربية يُخيّل إليك بأنهم على أتم الاستعداد لتقديم أرواحهم وأموالهم وأولادهم فداءً للأمة، لكن جرّب أن تدعوهم للتبرّع أو التطوع للانضمام إلى صفوف الفدائيين وسيظهر لك زيفهم وجبنهم! هم مجرد صور مثيرة وجعجعات فارغة،" أصغيت باهتمام لتصريح صديق والدي عن معارفه من القوميين، ذات حوار دار بيننا عنهم، ولم أتمالك نفسي من سؤاله:

" فماذا عن نضالهم خلال العهد الملكي وخروجهم في مظاهرات مؤيدة للقضية وتوزيعهم للمنشورات المعارضة ولجوءهم إلى مصر هربا من الاضطهاد السياسي؟ هل كان كل ذلك تمثيلا؟"

" تلك كانت موضة سادت بين شباب وشابات الطبقات الموسرة في العاصمة والحواضر الكبيرة ومن دار في دوائرهم، خير دليل على ذلك أنك تكاد لا تجد أثرا لهم بين أبناء الريف مثلا، عندما كانت الشرطة تلقي القبض على أحدهم كانت عائلته تسارع بالتوسّط عند هذه الجهة أو تلك فيُفرج عنه خلال ساعات معدودة يخرج بعدها مزهوا بين رفاقه بتحقيق بطولة وهمية... رحم الله أيام الملكية! لو كان الناصريون مخلصين لمبادئهم بالفعل لثاروا ضد مظالم هذا العصر وهي تُرتكب أمام أعينهم في وضح النهار دون أن يحركوا ساكنا لأنهم يدركون جيدا العواقب الوخيمة لإغضاب النظام الحالي وزبانيته".

كنت سأظن الرجل متحاملا ومتجنيا في حكمه على القوميين لغاية في نفسه لولا أني شهدت عن قرب ازدواجية المعايير التي تحدّث عنها، فقد سبق لي أن ابتعت من معرض الكتاب مؤلفا لكاتب لبناني عن عهد جمال عبد الناصر وأعرته لسيدة من أقارب والدتي كي تقرأه وتبدي رأيها فيه، لكنها أعادته لي بعد يوم واحد فقط وهي تتنفض غضبا لأن الكاتب تجرّأ على انتقاد قرارات الزعيم الراحل وشكّك في نواياه، الحكم القاطع صدر عقب قراءتها لصفحة واحدة فقط رمت بعدها الكتاب جانبا ورفضت رفضا قاطعا مناقشة الموضوع أو توضيح أسباب تخوينها للمؤلف واتهامها له بالعمالة للصهاينة... ساعني تصرّف السيدة التي كنت أكن لها احتراما وتقديرا كبيرين، لكن تلك لم تكن المرة الأولى التي أشهد فيها صدور ردود أفعال مماثلة عنها.

سمعتها ذات مرة تنعت ممثلة مصرية شهيرة "بالساقطة" لمجرد أداء الأخيرة لدور في فيلم أخرجه يوسف شاهين وحمّل فيه جمال عبد الناصر مسئولية الهزيمة في الحرب أو لمّح بذلك، توفيق الحكيم كان بالنسبة لها عميل مأجور لنشره كتاب "عودة الوعي" الذي انتقد فيه ممارسات العهد الناصري، الأمر ذاته مع يوسف السباعي وأنيس منصور الذين اصطفا مع السادات، وكذلك مصطفى أمين الذي نشر مذكراته عن التعذيب الوحشي الذي تعرّض له خلال سنوات سجنه بتهمة التخابر مع الأمريكان... هذا المطرب وذاك الشاعر وسواهما من أصحاب الرأي والمثقفين المصريين والعرب كانوا يُضافون تباعا إلى قائمة سوداء طويلة خاصة بالسيدة العروبية استحق كل من فيها المقاطعة واللعن.

" لكن ما ضير أن أقرأ رأيا مخالفا لما أتبنّاه وأحاور صاحبه بالمنطق فأقنعه أو يقنعني؟ أليس ذلك أجدى من أن أحيط نفسي بأسوار صماء عالية فلا أعود أرى

ضوء الشمس أو أتنفس هواءً منعشا؟"... نظرات لوّامة عكست شعورا بالخيبة والمرارة سدّدتها لي مناضلة الأمس، لكن أسئلتي لها لم تنقطع بل ازدادت وتيرتها وجرأتها مع نضجي على وقع الأحداث الجسام التي تعاقبت علينا.

كنت قد عدت للتو من زيارة قصيرة للأردن، لمست خلالها جماهيرية مفزعة لصدام حسين بين العوام فيه على الرغم من الخراب الهائل الذي تسبّب به إثر غزوه الكويت، عندما جاءت السيدة الناصرية لزيارتنا واسترسلت كعادتها في استرجاع ذكريات الأيام الخوالي:

" كنت جالسة في بهو الفندق في لندن خلال اصطيافنا فيها ذات عام وسمعت سيدة مصرية تشكو لمن معها الخوف وقمع الحريات خلال عهد جمال عبد الناصر وتمتدح السادات الذي أتاح لها السفر وتنشّق هواء أوروبا من جديد، فلم أتمالك نفسي من أن أصرخ بوجهها قائلة: "أيتها الحمقاء التافهة، ألا تدركين بأن ناصرا الذي تهاجمينه قد أعطاك وشعبك العزة والكرامة ورفعة الشأن بين الأمم؟ كيف تجرؤين على مقارنته بأنور السادات، ذلك العميل الخائن؟""

" لا شك بأن عبد الناصر كان فريدا في نزاهته وإخلاصه"، عقّبت والدتي على رواية الضيفة، لكنني لم أستطع مجاراتها فيما ذهبت إليه فقلت:

" ذلك بالضبط ما قاله لي كثر من الذين قابلتهم خلال سفرتي، دماؤنا التي سالت وبنانا التي تهدمت، تيتُّم أطفالنا وترمُّل نسائنا وانهيار جيشنا واقتصادنا، كل ذلك لم يكن يعني لهم شيئا أمام صواريخ معدودة قصف صدام بها إسرائيل والخليج فشفت غليل صدورهم لدقائق معدودة، نحن بالنسبة لهم مجرد بيادق في نزال حام للشطرنج، وُجِدنا كي يضحي اللاعبون بنا في سبيل حماية "الملك" والاستمتاع بالفوز".

نظرت محدثتي لي شزرا ثم قالت:

" لا مجال للمقارنة بين جمال عبد الناصر وصدام! الأول زعيم الأمة العربية وفخرها، ضحى بنفسه من أجل تحرير شعوبها، أما الآخر فمجرد مجرم بلا قيم أو مبادئ!"

" لكن في نظر الآخرين هو..." حملت السيدة حقيبتها وغادرت المنزل دون أن تترك لي فرصة لشرح وجهة نظري، كنت أريد القول بأن من ينظر للأمور من الخارج حتما لن يكون منصفا في استنتاجاته عنها.

في تلك الفترة لم يكن مقبولا بين أوساط القوميين عقد مقارنات بين ناصر وأي حاكم عربي آخر، خصوصا صدام الذي انتهك شرائع العروبة بغزوه لجاره الجنوبي واحتلال أرضه ونهب ثرواته، لكن حتى ذلك تغيّر عندما تأزّمت الأمور بسبب الحصار الدولي الذي فُرِض علينا والانهيار المدوي للعملة الذي أسقط معه أقنعة كثيرة كانت تستر خلفها الكثير من الدمامل والتشوّهات.

آمل النّاس خيرا في برنامج النفط مقابل الغذاء الذي سمح للعراق بتصدير كميات محدودة من النفط لتأمين الاحتياجات الإنسانية الأساسية لشعبه، لكن ابن الرئيس الأكبر ما كان ليترك فرصة مواتية كتلك تمر دون أن يغتنمها لجني مزيد من الأموال حتى وإن كانت على حساب المرضى والجياعَ الباحثين عما يسد رمقهم في أكوام القمامة... قام عدي صدام حسين بإنشاء شبكة من العملاء والسماسرة الشباب، أنشأ لهم مكاتبا وشركات وهمية كي يستخدمها ويستخدمهم في عقد الصفقات، الأرباح الهائلة التي تحقّقت من وراء المشروع وجدت طريقها إلى جيب ابن الرئيس وكرّست هيمنته على سوق التجارة في عموم القطر أما الفتات المتبقي فكان يتم اقتسامه بين أفراد فريقه الذي تم انتقاؤه بدقة كي يضم بين أعضائه أبناء عدد من العوائل المعروفة بغرض تمرير العقود الضخمة دون إثارة شكوك المراقبين الدوليين.

كان من بين الأسماء التي وقع الاختيار عليها معارف أسرتي من الناصريين الذين لم يجدوا حرجا بل رحبوا بانغماس أولادهم وبناتهم في أوحال المال الملوّث... "المناضلون القدامى" الذين رفعوا لسنوات طويلة شعارات جمال عبد الناصر بالقضاء على الفقر والفساد والنضال من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية أمسوا رموزا لما كانوا ينادون بالثورة عليه وتغييره.

كان ذلك منعطفا حادا وحاسما في علاقتي مع القوميين العروبيين، لم يعد هناك مجال للتبرير وافتراض حسن النوايا، أسفت لحماسي الطفولي وإيماني بشعارات جوفاء، عقدت العزم على ألا أسمح لأحد أن يغرّر بي مرة أخرى، بت أنفر من كل صاحب صوت عال وأشكك فيما يقوله وأحرص على سماع الآراء المعارضة قبل المؤيدة، عثرت على ضالتي في الانترنت الذي بات متاحا لنا بعد الحرب الأخيرة، ووجدت متعة خاصة في المشاركة في النقاشات السياسية المحتدمة على مواقعها المختلفة، اطلعت على معلومات صادمة وحاورت أشخاصا عاشوا الأحداث

قرب... تجادلنا طويلا، طرحت الأسئلة الكثيرة التي كان يموج بها رأسي، كل إجابة حصلت عليها كانت تستتبع مزيدا من الفضول وعلامات الاستفهام، خصوصا فيما يتعلّق بآراء المصريين عن زعمائهم، ناصر والسادات على وجه التحديد.

"الرئيس السادات رحمه الله كان ذا شعبية كبيرة بين البسطاء الذين أحبوه بشدة وحزنوا لمقتله،" لولا إشارته إلى عملية الاغتيال الشهيرة التي راح أنور السادات ضحية لها في نهاية جملته كنت سأظن بأن التعبير قد خان محدثي الطبيب المصري ذا الأصول الريفية.

... من الأجدر والمنطقي أن يكون جمال عبد الناصر صاحب الجماهيرية الكبيرة بين الفقراء فهو من قضى على الإقطاع ووزع الأراضي الزراعية على الفلاحين وأقر مجانية التعليم لكافة المراحل الدراسية وأمم الصناعة والتجارة وغيرها من الإنجازات الكثيرة التي قرأت وسمعت عنها.

" كيف يمكن أن يتعاطف العوام مع الرئيس الذي أتى بسياسة الانفتاح سيئة الذكر وحرمهم من كثير من الامتيازات التي تمتعوا بها خلال عهد عبد الناصر؟ ثم ماذا عن عقده معاهدة السلام مع إسرائيل؟"... كان من الطبيعي أن أستغرب الرد، فقد صوّر لنا إعلامنا البعثي السادات كرجل مقيت منبوذ ومعزول عن شعبه الذي تنفس الصعداء بموته بينما تكفّل أصدقاء الأسرة من القوميين بتلميع صورة ناصر لديّ حتى خلته قديسا أو بطلا خارقا قبل أن أفيق من أوهامي على واقع مختلف. للرجل مزايا كثيرة، لا أستطيع إنكار ذلك، لكن أخطاءه لم تكن عابرة أو هينة أيضا، الصدمة الأكبر جاءت بعد سنوات عدة شهدت هجرتي من بلدي الأم وانضمامي إلى قوافل عراقيي الشتات.

" أنت عربي أيضا؟ أهلا وسهلا!" رحبت السيدة بي بعد أن قرأت اسمي في جواز السفر.

سبق لي التردد على المكتب للحصول على تذاكر طيران لرحلاتي إلى الأردن، لكن تلك كانت المرة الأولى التي أراها فيها... الكلمات القليلة التي تفوّهت بها كانت كافية كي أدرك بأنها مصرية، ظننت لأول وهلة بأنها مهاجرة جديدة حتى ذكرت في حديثها بأنها تركت القاهرة منذ نهاية الستينات.

"أوه، تلك كانت سنوات حكم الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله!" قلت لها من باب المجاملة.

" ربنا يجحمه مطرح ما راح! "

وقع ردها عليّ كالصاعقة، فغرت فاهي غير مصدق لما سمعته للتو... *هل قالتها فعلا، أم أن أذني قد أخطأت في ترجمة العبارة؟ ربما قصدت ربنا يرحمه مطرح ما راح؟*

أستطيع استيعاب أن البعض قد يختلف مع سياسات الرئيس الراحل ويعارضها، لكن حتى أشد خصومه ضراوة لم يذكروه بمثل ذلك السوء من قبل، تأمّلت السيدة الجالسة وراء الشاشة في وكالة السفر بدهشة، لم أستطع أن أخفي استيائي مما قالته... سألتها عن سبب حنقها على الرجل، ذكرت لها مشاريعه وانجازاته وما كان يردّده الجميع عن نزاهته وشجاعته في تحمّل المسئولية عند الهزيمة وخروج الملايين إلى الشوارع كي تثنيه عن قراره الفريد بالتنحّي.

" واضح تأثرك بالأفلام والمسلسلات المصرية التي شاهدتها، دعني أقول لك بأن الصورة من الداخل كانت مختلفة تماما، لقد كنا نعيش في الجحيم خلال سنوات حكمه، ذلك الرجل مسئول عن خراب مصر!"... أمضينا قرابة الساعة في جدال محتدم، كلما ذكرت منجزا يستدعي الفخر والعرفان لجمال عبد الناصر كانت مواطنته تبادر بتفنيده وتصرّ بأنه لم يجرّ على بلده والبلدان المجاورة له سوى الكوارث والويلات.

" ثورة يوليو أطاحت بالملك تحت ذريعة الفساد، لكنها نصّبت مكانه من هم أكثر فسادا وظلما بألف مرة، سياساتها المتخبطة تسببت بانهيار التعليم بجميع مراحله، بناء السد العالي نتجت عنه كوارث بيئية وبشرية وأدى إلى تهجير قرى بأكملها من أراضيها، تأميم قناة السويس كان قرارا انفعاليا طائشا استدعى عداوة الغرب التي دفعت مصر ثمنا باهظا لها لعقود، التنحي كان مجرد تمثيلية للهروب من المساءلة بعد دمار الجيش وهزيمته أمام إسرائيل، حرب اليمن كانت استعراضا للقوة وفرضا للهيمنة استنزف مقدرات البلد الاقتصادية والعسكرية، الداخل المصري كان يعاني من رهاب السلطة ودمويتها حتى أن الأخ كان يخشى البوح بما يجيش في صدره أمام أخيه، الثقافة والإبداع كانا مسيّسين بالكامل لخدمة المشروع الناصري والترويج له".

استرسلت محدثتي في هجومها على عبد الناصر وعصره بحرقة وإصرار عجيب، لم يكن في نظرها سوى شخص أناني أهوج حركته الأحقاد الطبقية وأحلام الزعامة المدمّرة، كان مستعدا لفعل أي شيء وكل شيء لتحقيق مجد شخصي حتى وإن كان على حساب شعبه وشعوب الدول العربية الأخرى... خرجت من لقائنا ورأسي يهدر بالشكوك وعلامات الاستفهام التي لازمتني لأيام وأسابيع وشهور.

" كنا نلوذ بالقاهرة خلال الستينات، تحملنا الطائرات إليها متى شئنا دون الحاجة إلى الحصول على تأشيرات دخول، فيقلنا سائقو سيارات الأجرة إلى أي فندق يقع اختيارنا عليه، نتناول الطعام اللذيذ فيه ونرتاح في الغرف المخصصة لنا ونغتسل ثم نتصل بالمسئولين الذين يصلون بعد فترة قصيرة وهم يحملون إلينا أظرفا مليئة بالنقود،" تذكرت ما دار بيني وبين السيدة المصرية في وكالة السفر وأنا أتابع اللقاء المتلفز مع الثائر الأفريقي السابق الذي راح يثني على جمال عبد الناصر ودعمه اللامتناهي لحركات التحرّر الأفريقية والعالمية.

... لكن تلك الأموال المبذولة بسخاء لم تكن ملك ناصر كي يبعثرها يمينا وشمالا في الوقت الذي كان بلده وشعبه يمران بأكثر الظروف دقة وحرج في خضم استعدادهما لحرب باهظة التكاليف مع إسرائيل، مصر كانت بحاجة لكل جنيه لإعادة بناء جيشها المدمّر وتحرير أرضها التي خسرتها في الهزيمة، شبابها كانوا يقضون في صراعات لا تعنيهم على هذه الجبهة الأفريقية أو العربية أو تلك لا لهدف سوى أن تتحقق لرئيسهم الزعامة الإقليمية والدولية... ماذا لو تم استثمار تلك الأموال والمقدرات في التنمية الداخلية عوضا عن هدرها في صناعة أسطورة؟ أي حال كانت مصر ستكون عليه اليوم لو أن الحروب المتعاقبة لم تستنزف ميزانيتها عبر السنين؟ ما الذي جناه العرب والفلسطينيون من قتال ناصر باسمهم سوى فقدان المزيد من الأرض وتشريد أصحابها؟ سيناء والجولان والقدس و...

تذكّرت روايات الناصريين العراقيين عن سنوات إقامتهم في القاهرة، المناسبات الوطنية والسهرات التي كانوا يدعون إليها باستمرار ويلتقون فيها بمشاهير الممثلين والمطربين، حفلات أم كلثوم وعبد الحليم حافظ التي حضروها، التعليم المجاني والرعاية الصحية التي تمتعوا بها مع أسرهم والرخاء الذي عاشوا به في العاصمة المصرية وتسكّعهم في باراتها ومطاعمها ونواديها الفاخرة على نفقة المواطن

البسيط الكادح والموجوع إثر فقدان أخ أو ابن أو زوج في سوح القتال المستعر، تذكّرت غرف استقبالهم المزينة بقطع الأثاث المنقوش التي شحنوها إلى بغداد بعد أن أنقضت مصاريفهم الباهظة ظهر مصر فلم تعد تطيق استضافة المزيد من "المناضلين" على أرضها.

... أليس ذلك ما حدث معنا ولنا خلال عقود حكم صدام حسين أيضا؟ تلك الآلاف المؤلفة من اللاجئين العرب الذين سكنوا مدننا ودرسوا في مدارسنا وجامعاتنا واستنزفوا مواردنا، مئات الملايين التي أُهدرت في دعم ذلك النظام الثوري الأفريقي والآسيوي أو هذا الحاكم العربي أو ذاك مقابل أن يتم رفع صورة رئيسنا والهتاف باسمه في الميادين والشوارع، المهرجانات والبذخ المرافق لها وسيل الوفود الزائرة المقيمة في قصور الضيافة والفنادق والمجمعات السكنية وتنعّمها على حساب أبناء البلد المحرومين من المعرفة والسفر وقبلهما الغذاء والدواء والطمأنينة في سبيل إشباع غرور طاغية مهووس بالحروب والمجازر، الذل والمهانة التي تعرّض لها العراقيون في بلاد الأشقاء بعد أن شحّت مواردهم وضاقت بهم السبل وشعورهم بالمرارة والخذلان لمعاملتهم كالحشرات في المطارات والسفارات والمعابر الحدودية وكفرهم بعد ذلك وبسببه بكل ما هو عروبي وقومي.

... كيف يمكن ألا أقارن بين العصرين وأحدهما نتاج الآخر ومحاولة لاستنساخه؟

تجربتي مع نظامين شموليين في العراق ومصر وانطباعاتي المتشكّلة عنهما عن طريق معايشتي المباشرة للنموذج الأول واستنتاجاتي عن بعد للنموذج الثاني جعلتني أتأمّل مفهوم الزعامة بشكل عام... في مسار الأمم هناك قادة كغاندي ومانديلا حقنوا دماء شعوبهم وسموا بهم عن العنف والضغائن، بينما نجد على الجانب الآخر نماذج سادية تسببت بهلاك عشرات الملايين من البشر كهتلر وموسوليني وستالين وسواهم.

... ما الذي يحدد أوجه الاختلاف بين قائد وآخر فيجعل أحدهما حميدا والآخر خبيثا مدمّرا؟

علم النفس يؤكد أن دعائم الشخصية الأساسية تُرسى خلال سنوات الطفولة ثم تتبلور الميول والاتجاهات السلوكية بعدها مع تعاقب التجارب التي يعيشها الانسان...

انغمست في قراءة كل ما استطعت العثور عليه من شهادات وروايات عن طفولة صدام حسين ومقارنتها بما كنت قد اطلعت عليه من كتابات عن نشأة جمال عبد الناصر كي أفهم سبب أن الثاني كان عفيف النفس مترفعا عن تكديس الأموال والقصور وعازفا عن ممارسة العنف بشكل مباشر وعلني، بينما كبر الأول شبقا للقتل والغدر والجاه والسلطة.

ليس سهلا أن يكون المرء مكروها من قبل أن يولد، ملعونا من الرحم الذي حمله... فكرت مع نفسي وأنا أقرا كتاب "السجين في قصره" للكاتب ويل باردنويربر عن حواراته مع حرس صدام حسين من الأمريكان الذين عايشوه خلال شهور حبسه في أحد قصوره المنيفة.

روايات الجنود عن مشاعر الألفة التي نمت بينهم وبين السجين الاستثنائي أثارت اهتمامي كما ذكرت من قبل، لكن ما أورده المؤلف في سياق حديثه عن حياة الرئيس السابق استوقفني، خصوصا حادثة وفاة شقيقه الأكبر وانهيار والدته "صبحة طلفاح" في المركز الصحي ومحاولتها إجهاض حملها به عن طريق ضرب بطنها بشدة بالجدار قبل أن يحول الناس بينهما فراحت تولول وتصرخ:

"أي شيطان يسكن رحمي؟ خلّصوني من هذا الجنين الملعون الذي لا يطيق وجود ذكر آخر سواه، لقد قتل أباه من قبل وها هو يقتل أخاه أيضا!".

شخصية صبحة لم تكن سوية، كان ذلك معروفا عنها في العوجة، القرية المُعدمة في ضواحي تكريت حيث أبصر وليدها النور في ظروف بالغة القسوة، أقدمت صبحة بعد فترة قصيرة على الزواج من رجل متوحش لم يكن يطيق رؤية ابنها وكان ينهال عليه بالضرب المبرح كلما لمحه... كبر صدام في أتون ذلك الجحيم وهو يعاني من عقدة غياب الأب الذي أحاطت به شتى الأقاويل، لاذ بالبرية وهام على وجهه فيها عاريا خائفا جائعا ومليئا بالغضب الذي صبّه على الحشرات والحيوانات، وجد لذّة بتعذيب المخلوقات الضعيفة بيديه، كان يرقبها وهي تنتفض وجعا قبل أن يجهز عليها فيشعره ذلك بنشوة عارمة وبهجة.

لدينا معلومات كثيرة عن طفولة صدام المشرّدة وعن انضمامه عندما كبر إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي وصعود نجمه فيه، خصوصا بعد مشاركته في محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم عند مرور موكب الأخير في شارع الرشيد، لكن

الغموض والإشاعات بقيت تلف السنوات التي فصلت بين عهدي الطفولة والشباب في حياة الرئيس السابق... في كتاب باردنويربر ورد ذكر لحادثة طرد مدير مدرسة صدام له بسبب سوء خلقه ولجوء الأخير إلى خاله ووالد زوجته لاحقا "خير الله طلفاح" الذي أعطاه مسدسا وأمره بأخذ الثأر سريعا ففعل، لا نعلم على وجه التحديد ان كان مدير المدرسة المسكين ضحية صدام البشرية الأولى أم سبقه أشخاص آخرين إلى الهلاك على يديه.

تشاء الأقدار بعد مرور عقود عديدة على تلك الواقعة أن تدلي ابنة صدام حسين بحديث عن أمجاد "البطل الشهيد" في ذكرى رحيله فتستفز ادعاءاتها ضابطا عراقيا متقاعدا يعيش في المهجر هو "رياض آل شلية" وتدفعه للرد عليها بمقالة قرأتها باهتمام على شاشة هاتفي النقّال... النص الطويل حمل عنوان "إلى رغد ابنة الرئيس: هكذا نشأ الوالد الحنون!" وحفل بتفاصيل مريعة عن المرحلة التي شهدت احتراف صدام الجريمة وقطع الطرق قبل انخراطه في الحياة السياسية كما ضم أسماء الضحايا والجناة مع تواريخ محاضر الشرطة والأحكام القضائية الصادرة بحق الفتى اليافع وإيداعه سجن الأحداث بسبب صغر سنه وقتها.

الشهادة هذه المرة كانت مختلفة عن الأقاويل المألوفة المُشكّكة في نسب صدام والتي كبرنا ونحن نسمع الكبار يتهامسون بها... قرأت الجرائم الواردة فيها من سرقات واعتداءات بالضرب والتحرش الجنسي وحتى الاغتصاب والقتل، وتساءلت مع نفسي عن مآل "صدام التكريتي" كما كان يعرف حينها وحياته بين الشقاوات والبلطجية والمومسات، لو لم يستعن البعثيون به في تنفيذ مهامهم القذرة وتصفية خصومهم فيتغير مسار حياته بالكامل ويصبح قائدا للوطن والأمة.

... لكن ما الذي نتوقعه من شخص عاش حياة بائسة وطفولة تعسة كتلك التي كانت لصدام حسين؟ كيف لإسفنجة مغموسة في جردل مليء بالقاذورات أن تنضح ماءً زلالاً؟

من السهل عليّ وقد نعمت بدفء الأسرة ومحبتها الغامرة عبر مراحل حياتي المختلفة أن أدين سلوك صدام وأصب عليه اللعنات، لكن ما أدراني وما الضمانة لو أني كنت مكانه وعانيت ويلات طفولته وصباه أن لا أخرج منها مجرما فاقدا للضمير والمُثل كما فعل؟ شعرت بالأسى لما أصابني وأهلي وبلدي بسبب ميراث الماضي

وعقده المتأصلة في نفس رئيسنا السابق، لكن ما قرأته عن الموضوع فتح عيني على حقيقة أن الموضوعية المطلقة في تقييم الأحداث والأشخاص ليست سوى وهم كبير.

لكل مشهد أكثر من منظور يختلف باختلاف موقع الناظر إليه، لا الموجودون في قلب دائرة الحدث موضوعيون تماما ولا المتفرّجون عليه من الخارج... مصالحنا الذاتية وخلفياتنا والأطر الزمنية والمكانية للرؤية تؤثر جميعها على وضوحها والقناعات التي ترسخ لدينا تبعا لها، لكن تبقى لرواية من عاشوا الأحداث مصداقية وقيمة أكبر يجب أن تؤخذان بعين الاعتبار عند تحليلها.

لم أعد أصدر الأحكام جزافا أو أسمح لعاطفتي بتشكيل الصورة على هواها فيما يتعلق بالأحداث التي لم أعشها شخصيا، بت حريصا على ترك هامش للخطأ والمراجعة في كل قناعة أصل إليها وأسعى دائما لمعرفة آراء المعنيين مباشرة بالأمور وإن تعارضت مع ميولي فالحقيقة تكمن هناك، في منطقة الخلاف بين الأضداد.

راقبت باهتمام فورة التغيير التي اجتاحت العالم العربي منذ مطلع العقد الحالي، أصغيت إلى الجميع واستمعت لشتى الآراء، لكنني كنت دائما أعطي الأولوية لروايات شهود العيان من أبناء البلد المعني حتى وإن خالفتهم الرأي... حرصت على ألا أقع في الشرك الذي وقع فيه كثير من "الأشقاء" بإطلاق الأحكام عن بعد ودون إلمام كاف بحقيقة ما حدث في العراق.

كتبت قبل سنوات مقالا بالإنكليزية عن تأثير طفولة صدام حسين المُعذّبة في صناعة الطاغية الذي ردّد العالم اسمه طويلا قبل أن يطيح الغزو الأمريكي بحكمه وينتهي الحال به جثة مدلاة من حبل المشنقة... اخترت لنصي عنوان "صدام وأنا" ونشرته في دورية أدبية في الولايات المتحدة، ظننت أني بذلك قد أدليت بدلوي وطويت صفحة الماضي وأزحت حمله الثقيل عن كاهلي.

... سيرجع العرب عن غيّهم عندما تتّضح لهم معالم الصورة، الشهادات التي سيدلي بها أبناء جلدتي عن معاناتنا ستتكفّل بوضع الأمور في نصابها الصحيح كي تكون عبرة للأجيال القادمة وتمنع ظهور طغاة جدد في العراق.

للأسف، لم يتحقّق شيء من ذلك...

... فلماذا الآن؟

"صديقي العزيز، أما آن لك أن تترك الماضي؟ ألا يكفي ما عانيناه أنت وأنا؟ حاول أن تستمتع بالحاضر، تطلّع إلى المستقبل!"

- أحمد راسم: مهندس معماري عراقي مغترب.

"أنا من الكرك التي تلقّى مئات من أبنائها تعليما مجانيا في العراق لذلك فالناس هناك يحبون صدام بشدة، شأنهم في ذلك شأن الغالبية العظمى من الأردنيين، الجميع يشيدون به وبمآثره... أود أن أفهم سبب شعورك تجاهه"

- جميل حجازين: طبيب ومدوّن أردني.

رسالتان من صديقين لم يسبق لهما أن التقيا وصلتاني في ذات التوقيت، استقرتا متجاورتين في صندوق بريدي الإلكتروني فقمت بقراءتهما تباعا، كلتاهما جاءت تعقيبا على مقال كنت قد نشرته عن إرث صدام حسين ومحاولات أسرته الحثيثة لتجميله وجني المكاسب من وراءه على حساب الحقيقة... لم يكن أيّ من صديقيّ يعلم أن كلماته ستحسم أمر إكمالي المشروع الذي بدأته قبل أكثر من عامين وشهد انغماسي فيه فترات تعثّر وتردّد حتى كدت أصرف النظر عن الأمر برمته أكثر من مرة.

شرعت بالكتابة بعد أيام من وفاة والدي ودفنه هنا في نيوزلندا. الحدث، وإن كان متوقعا بحكم تقدمه في السن وتدهور حالته الصحية خلال الشهور الأخيرة، إلا أن أثره على نفسي كان مزلزلا، فجأة أدركت بأن ذلك العمود الراسخ في كياني لم يعد موجودا، رحل بصمته وحديثه وضحكاته وذكرياته وحنينه المتأجج أبدا إلى بغداد... تذكّرت حواره الذي كنت شاهدا عليه مع ممرضة نيوزلندية عند دخوله المستشفى ذات أزمة ألمّت به قبل عامين، قال لها بفخر وبلغة إنكليزية ذات لكنة أمريكية اكتسبها من سنوات دراسته في الولايات المتحدة في خمسينيات القرن الماضي:

" لقد أمضيت أكثر من ثلاثين عام في خدمة هذا البلد كطبيب ومدير، تمرّست خلالها في مؤسساته الصحية المختلفة".

"بقولك "هذا البلد" سيدي فأنت تقصد...؟"

"العراق طبعا!"

تبادلت الممرضة نظرات قليلة معي ثم أشاحت بوجهها عندما لاحظت ترقرق الدموع في عيني... أدركت يومها أن عقل والدي قد خسر حربه مع جنون العالم من حوله، أنهكته السنون والمخاوف والأحزان حتى لم يعد قادرا على تمويه مشاعره وانتمائه الحقيقي، شدّت روحه الرحال إلى شطآن دجلة البعيدة، لاذت بها وارتمت في أحضانها شاكية من وحشة الغربة وتعبها.

محنة أبي طالت كثر من رجال ونساء مسنين اضطرتهم الأحوال في بلدنا الأم إلى الهجرة إلى مدن الغرب والشرق حيث لا أهل ولا أصحاب ولا تاريخ، مجرد أمل ووعد بطمأنينة وسلام ورعاية صحية غابت عن العراق وأهله، انغلق أكثرهم على ذاته، ابتلعه الحزن قبل أن يسقط فريسة لهذا المرض أو ذاك. لكن التشرذم العاطفي ليس حصرا على المسنين من المغتربين، كلنا نعاني منه بشكل من الأشكال، أنا وأبناء جيلي والأكبر منا والأصغر، الجميع يعاني صراعا بين هويتين، إحداهما تسكن الروح والوجدان فيما تحمل الأخرى وثائق سفرنا الصقيلة الجديدة.

أمضيت سنوات بعد وصولي إلى أوكلاند وأنا أحلم كل ليلة ببغداد وببيتنا الذي تركناه فيها وحينا ومدرستي وجامعتي وأصدقائي، عشت آلاف الحيوات والميتات تحت القصف في منامي، كنت أصحو من كوابيسي صارخا مُبلّلا بعرقي ثم أدرك بأني لم أعد أعيش "هناك" فأعيد تشكيل مفردات واقعي الجديد وامضي قدما في مسيرة يوم جديد... كل شيء منقوص في الغربة، لا شيء مكتمل، لا شيء أصيل حتى السعادة والنجاح والعمل والصداقة والحب، لكن عجلة الحياة تستمر بالدوران رغما عن أنوف الجميع ولا تتوقف عند شخص أو حدث أيا كان.

... لكنه أبي ذاك الذي قد مات!

صرخة مكتومة تردّدت بين أضلعي، شعرت بعجز هائل وغضب على من تسبب بقهرنا، تمنيت لو كان بوسعي فضح بطولة صدام حسين المزيفة ووطنيته التي يتغنّى بها "الأشقاء" وإبلاغ العالم بكؤوس المرارة التي سقاها لنا طيلة عقود حكمه وبعد

سقوطه، تذكرت الضيق الذي كان يعلو ملامح أبي كلما استقلينا سيارات الأجرة في الأردن وتعرضنا لإصرار سائقيها على أسماعنا آيات تمجيدهم الفج المستفز "لأبي عديّ"... تذكرت زفيره ووالدتي وهما يهزّان رأسيهما أسفا ولسان حالهما يردّد الآية القرآنية:

"اللّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ"

... لكن، كيف سيعلمون ونحن لا نتحدث؟ من سوانا قادر ومؤهل بأن يخبرهم بحقيقة ما جرى؟ من غيرنا سيشرح لهم ويوضّح ويفنّد الأكاذيب والأوهام التي تسكن رؤوسهم؟

أعترف بأن الأمر ليس بالسهولة التي يظنها البعض، فلصمتنا أسباب كثيرة. أوّلها أن فئة كبيرة من المُضلّلين ترفض الإصغاء، الأمر هنا لا يقتصر على العوام الذين قد تكون غيبوبتهم مبرّرة إلى حد ما، لكن من بين أولئك عددا لا بأس به من المثقفين والأدباء والإعلاميين الذين لا يخجلون في حواراتهم المنشورة والمتلفزة من إبداء إعجابهم بالأدباء العالميين المناهضين للطغيان والديكتاتورية، كالفرنسي/ تشيكي الأصل ميلان كونديرا على سبيل المثال لا الحصر... السعي لمحاورة مثل تلك النماذج لن يجدي نفعا، فعندما يتسع ضمير المرء منا للإقرار بظلم ووحشية حاكم ما ويسبغ عليه بالرغم من ذلك هالة من القدسية والتبجيل فذلك مؤشر على اضطراب نفسي وعلة يستدعيان تدخّل المختصين لعلاجهما لا نقاشا هادئا عقلانيا، لكن من الخطأ التعميم.

كنت في زيارة إلى عمّان، عقب صدور كتابي الأول باللغة الإنكليزية عن اضطراب المسلم المعاصر وحيرته بين الانقياد التام للتقليد ومواكبة الزمن الذي يعيش فيه واشتراطاته المخالفة، عندما وُجّهت اليّ دعوة لتعريف أعضاء أحد نوادي الكتب في غرب العاصمة بعملي... حرصت على أن يكون حديثي مُختصرا ومُقتصِرا على الإبعاد الاجتماعية للموضوع الشائك دون الانخراط في حساسيات السياسة والدين، فأنا لست غريبا عن الواقع العربي وانغلاقه وعصبيته.

" بحكم انتمائي لأقلية مسيحية في بلد ذي غالبية إسلامية كالأردن فأنا مهتم بمعرفة حقيقة ما تردّد عن اضطهاد صدام حسين للأقليات العرقية والدينية في العراق،" وجّه الدكتور حجازين سؤاله لي بعد نهاية النقاش، تفكيره الاستقصائي وركونه إلى المنطق كانا مدخلا لصداقة نشأت بيننا ومراسلات امتدت عبر السنوات الماضية حتى

بعد سفره إلى أوروبا لاستكمال دراساته العليا في جامعاتها... الغالبية العظمى من شعوبنا تتبع عاطفتها وغرائزها وتترك هامشا ضئيلا للغاية للعقل في صياغة توجهاتها السياسية، أدرك ذلك جيدا، لكن وجود قلة منفتحة للحوار والمعرفة مثل جميل الذي رفض ترديد السائد من حوله دون التأكّد من صحته أعطاني بصيص أمل ودافعا للمضي قدما في تدوين شهادتي عن عصر صدام حسين وظاهرة الحنين إليه.

أمر آخر سبب تعثّر كتابتي لهذه الصفحات هو ما ذكره صديقي وزميلي العزيز أحمد راسم في رسالته لي... لا شك بأني أتوق إلى طي صفحة الماضي وأحلم مثله بمستقبل أجمل، لكن كيف السبيل إلى إقناع معماريين مثلنا بإمكانية تشييد بنيان جميل معاصر ومتين على أساس عفِن ونخِر؟ كيف نمضي قدما ونحن مكبّلون بسلاسل ثقيلة من الذكريات؟ كيف ونحن نرى بأم أعيننا أن ما تحمّلناه على مدار عشرات السنين على أمل بزوال وشيك للغُمّة وسقوط للطغيان قد تمخّض عن ولادة طغيان جديد؟

ليس غريبا على "الناجين" من المحن والكوارث أن يلزموا الصمت ويحاولوا نسيان ما حدث لهم، كان ذلك حالنا ونحن نعبر الحدود والقارات هربا من الجحيم، كثر منا أصيبوا بكآبة مُستحكمة، وُصِفت لهم شتى الأدوية المضادة للاكتئاب والتي كان من أعراضها الجانبية شعورهم بالتبلّد العاطفي والفكري، خضعوا لعلاج نفسي مطوّل نصحهم المختصون فيه بالبحث عن المتعة في الحاضر، الآن، دعوهم لنبذ نشرات الأخبار وكل ما تعلق بالسياسة والحروب من كتب وأفلام وسواها.

" ابتسموا، امشوا، تريّضوا وارقصوا، عيشوا طفولة جديدة وتفرّجوا على أفلام الرسوم المتحركة، تبادلوا النكت والطرائف و و و!"... قالوا لنا فأطاعهم الكثيرون.

انهمكت الغالبية في العمل، شرعوا باللهاث لتأمين عيش كريم لأبنائهم وتملّك مساكن في البلاد الغربية بدل تلك التي هجروها في العراق، عزفوا عن الحديث والنبش في الماضي واقتصرت استرجاعاتهم لما حصل في "الوطن" على زفرات ودموع يذرفونها على مخداتهم كل ليلة قبل النوم، سادت بينهم قناعة أن ما يمكن قوله لن يغير من الواقع شيئا أو أن هناك من هو أجدر منا برواية الحكاية، أبلغ وأقدر منا على مصارعة الكلمات وصياغتها، صوته أعلى منا وصبره أطول على احتمال الترّهات... النتيجة كانت أن القصة الحقيقية بدأت بالتساقط تباعا كأغصان شجرة

مريضة تحتضر، مكّن صمت المهاجرين الطويل وخوفهم ويأسهم الطفيليات والحشائش الخبيثة من امتصاص قوتها والنمو من حولها حتى تسيّدت المشهد وصنعت لنفسها "حقيقة" بديلة.

" لم يكف أحمد عن التفكير في العراق طيلة السنوات الماضية، كان عاقدا العزم على العودة إليه بمجرد أن يرحل صدام، لكن ما حدث بعد سقوطه كان صدمة للجميع"

قالت لي والدة صديقي عند زيارتي لها، فقد رجعت إلى بغداد بعد الغزو الأمريكي كي تصفّي ما بقي للعائلة من ممتلكات، حزمت بعد ذلك حقائبها عائدة إلى المهجر، حيث اللاوطن... تذكّرت كلماتها ونبرة صوتها الحزينة وأنا أقرأ رسالة أحمد الإلكترونية التي دعاني فيها إلى الكف عن النظر إلى الوراء، شعرت بأنه كان يوجه النصح لنفسه من خلالي فكلانا يعلم بأن الماضي وذكرياته لا يزالان في دواخلنا، بل هما محور حديثنا كلما سنحت لنا الظروف والمسافات واختلافات التوقيت بالتواصل.

... لكن لو افترضنا جدلا إمكانية النسيان، فإن سكوت أبناء جيلنا الذي جاوز منتصف العقد الرابع من عمره سيعني ضياع شهادتنا عما حدث إلى الأبد.

الأجيال التي تلتنا ستروي حكايا مختلفة، سيتحدثون عن استشراء الفساد والطائفية في عراق ما بعد الغزو وعن ظهور داعش وفظائعها ومجازرها التي لم تستثن بشرا أو حجرا، سيتحدثون عن تفجير منارة الحدباء في الموصل ومعاول آثمة هوت على تماثيل عمرها آلاف عدة من السنين فأحالتها هشيما، وعن المحاصصة السياسية وتشكيل المليشيات ودورها الذي لعبته في مسار الأحداث... ستكون رواياتهم مؤثرة وحيوية، لا شك في ذلك، لكنها تبقى ناقصة دون ذكر اليد التي سمّمت عن عمد تربة العراق وتركته مستنقعا تزكم رائحته الأنوف وتستوطنه شتى الأمراض والأوبئة.

... " فهل تريد الانتقام وتسعى للثأر وتتخّذ من الكتابة وسيلة لك؟"

سؤال طرحته على نفسي مرارا وتكرارا، منذ اللحظة التي أمسكت يدي بها القلم لكتابة مقالي الأول ونشره قبل سنوات عشر.

نعم أريد الانتقام، لكن انتقامي مشروع وسلمي، ليس فيه دماء تُراق ولا أرواح تُزهق، هو ديدن الكتبة والموثّقين منذ ولادة الحرف ووسمه على رُقُم الطين وألواح الحجارة وصحائف البردي وحتى عصر التكنولوجيا الرقمية الذي نعيشه، الكتابة ·ي

صرختي وصرخة كل مدوّن في وجه الظلم، ذلك ما أكّدته لي المؤلفة آن لانوت في كتابها الشهير "طائر بعد آخر" عن الأدب ودوره في الحياة... هدفي من نشر هذه الشهادة ليس الثأر من صدام حسين كشخص قدر ما هو إدانة أفعاله ونتائجها الكارثية، غايتي تعرية ظلمه والظلم الذي تعرّض له عندما كان طفلا وصنع منه مفاعلا بشريا للحقد والقتل، فأسلحة الدمار الشامل التي عجز المفتشون الدوليون عن العثور عليها بعد أن اتخذوها ذريعة لغزو العراق لم تكن مخبأة في منشآت تصنيعنا العسكري، بل كانت رابضة هناك في ظلمات أعماق رئيسنا.

قرابة عامين ونصف أمضيتها في كتابة هذا النص كانت من أصعب الأوقات التي مرت عليّ، كثيرا ما كنت أختنق بالكلمات فأهرع إلى خارج المكتبة العامة في أوكلاند للتمشي قليلا والتنفس بعمق ثم أعود لأستأنف نزالي الموجع مع الذات والذكريات على شاشة حاسوبي النقال، حذفت صفحات وفصول عند المراجعة خشية أن تبدو تأملاتي لما حدث وما يحدث خطابا منفرا، أريد لكتابي أن يكون صديقا صدوقا لقارئيه فلسنا بحاجة إلى المزيد من المواعظ والواعظين.

لست موهوما أو مهووسا بالبطولات وأعلم جيدا بأن قدرتي ضئيلة على التأثير أمام نفوذ وإمكانيات ماكينة الصدَّاميين الإعلانية وقعقعتها المستمرة، جلّ ما أسعى له هو وضع عصا في دواليب عربة هائلة تكتسح شوارعنا علّها تخفّف من زخم اندفاعها الذي ما فتئ يحصد أرواح الآلاف بل الملايين من الضحايا الأبرياء، عصا بعد أخرى وشهادة صادقة منشورة بعد أخرى قد تنجح في وضع حد لهذا الجنون

... ذلك ما أتمناه.

صدام و أنا ومتلازمة ستوكهولم

«شهادة شخصية شاملة عن مأساة الحياة في العراق على عهد «صدام حسين» الذي حكم العراق بالحديد والنار من سنة 1979 حتى 2003 عندما أسقطه التدخل الاستعماري الأمريكي. تحليل عميق للتعاطف غير المبرر مع جزار العراق بعد إعدامه يلقي الضوء على حالات أخري مماثلة مثل حنين البعض في مصر لعهد «حسني مبارك» أو للفترة الناصرية. جرس إنذار جديد لعواقب الاستبداد مهما تذرع بوشاح الوطنية».

صنع الله إبراهيم

علي شاكر كاتب وفنان تشكيلي عراقي, ولد في بغداد سنة 1969 واضطرته أوضاع بلاده إلي الهجرة –كما حدث للكثيرين من أبناء العراق– فانتقل إلي نيوزيلندة. نشرت له رواية «كافيه فيروز» وكتاب A Muslim on the Bridge فضلا عن عشرات المقالات في الصحف العربية والإنجليزية.

دار الثقافة الجديدة